الباب الثانى

تاريخ الأمة الواحدة (المسلمة)

فى أرض الرافدين (دجلة والفرات)

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

تاريخ الأمة الواحدة (المسلمة)

تمهيد :

تكلمنا فى بحث سابق[1] عن بداية التاريخ الإسلامى وقد توصلنا فيه إلى جملة من النتائج منها :

أولا : أن تاريخ الدين الإسلامى يبدأ بخلق الكون كله مسلما منقادا طائعا لله رب العالمين[2] .

ثانيا : أن تاريخ الأمة المسلمة الواقع التطبيقى لدين الإسلام ، يبدأ بخلق آدم ـــ عليه السلام ـــ الذى أُنزل من الجنة إلى الأرض ليشكل هو وزوجته وبنوه نواة المجتمع الإسلامى الأول[3] . أى أن عمر الأمة المسلمة ورصيدها من عقيدة التوحيد ونظام الإسلام وشرعه ، ومن التجربة والخبرة ، يضرب بجذوره[4] فى أعماق الزمن ، على مدى آلاف من السنين ،

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، الإسلام دين الله في الأرض وفي السماء ، ط . دار الوفاء بالمنصورة ، مصر ص ٢٨ ـــ ٤٤ ، ط . دار طيبة ، الرياض ١٤٠٥ هـ ، ص ١٦ ـــ ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦ ـــ ٢٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٤) وهذا يكشف الدور الخطير الذى لعبه المستشرقون ومن سار على نهجهم حينما حولوا هذه الفترة الزمنية الكبيرة من تاريخ الأمة المسلمة إلى تاريخ وثني جاهلي محض لا أثر فيه للرسالات السماوية . إذ أن المستقر عليه في حقل الدراسات التاريخية في دور العلم المعاصرة ، أن تاريخ البشرية ينقسم إلى تاريخ قديم ووسيط وحديث . ووضع تاريخ آدم عليه السلام وتاريخ الرسل من بعده حتى بعثة محمد ، ﷺ ، في الفترة التي تسمى بالتاريخ القديم ، وأطلقوا على فترة تاريخ آدم عليه السلام اسم العصور الحجرية ، أو عصور ما قبل التاريخ واعتبروها تاريخا وثنيا جاهليا محضا لا أثر فيه لدعوة الرسل ، وزعموا أن تاريخ الأمة الإسلامية لا يبدأ فقط إلا ببعثة محمد ، ﷺ ، التى جعلوها فى الفترة التى تسمى بالعصر الوسيط . أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الإسلام دين الله فى الأرض وفي السماء ، منهج كتابة التاريخ الإسلامي لماذا ، وكيف ؟ ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة .

لا يعلم عددها إلا الله سبحانه وتعالى وبهذا نستطيع أن نفهم حديث رسول الله محمد ، ﷺ : « مثلي في النبيين ، كمثل رجل بنى دارا ، فأحسنها ، وأكملها وأجملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ، ويعجبون منه ويقولون ، لو تم موضع هذه اللبنة ، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة »[1]. أى أن الإسلام عبارة عن صرح عظيم كان يقوم كل نبي بداية بآدم عليه السلام بوضع لبنة في بنائه ، حتى اكتمل ببعثة محمد ، ﷺ ، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾[2] .

وسنحاول على الصفحات التالية ، أن نعالج تاريخ الأمة المسلمة بداية بتاريخ آدم ـــ عليه السلام ـــ وحتى عصرنا الحاضر بشيء من التفصيل ، وماتوفيقنا إلا بالله سبحانه وتعالى .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .

(٢) المائدة : ٣ ؛ « هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبى غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الجن والإنس فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرّمه ، ولا دين إلا ماشرعه وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا** ﴾ أى صدقا فى الأخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى فلما أكمل لهم الدين تمّت عليهم النعمة ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ أى فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذى أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ وهو الإسلام : أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد كمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً . تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ١٢ .

المبحث الأول

آدم وزوجه وبنوه بتوجيه من الله رب العالمين يشكلون نواة المجتمع المسلم الأول على الأرض

في يوم من أيام الجمع ..

و في زمن موغل في القدم ، لا يعلمه إلا الله عز وجل ، أخبر الله سبحانه وتعالى الملائكة ، أنه جاعل في الأرض خليفة . وهنا سأل الملائكة رب العالمين سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك ، فأجابهم سبحانه وتعالى : ﴿ **إنّى أعلم ما لا تعلمون** ﴾[1] .

وقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم من تراب ، بطول ستين ذراعا[2] ، « كأنه نخلة سحوق » ، ونفخ فيه من روحه ، وهذا دليل على عظم شأن الإنسان عند ربه وخالقه سبحانه وتعالى .

ثم خلق الله سبحانه وتعالى حواء لتكون زوجة لآدم ـــ عليه السلام ـــ وسمح لهما بالحياة في الجنة ، والاستمتاع بكل شيء فيها ، بشرط ألا يأكلا من شجرة معينة من شجر الجنة[3] .

كما أن الله ـــ عز وجل ـــ قد نبه آدم عليه السلام إلى عداوة الشيطان له ولذريته : ﴿ **إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنة فتشقى** ﴾[4] .

---

(١) البقرة : ٣٠ ، انظر الوثائق من الكتاب والسنة صفحة ٤٢٢ في كتابنا الذى بين يديك .

(٢) انظر الوثائق ، ص ٤٢٢ . (٣) الوثيقة ،ص ٤٢٥ . (٤) طه : ١١٧ .

ورغم هذا التحذير ، فقد خالف آدم عليه السلام وزوجه أمْرَ الله سبحانه وتعالى نتيجة كيد الشيطان لهما ، وأكلا من الشجرة ، فأخرجهما الله سبحانه وتعالى من « اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة ، وأمرهما بالنزول إلى الأرض لتكون لهما قرارا وأرزاقاً وآجالا إلى حين »[1] .

واستشعر آدم ـــ عليه السلام ـــ الندم على ما اقترفت يداه ، فتاب إلى الله ، فتاب الله عليه : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم** ﴾[2].

وحينما نزل آدم عليه السلام وزوجه إلى الأرض ـــ والشيطان مُسلَّط عليهما ـــ كان الله قد أخذ عليهما العهد : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإمّا يأتينكم منّي هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون** ﴾[3] . وبنزول آدم وزوجه إلى الأرض ، بدأ قيام المجتمع المسلم الأول .

وهنا يحتاج الأمر إلى وقفة :

وهكذا يدرك الإنسان بالرجوع إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، أنّه مخلوق مكرم بنفخة من روح الله ، وأنه من سلالة نبى كريم هو آدم عليه السلام ، الذى خلقه الله عز وجل ، لغاية هى العبادة ﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[4] وأن الخالق العظيم قد أسكنه الجنة هو وزوجه فى الفترة الأولى من فترات حياته ، وأنه قد ارتضى له ولزوجه ولذريته من بعده الإسلام دينا ؛ الإسلام الذى يقوم على الإيمان بالله رب العالمين ، والعمل بأوامره والانتهاء عمّا نهى عنه : ﴿ **وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾[5] تحذير من المولى عز وجل لآدم عن مخالفة نهيه « ولا تقربا » ومخالفة أوامر الله ونواهيه ظلم ، كما وقع من الشيطان .

كيف ؟ حينما خلق الله آدم عليه السلام ، أمر الملائكة بالسجود له ، فسجدوا وأمر

---

(١) الوثيقة ، ص ٤٢٦ .
(٢) البقرة : ٣٧ .
(٣) البقرة : ٣٨ ـــ ٣٩ .
(٤) الذاريات : ٥٦ .
(٥) البقرة : ٣٥ .

إبليس بالسجود فعصى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** ﴾[1] لقد فسق عن أمر ربه حينما رفض الامتثال لأمر الله وقال : ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾[2] . لقد نسى اللعين أن الأمر صادر من الله الخالق ، والمخلوق مطالب بالامتثال لأوامر الله ، تنفيذ أمر الله أمر تعبدى .. عبادة .. لا يجب أن يُعمل فيها العقل . لقد رفض إبليس الانصياع لأمر الله تكبُّراً فطرده الله من الجنة ﴿ **قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾[3] . إن الكبر قد أدى إلى طرد إبليس من الجنة وأدى به إلى الشقاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

وهكذا يؤدى الكبر بصاحبه ﴿ **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق** ﴾[4] .

لقد أصبح الشيطان شريدا طريدا شقيا ، وبدأ الشيطان يخطط وينفذ .. يخطط لاجتيال آدم وزوجه وذريته عن دين الله الإسلام[5] : ﴿ **قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾[6] .. ﴿ **مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾[7] ﴿ **وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين** ﴾[8] ... وفى ذلك كله هو كاذب ... لماذا يكذب ؟ ليغرى آدم بعصيان أمر ربّه ، ليخرجه من الجنة فيشقى ... إن الشيطان لم يقل لآدم إن هنالك خالقا غير الله ، أو رازقا غير الله ، إطلاقا ، إنما دخل له من باب قد يخفى على الإنسان : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما** ﴾[9] .

ووسوس الشيطان لآدم وزوجه ليوقعهما فى المعصية ﴿ **فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماورى عنهما من سوءاتهما** ﴾[10] ، ﴿ **فدلاهما بغرور** ﴾[11] . إذن الشيطان حريص على تجريد الإنسان من لباسه حريص على خروج الإنسان عاريا .. خروج المرأة عارية .. والله حريص على أن يستر الرجل عورته وتستر المرأة عورتها ﴿ **يابنى آدم قد أنزلنا**

---

(١) الكهف : ٥٠ .
(٢) الإسراء : ٦١ .
(٣) الأعراف : ١٣ .
(٤) الأعراف : ١٤٦ .
(٥) خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم .
(٦) طه : ١٢٠ .
(٧) الأعراف : ٢٠ .
(٨) الأعراف : ٢١ .
(٩) طه : ١١٥ .
(١٠) الأعراف : ٢٠ .
(١١) الأعراف : ٢٢ .

عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ﴾[1] . والله سبحانه وتعالى خلق آدم مستوراً وخلق حواء مستورة وذلك دليل على وجوب ستر العورة ، وأن سترها من التقوى ومن الإيمان لأنه امتثال لأمر الله ﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾[2] .

ونسى آدم : ﴿ **فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى** ﴾[3] ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما** ﴾[4] أى على مواصلة الخطأ .

وهكذا ندرك أن الذين يعرون المرأة ويحرصون على تجريدها من حجابها الذى شرّفها الله به إنما هم من أعوان الشيطان وأنصاره ، وذلك يعنى أنهم مطرودون من رحمة الله فى الدنيا والآخرة .

وهكذا ندرك أن عدم ستر العورة دليل على عدم الالتزام بأوامر الله عز وجل .

إن الخطيئة أدت إلى تعرية آدم وزوجه فانزعجا ، لأن الحياء من الإيمان ، والفطرة ترفض العرى والتعرى : ﴿ **وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾[5] .

إذن هى حرب تُعْلن من شياطين الجن والإنس على المؤمنين الموحدين في كل شىء حتى اللباس الذى يرتدونه ، لأنهم لا يريدون للمرأة أن تستر جسدها وتحفظ عرضها وتصلى فرضها .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد انتبه آدم للخطأ الذى وقع فيه فأدرك أنه قد ظلم نفسه وزوجه بارتكاب هذه المعصية عصيان أمر الله ولكنه تعلم فى مدرسة الإسلام أن باب التوبة مفتوح للعبد مالم يغرغر ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾[6] ظلموا أنفسهم حقيقة . لماذا ؟ لأنهم كانوا يعيشون فى الجنة ، لا كد ولا جوع ولا عرى : ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾[7] ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾[8] .

---

(١) الأعراف : ٢٦ .
(٢) الأحزاب : ٥٩ .
(٣) طه : ١٢١ .
(٤) طه : ١١٥ .
(٥) الأعراف : ٢٢ .
(٦) الأعراف : ٢٣ .
(٧) طه : ١١٨ ، ١١٩ .
(٨) طه : ١٢٣ .

إن هذه الآيات الكريمة تفسر لنا الشقاء الذى يقع فيه البشرية اليوم . إن البشرية جائعة ، قطاع ضخم من بنى البشر لا يجد لقمة الخبز ، وقطاع ضخم يستجديها ، وقطاع ضخم يقترض لشرائها .... إن البشرية ظمأى ، حتى قطرة الماء عزّت وشحّت ... إن البشرية نزعت ثوب الحياء فصارت تتجول فى الشوارع والطرقات وعلى الشواطىء عارية دون استبقاء أدنى شيء من الحياء .

إن البشرية قد ضلت الطريق لحل مشاكلها ... إن البشرية المُتخم فيها والجائع يعيش حالة من الشقاء المضنى ، والسبب واحد وواضح إنّها تنكبت الطريق إنها مرقت من دين الله ، إنها جعلت كتاب الله وسنة نبيها وراء ظهرها ، إنها تنكرت لإسلامها لدينها .. إنها أحلت الحرام وحرمت الحلال .

وصدق الله القائل :

﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾[1] .

ورغم ذلك ينبه الله الخطائين ويطالبهم بالتوبة كما ينادى العصاة من بنى آدم كل ليلة ﴿ **ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾[2] ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾ . وهكذا يجب أن يسارع العاصى الذى ظلم نفسه بالتوبة كما تاب آدم وزوجه :

﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[3] ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾[4] وكانت التوبة . ولكن لابد من النزول إلى الأرض ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعا ، فإمّا يأتينّكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[5] ونزل آدم إلى أرض الهند واستوحش العبادة .. استوحش أصوات الملائكة الذين يسبحون ، الذين يعبدون الله رب العالمين . عانى الحرمان من الدخول إلى

---

(١) طه : ١٢٤ ــ ١٢٦ .
(٢) الأعراف : ٢٢ .
(٣) الأعراف : ٢٣ .
(٤) البقرة : ٣٧ .
(٥) البقرة : ٣٨ ــ ٣٩ .

البيت المعمور ... فأذن الله له ببناء بيت له فى الأرض ، فبناه ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا** ﴾ .

ماهو مصير الشيطان ؟ ماذا فعل الله به ؟ ﴿ **قال اخرج منها منه مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين** ﴾[1] وفى آية أخرى ﴿ **فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** ﴾[2] وهكذا تكون عقوبة كل من يحارب الناس ويحاول أن يجتالهم من دين الإسلام ويصرفهم عن دعوة الله عز وجل .

﴿ **قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾[3] الشيطان يطلب من الله عز وجل ؟... نعم . لماذا ؟ ليتوب ؟ بالقطع لا ! إذن لماذا يطلب المهلة ؟ ليكيد للإنسان ! ليجتاله عن دينه ! ليأخذه معه إلى النار ، كى يؤنس وحشته فى جهنم لو كان ذلك ممكنا ! ﴿ **أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾[4] .

تَحَدٍّ للقدرة القادرة !! ، كما يفعل الطغاة فى كل زمان ، كما يفعل المتجبرون فى كل زمان تماما ، كما يفعل الذين لا يخافون الله ، تحدٍّ للعزيز الجبار ، جرأة أدت إلى طرده من الجنة وإدخاله فى النار وهكذا نجد الشيطان يعلنها حربا ضارية على آدم وزوجه وذريته ، رغم أنهم لم يفعلوا شيئا ضده ، لم يرفعوا سيفا فى وجهه ؟ والسبب هوالحسد والغيرة ... إنه لا يطيق أن يرى الحق وجنده أمامه ؟ لأنه يذكره بجريمته ولذلك فقد أعلنها حرباً على آدم وذريته إنه لايريد منهم أن يكونوا عبيدا لله ، ولكنه يريدهم أن يكونوا عبيدا له ... وهكذا يريد الطواغيت فى كل زمان ومكان من بنى آدم ... وهذا هو سبب الصراع الذى يجرى على سطح الأرض منذ القدم .. شيطان يريد أن يجتال الإنسان عن دينه ، يريد أن يغتصب كل شيء من الإنسان حتى روحه ... وإنسان يحاول أن يفر من شركه ...

شيطان يحارب الإنسان فى منزله فى مدرسته فى جامعته فى الشارع ، وهو يقظ وهو نائم ، وهو على جميع أحواله .

---

(١) الأعراف : ١٨ .
(٢) الحجر : ٣٤ ــ ٣٥ .
(٣) الحجر : ٣٦ .
(٤) الأعراف : ١٤ ــ ١٧ .

وجَنَّد لذلك جنداً له من الإنس وسخر لنفسه كل وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية لاجتيال الناس عن دينهم .

هذه هى حقيقة المعركة التى بدأت فى الجنة ، واستعر أوارها على الأرض بعد أن طُرد أطرافها من الجنة ، وهى مستمرة ، وستظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾[1] .

المجتمع المسلم الأول في قمة التقدم الروحي والمادى :

لقد اقترنت حياة المجتمع الإسلامى الأول في حياة آدم عليه السلام ـــ والقائم على توحيد الله سبحانه وتعالى بتقدم مادى شمل جنبات الحياة كلها نتيجة لتعليم الله سبحانه وتعالى لآدم ، واستخلافه في الكون المسخر له ولبنيه من بعده . إنّ آدم وذريته في ذلك التاريخ كانوا في قمة التقدم الحضارى بشقيه الروحي والمادى . الشق الروحى الذى يقوم على الإيمان الكامل بالله سبحانه وتعالى مع إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، والشقّ المادى الذى يتمثل في تسخير الكون بما فيه لآدم وزوجه وبنيه من بعده .

وقد بينا ذلك في بحثنا السابق[2] ، ونوجز ما ذكرناه على النحو التالى :

أولا : إن الله سبحانه وتعالى قد علم آدم كل شيء ، ومن ذلك أولا : كيف يحيك ثيابه ، وكيف يستر جسده وجسد زوجه ، وبالتالى فقد علم آدم زوجه وأبناءه ، كيف يحيكون ثيابهم .

ثانيا : إن الله سبحانه قد علم آدم الألسنة كلها بما في ذلك اللسان العربي .

ثالثا : إن الله سبحانه وتعالى قد سخر له الكون ، وذلل له الأرض وما عليها .

رابعا : كما أنه سبحانه وتعالى خلق لآدم وذريته الأنعام وأعلمهم كيف يستفيدون منها ، من لحومها وألبانها وأصوافها وأوبارها وكيف يستخدمونها في أسفارهم ، لحملهم وحمل أثقالهم ، وعَلَّمهم قبل ذلك كيف يرعونها[3] .

---

(١) الأنبياء : ١٨ .

(٢) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ط دار الوفاء ٩٦ ـــ ١٠٢ ، ط طيبة ، ص ٨٥ وما بعدها .

(٣) وفي هذا رد على المستشرقين ومن سار على نهجهم الذين يزعمون أن الإنسان هو الذى استأنس الحيوانات البرية من تلقاء نفسه ، وأنه تعلم الرعي بحكم المرحلة التي كان يعيشها أيضا من تلقاء نفسه .

خامسا : وعلم الله سبحانه وتعالى آدم وبنيه صناعة السفن وركوب البحر بعد تذليله لهم .

سادسا : كما علم الله آدم وذريته كيفية الاستفادة مما خلق ، من مخلوقات في أعماق البحار ، لقد علّمهم كيف يصطادون الأسماك ، ليتخذوا منها طعاما طريا ، كما علمهم كيف يستخرجون الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان للزينة والتجارة .

سابعا : لقد فسر الله سبحانه وتعالى لآدم وذريته الظواهر الكونية ، مثل نصب الجبال الراسيات في الأرض لئلا تضطرب وتميل بأبناء آدم ، كما أعلمهم أنه قد جعل فيها أنهارا وطرقا ومسالك لعلهم يهتدون ، كما علمهم كيف يهتدون بالنجوم وغيرها من الظواهر الكونية كالطرق والجبال والأنهار وهم يضربون في جنبات الأرض ، وهذا كله دليل على فضل الله سبحانه وتعالى على آدم وبنيه ، ودليل على التقدم المادى الذى كانوا عليه والذى كان يقوم على قاعدة توحيد الله سبحانه وتعالى .

ثامناً : لقد علم الله آدم وبنيه كيف يستفيدون من كـل ما خلقه لهم من أشياء ، تعرف ربها وخالقها وسيدها وتسجد له سجود خضوع وانقياد .

تاسعا : بل إن الله عز وجل قد أخبر آدم عليه السلام وبنيه أنه علم النحل ، كيف تتخذ من الجبال والشجر بيوتا ، وكيف تطعم مما خلق لها من الأزهار والثمار ، ليحيلها الله سبحانه وتعالى في بطونها إلى عسل تخرجه فيكون منه شراب فيه شفاء لآدم وبنيه .

عاشراً : لقد خلق الله الحديد ، وجعل فيه منافع لبنى آدم وعلمهم كيف يستفيدون منه ، في صناعة الدروع ليتقوا بها شر أعدائهم في الحرب : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾[1] .

حادى عشر : أن الله قد أخبر آدم أنّه قد أنبت في الأرض من كل الثمرات والزروع بميزان وحكمة ، كما أعلمه أنه ما من شيء إلا خزائنه بيد الله عز وجل ، لأنه هو الرزاق ذو القوة المتين .

ثانى عشر : لقد علم الله آدم كل شيء ، ومن ذلك تفسير الظواهر الكونية ، مثل نزول المطر ، فالله يرسل الرياح تلقح السحاب فيدر ماء ، وتلقح الشجر فينفتح عن أوراقه وأكمامه ، فالريح كالفحل للسحاب والشجر[2] .

---

(١) الحديد : ٢٥ .

(٢) هذه هي حقيقة الفترة التي تسميها مناهج التاريخ ومراجعه في المدارس والجامعة على امتداد رقعة العالم ، باسم التاريخ =

آدم عليه السلام يهبط من الجنة إلى أرض الهند :

ذكر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى أن : آدم عليه السلام قد أهبط إلى أرض الهند وأن ذلك مما لا يدفع بصحته علماء الإسلام وأهل التوراة والإنجيل ، والحجة قد ثبتت بأخبار بعض هؤلاء[1] .

= القديم ، وأطلقت عليها اسم العصور الحجرية ، أو عصور ما قبل التاريخ ، وأن الإنسان كان فيها بدائيا يعيش معيشة لا تختلف عن معيشة الحيوان ، وأنه لم يكن يعرف له ربا ولا دينا .(انظر موسوعة تاريخ العالم ، ومعالم تاريخ الإنسانية ، وقصة الحضارة) .

ولقد بينا فساد هذه الموسوعات والمناهج والمراجع والمصادر فى كتابنا أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الرسالة الأولى ، ط دار طيبة ، وطبعة دار الوفاء ، وهدف هذه الموسوعات التاريخية التى بينا فسادها كما هو واضح فيها وفى غيرها ممن نهج نهجها ، هو هدم التدين ، وهدم الإسلام ، وتربية أجيال لا تؤمن بالله ولا برسوله ولا باليوم الآخر . وقد نجحوا فى ذلك أيّما نجاح : ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ .

تراجع الأدلة الشرعية لهذه الأقوال التي أوردناها في صفحة (٨٥) إلى (٩٢) من : أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، الرسالة الأولى ، ط . دار طيبة ، ط دار الوفاء ، ٩٦ — ١٠٢ .

(١) تاريخ الرسل والملوك ، ج ١ ، ج ٤ ، ص ١٢٢ .

المبحث الثانى

معالم ترسيها سيرة آدم عليه السلام فى حياة الأمة المسلمة

إن آدم عليه السلام هو أبو البشر : « كلكم لآدم وآدم من تراب » . وقد فطره الله وزوجته وبنيه على الإسلام . وذلك يعنى أن البشرية فى الأصل مفطورة على توحيد الله رب العالمين ، وأن الشرك عارض فى حياتها . وهذا يبين لنا فساد الدراسات التاريخية والاجتماعية التى زعمت أن الشرك هو الأصل فى حياة البشرية ، التى تطورت فى عقيدتها حتى وصلت إلى التوحيد من تلقاء نفسها أى أن الدين من اختراع العقل البشرى[١] . وقد بينا فساد هذه التصورات فى أبحاثنا[٢] .

إذن البشرية كلها ترجع فى أصلها إلى آدم عليه السلام وزوجه ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾[٣] .

والغاية التى من أجلها خلق آدم وزوجه وبنوه وذريتهم هى العبادة بمفهومها الشامل ﴿ **وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون** ﴾[٤].

وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

إن الدرس الأول فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تلقّاه آدم عليه السلام على يد الله رب العالمين ﴿ **وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾[٥] ولله المثل الأعلى ومن هنا تأتى أهمية الأمر بالمعرف والنهى عن المنكر .

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ، قصة الحضارة ؛ تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، تأليف جيمس هنرى برستد.

(٢) للمؤلف أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء ، طبعة دار الوفاء ،المنصورة .

(٣) البقرة : ٢١٣ .

(٤) الذاريات : ٥٦ .

(٥) البقرة : ٣٥ .

وجوب نصب الخليفة :

« استدل الإمام القرطبي وغيره بهذه الآية : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[1]. على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس ، ويقطع تنازعهم ، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ، ويقيم الحدود ، ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » الجامع لأحكام القرآن جـ ١ ، ص ٢٦٤ .

« والإمامة تنال بالنص ، كما يقول طائفة من أهل السنة ، فى أبى بكر ؛ أو بالإيماء به ، كما يقول آخرون منهم ؛ وباستخلاف الخليفة آخر بعده : كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب ؛ أوبتركها شورى فى جماعة الصالحين كذلك كما فعله عمر ؛ أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور ، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع والله أعلم . أو بقهر أحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدى ذلك إلى الشقاق والاختلاف ، وقد نص الشافعى : وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة ؟ فيه خلاف فمنهم من قال : لا يشترط ، وقيل : بلى ويكفى شاهدان ، وقال الجبائى : يجب أربعة وعاقد ومعقود له كما ترك عمر رضى الله عنه الأمر شورى بين ستة ، فوقع الأمر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف ، ومعقود له هو عثمان ، واستنبط وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقين وفى هذا نظر والله أعلم » .

« ويجب أن يكون ذكراً حُرّاً بالغا عاقلا مسلماً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبيرا بالحروب والآراء قرشيا على الصحيح . ولا يشترط الهاشمى ولا المعصوم من الخطأ خلافا للغلاة الروافض ؛ ولو فسق الإمام فهل ينعزل أم لا ؟ فيه خلاف والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام « إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان » . وهل له أن يعزل نفسه ؟ فيه خلاف ، وقد عزل الحسن بن على رضى الله عنه نفسه وسلّم الأمر إلى معاوية لكن هذا لعذر وقد مُدِح على ذلك ! فأما نصب إمامين فى الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام « من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان » وهذا قول الجمهور ، وقد حَكَى الإجماع على ذلك ، غير واحد ، منهم إمام الحرمين . وقالت الكرامية: يجوز اثنان فأكثر كما كان على ومعاوية إمامين واجبى الطاعة قالوا:

---

(١) البقرة : ٣٠ .

وإذا جاز بعث نبيين فى وقت واحد وأكثر جاز ذلك فى الإمامة لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبى إسحاق أنه جوّز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما وتردد إمام الحرمين فى ذلك » (تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ، ص ٧٢) .

* « إن آدم عليه السلام ، كان خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره ؛ لأنه أول رسول إلى الأض ، كما فى حديث أبي ذر ، قال : قلت : يا رسول الله ، أنبيًا كان مرسلا ؟ قال : « نعم » الحديث . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن في الأرض أحد ؟ فيقال: كان رسولا إلى ولده ، وكانوا أربعين ولدافى عشرين بطنا، في كل بطن ذكر وأنثى ، وتوالدوا حتى تكاثروا »[١] .

* « إن أكمل صورة للخلق الإنسانى هي « آدم عليه السلام » ، أو هي صورة أهل الجنة. كما بين حديث رسول الله ﷺ : « وأزواجهم الحور العين على خَلْقِ رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء » وكرم الله آدم عليه السلام بأربعة أمور : خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة وعلمه كل شيء » .

هذه الحقيقة تكشف لنا التزييف الذى تعرض له تاريخ الإنسان على يد المستشرقين ومن سار على نهجهم ، من أن بداية الخلق الإنساني هي الخلية الحية التي نشأت في البرك والمستنقعات [٢] ، وأن الإنسان من سلالة القردة .

كما تبين لنا فساد مناهج وتصورات ومراجع ومصادر ماتسمى بالعلوم الإنسانية (التاريخ ـــ الجغرافيا ـــ علم النفس الاجتماعى وغيرها) التى تبحث في تاريخ الإنسان على أنه من سلالة القردة كما زعم دارون فى كتابه « أصل الإنسان » الذى نشر عام ١٨٧١ ، لأنه شتان بين من يعالج تاريخ الإنسان على أنه مخلوق مكرّم بنفخة من روح الله وبين من يعالج تاريخ الإنسان على أنه من سلالة القردة . وذلك يعنى أيضا فساد الدراسات النفسية التى تتعامل مع الإنسان فى معامل التحليل النفسى على أنه جماد (جسد فقط) بغير

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(٢) معالم تاريخ الإنسانية ، ج ١ ، ولقد نبهنا إلى هذا التشويه والتزييف في كتابنا : أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، الرسالة الأولى ، ص ١٥ ، ١٦ ، صفحة ٦ من رسالتنا التى بين يديك .

روح ، وفساد الدراسات التى تزعم بأن الغرائز الحيوانية هى التى توجّه حركة الإنسان كما زعم فرويد ودوركايم وأعوانهم من شياطين البشر . ويتضح أيضا فساد كل المبادىء السياسية والاقتصادية والثقافية والتعليمية وغيرها التى تقوم على أساس أن الإنسان من سلالة القردة ، وأنه مادة مجردة من الروح .

كما يجب أن تراجع نظرية فرويد فى البحوث النفسية ونظرية دوركايم فى علم الاجتماع ونظرية ماركس الاشتراكية والشيوعية ونظرية فريزر فى علم مقارنة الأديان ، ويُبَيّن فسادها وتستبعد من المناهج والمراجع التعليمية التى تدرس فى المدارس والجامعات ، لأنها تقوم على منهج معادٍ للدين وعلى أساس أن الإنسان من سلالة الحيوان .

وإذا اتضح ذلك فيجب على المشتغلين بالعلوم الإنسانية وغيرها أن يراجعوا ما كتبوا عن حقيقة خلق الإنسان فى ضوء العقيدة الإسلامية ، ويقوموا بتصحيحهالتصحيح الواجب [1] .

آدم عليه السلام تكلم بالألسنة كلها ومنها العربية :

ولقد أورد الإمام القرطبي مسائل مهمة عند تفسير قول الله تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ [2] ، فقال :

« واختلف في أول من تكلم باللسان العربي ، فروى عن كعب الأحبار : أن أول من وضع الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها وتكلم بالألسنة كلها آدم عليه السلام » .

« فإن قيل قد روى عن كعب الأحبار من وجه حسن قال : أول من تكلم بالعربية جبريل عليه السلام ، وهو الذى ألقاها على لسان نوح عليه السلام ، وألقاها نوح على لسان ابنه سام ، ورواه ثور بن زيد عن خالد بن معدان عن كعب . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن عشر سنين » . وقد روى

---

(١) انظر ما كتبه محمد قطب ـــ بارك الله فى عمره ـــ فى مؤلفاته : التطور والثبات فى حياة البشرية ، الإنسان بين المادية والإسلام ، دراسات فى النفس الإنسانية ، أ.د. محمد رشاد خليل ، عن علم النفس الإسلامى .

(٢) البقرة : ٣١ .

أيضا : أن أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان . وقد روي غير ذلك » .

« قلنا (الكلام للقرطبي) : الصحيح أن أول من تكلم باللغات كلها من البشر آدم عليه السلام ، والقرآن يشهد له ، قال الله تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ . واللغات كلها أسماء فهي داخلة تحته ، وبهذا جاءت السنَّة قال ﷺ : « وعلم آدم الأسماء كلها حتى القصعة والقصيعة » . وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أن من تكلم بالعربية من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيل عليه السلام ، وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أول من تكلم من قبيلته بالعربية بدليل ماذكرنا ، والله أعلم . وكذلك جبريل أول من تكلم بها من الملائكة ، وألقاها على لسان نوح بعد أن علمها الله آدم أو جبريل على ماتقدم ، والله أعلم » [1] .

آدم وزوجه هما الشخصان الوحيدان اللذان قدّر لهما أن يعيشا في الجنة ، ثم نزحا إلى الأرض ، ومكابدة الحياة ومشقاتها :

ولا بد أن آدم الذى شاهد الجنة وعاش فيها ، قد حكى ذلك لأبنائه ، وشتان بين من شاهد وعاين ، ومن سمع ، وشتان بين حياة الجنة وحياة الأرض التي يكابد الإنسان فيها . ومما لا شك فيه ، أن أبناء آدم في ذلك الوقت بعدما سمعوا من أبيهم كانوا يرنون بأبصارهم إلى هذه الجنة التي يسمعون عنها ، ولا بد أن أرواحهم كانت ترفرف حولها ، وتتمنى الوصول إليها . وفهموا أن السبيل إلى ذلك إطاعة أوامر الله وتطبيق نظامه وشرعه ، وعمل كل مايقربهم إلى هذه الجنة وكل ما يبعدهم عن النار . ولذلك لا عجب أن تسمع عن رسول الله ﷺ أن بعد آدم جاءت عشرة قرون يقول ابن عباس رضي الله عنه « كلهم على الإسلام » .

« إن الأمور لا تؤخذ بظواهرها ، وأوامر الله المشرع الحكيم لا تعرض على العقل ليُبدى فيها رأيا بالقبول أو الرفض ، وإنَّما لا بد من الاستسلام لأوامر الله سبحانه وتعالى ابتداء دون عرضها على العقل . نستقي هذا الفهم من مسألة إعلان الله سبحانه خلق آدم عليه السلام . فظاهر أمر المسألة كما فهمه الملائكة سوف يؤدى إلى الإفساد في الأرض وسفك الدماء . ومن هنا كان استفسار الملائكة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤ .

الدماء ؟ ﴾[1] ولذلك جاء البيان الرباني ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون ﴾** .

ومن هنا نخلص إلى أنَّ بني آدم مطالبون بالاستسلام لله رب العالمين في الصغيرة والكبيرة ، وأن يدخلوا في « السلم كافة » ، لأن الله أعلم بما يصلح أحوالهم : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾** [2] . دون أن يُعْمِلُوا عقولهم في أوامر اللطيف الخبير .

* الواجب على من سئل عن مسألة أن يقول إن لم يعلم : « الله أعلم ولا أدري » ، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء ، لكن قد أخبر الصادق : أن بموت العلماء يقبض العلم ، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون . وأما ما ورد في الأخبار عن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين بعدهم في معنى الآية : ﴿ **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾** [3] :

« فروى البُسْتِيّ في المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أيّ البقاع شرّ ؟ قال : « لا أدرى حتى أسأل جبريل » فسأل جبريل ؛ فقال:لا أدرى حتى أسأل ميكائيل ؛ فجاء فقال : خير البقاع المساجد ، وشرُّها الأسواق . وقال الصّديق للجدَّة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان عليّ يقول : وأبردها على الكبد ؛ ثلاث مرات . قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يُسأل الرجلُ عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابن عمر رجلاً عن مسألة فقال : لا علم لي بها ؛ فلما أدبر الرجل . قال ابن عمر : نِعم ما قال الرجلُ ، سُئل عما لا يعلم فقال لا علم لي به ! ذكره الدّارمي في مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبى عقيل يحيى بن المتوكل صاحب بُهَيّة [4] قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد ، فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه عِلْمٌ ولا فَرَج ، أو عِلْمٌ ولا مَخْرَجٌ ؟ فقال له القاسم : وعمَّ ذاك ؟ قال : لأنك ابن إمامىْ هدى : ابن أبي بكر وعمر [5] . قال : يقول له القاسم : أقبحُ من ذاك عند من عَقل عنْ الله أن

---

(١) البقرة : ٣٠ . (٢) الملك : ١٤ . (٣) البقرة : ٣٢ .

(٤) بهيّة (بالتصغير) : مولاة أبى بكر رضى الله عنه ، تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور .

(٥) القاسم هذا ، هو ابن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هى أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ فأبو بكر جده الأعلى لأمه ، وعمر جدّه الأعلى لأبيه ، وابن عمر جدّه الحقيقى لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووى على صحيح مسلم) .

أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت ابن هُرْمُز يقول : ينبغي للعالم أن يُورّث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا في أيديهم ؛ فإذا سُئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهيثم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها : لا أدري » .

« قلت : ومثلهُ كثيرٌ عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسةُ وعدم الإنصاف فى العلم . قال ابن عبد البرّ : من بركة العلم وآدابه الإنصافُ فيه ، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت ابن وَهْب يقول : سمعت مالك بن أنس يقول : ما فى زماننا شيء أقلّ من الإنصاف » .

« قلت : هذا فى زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذى عمّ فينا الفساد وكثر فيه الطّغام ! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدّراية ؟ بل للظهور فى الدنيا وغلبة الأقران بالمِراء والجدال الذى يُقْسى القلب ويُورث الضِّغن ؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما رُوى عن عمر رضى الله عنه وقد قال : لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذى العَصَبة — يعنى يزيد بن الحُصين الحارثى — فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال ؛ فقامت امرأة من صَوْب النساء طويلة فيها فَطَس[1] فقالت : ماذلك لك ! قال : ولم ؟ قالت: لأن الله عز وجل يقول : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً** ﴾ [2] فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وكيع عن أبى معشر عن محمد بن كعب القُرْظي قال : سأل رجل عليًّا رضى الله عنه عن مسألة فقال فيها ؛ فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ؛ فقال علىّ : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذى عِلْمٍ عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أصبغ قال : لمّا رحلت إلى المشرق نزلت القَيْروَان فأخذت على بكر بن حماد حديث مسدّد ، فقرأت عليه يوما حديث النبىّ ﷺ : « أنه قدم عليه قوم من مُضَرَ مِن مُجْتَابِى[3] النِّمَار » فقال : إنما هو مُجْتابى النّمار ؛ فقلت: إنما هو مُجْتابى النمار ؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه

---

(١) الفطس (بالتحريك) : انخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها . انظر الجامع لأحكام القرآن ، ج ٣ ، صفحة ١٦٦٩ .

(٢) النساء : ٢٠ .

(٣) مشققة مخططة .

بالأندلس والعراق ؛ فقال لى : بدخولك العراق تُعارضنا وتفخر علينا ! أو نحو هذا . ثم قال لى : قم بنا إلى ذلك الشيخ ـــ لشيخ كان فى المسجد ـــ فإن له بمثل هذا علماً ؛ فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مُجْتابى النّمار[1] كما قلت . وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشـــققة ، جيوبُهـم أمامهـم . والنِّمار جمـع نمرة [2] . فقال بكر بن حمـاد وأخذ بأنفسه : رَغِمَ أنْفِى للحق ، رَغِم أنفى للحق . وانصرف . وقال يزيد بن عبد الملك فأحسن :

إذا ما تحدثتُ فى مجلسٍ تَناهَى حديثى إلى ما عَلمتُ
ولم أعْدُ علمى إلى غيره وكان إذا ماتناهَـــــى سَكتُّ »

(انتهى كلام الإمام الطبرى)

العبد التائب يحظى برحمة الله :

أهمية الرحمة والرفق بالخلق وإن أخطأوا ، نستمد ذلك من رحمة الله الواسعة ورفقه بخلقه ـــ ولله المثل الأعلى ـــ لقد خالف آدم ربه ، وأكل من الشجرة ، فإذا بالله العزيز الحكيم يؤنبه فيتوب ، فيتوب الله عليه : ﴿ **ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾ [3] . ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ [4] .

وهذا درس لنا ، قد يخطىء إنسان ، وقد يسقط ، فلا تُعنِّفه ، ولا تَتركه ، بل تُذكره الله ، وتُذكره عداوة الشيطان له ولبنيه ، لعله يرجع ويتوب .

إنَّ الكِبْر يعزل الإنسان عن رحمة ربه :

﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلَّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ [5] .

ولقد فسر الإمام القرطبي هذه الآية بقوله : « الاستكبار : الاستعظام ، فكأنه كره

---

(١) مجتابى النمار : أى لابسها . يقال : اجتبت القميص والظلام دخلت فيهما .
(٢) وهى كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنما أخذت من لون النمر .
(٣) الأعراف : ٢٢ . (٤) البقرة : ٣٧ . (٥) البقرة : ٣٤ .

السجود في حقه واستعظمه في حق آدم ، فكان ترك السجود لآدم تسفيها لأمر الله وحكمته . وعن هذا الكبر عبر عليه السلام بقوله : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » . وفي رواية فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . قال : « إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » . أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه وإبطاله . وغمط الناس : الاحتقار لهم والازدراء بهم . ويروى : وغمضه : استصغره ولم يره شيئا . وغمضت عليه قولا قاله ، أى عبته عليه . وقد صرح اللعين بهذا المعنى فقال : ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ (١) . ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾ (٢) . ﴿ **لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون** ﴾ (٣) . فكفَّره الله بذلك .

فكل من سفه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حكمه حكمه ، وهذا ما لا خلاف عليه » .

ومن بقية شروح الإمام القرطبي تتضح : أن بدء الذنوب الكبر ، ثم حرَّض آدم على الأكل من الشجرة ، ثم الحسد ، إذ حسد ابن آدم أخاه (٤) .

« إذن الكبر يعزل المرء عن رحمة الله ، وكان حقا على الله أن يذل المتكبر في الدنيا والآخرة : ﴿ **فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾ (٥) . والكبر هو الذى أدى بالشيطان إلى الكفر : ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، أستكبرت أم كنت من العالين** ﴾ (٦) ، أى استكبرت ولا كبر لك ، ولم أتكبر أنا حين خلقته بيدى والكبر لي ؟ فلذلك قال : ﴿ **وكان من الكافرين** ﴾ » (٧) .

حب السلطان وكراهية الموت :

إن شهوة الملك والرغبة في الخلد مذخورة في نفس الإنسان ، وحينما حركها الشيطان في نفس آدم عليه السلام : ﴿ **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا**

---

(١) ص : ٧٦ .
(٢) الإسراء : ٦١ .
(٣) الحجر : ٣٣ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .
(٥) الأعراف : ١٣ .
(٦) ص : ٧٥ .
(٧) تفسير القرطبي ، ج ١ ص ٢٩٧ .

ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ [1] استجاب .

لقد أتاهما الشيطان من حيث أحبا : « حبك الشيء يعمي ويصم » [2] .

وهذا يفسر لنا المجازر التى تقع فى صفوف بنى البشر ، وهذا يفسر لنا أسباب الحروب التى اصطلت البشرية بويلاتها ، إنها الرغبة فى السلطة ، إنها الرغبة فى الزعامة ، الرغبة فى الاستحواذ على ثروات الآخرين ، الرغبة فى الخلد فى المناصب والمراكز .

اليقظة والحذر من الشيطان :

يقول الله عز وجل : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴾** [3] .

« ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقظ لكثرة معارفهم وعلو منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكر النهي تضييعا صار به عاصيا ، أى مخالفا . قال أبو أمامة : « لو أن أحلام بني آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت في كفة ووضع حلم آدم في كفة أخرى لرجحهم » . وقد قال الله تعالى : ﴿ **ولم نجد له عزما ﴾** .

وهذا يستوجب من المسلم أن يكون حذرا أيضا من شياطين الإنس والجن ، فلا يغتر بقسمهم بالله عز وجل ، كما فعل الشيطان مع آدم وهو يحضه على المعصية ، في ثوب الناصح الأمين وهو العدو الأثيم : ﴿ وقاسمهما إنّى لكما لمن الناصحين ﴾ [4] .

ولذلك فقد حذر الله سبحانه وتعالى آدم وبنيه من الشيطان :

قال تعالى : ﴿ **يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾** [5] . وذلك يعنى أن شياطين الإنس والجن فى موقع يمكنهم من تتبع عورات الناس ونقاط الضعف فيهم ، والتخطيط للإيقاع بهم واجتيالهم عن

---

(١) الأعراف : ٢٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .
(٣) طه : ١١٥ .
(٤) الأعراف : ٢١ .
(٥) الأعراف : ٢٧ .

دينهم .

فلنحذر ولنكن يقظين : ﴿ **ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى** ﴾ [1] . وكما حذرنا الله سبحانه وتعالى ، ولله المثل الأعلى ، يجب أن يُذكِّرُ المسلم البشرية بعداوة الشيطان لها ، ويحذرها من الوقوع فى براثنه ، مع محاولة استنقاذها من ظلمات الشرك ، لأن ذلك واجب فى رقبته حيال البشرية التى تتعرض فى ليلها ونهارها لكيد الشيطان .

وشياطين الإنس والجن يتحدون المؤمنين الموحدين بل إنهم يتطاولون على الله رب العالمين . إن الشيطان قد طلب من الله عز وجل مهلة : ﴿ **قال أنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ فيجيبه المولى عز وجل : ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ [2] .

لماذا طلب المهلة ؟ ليكيد للإنسان ، ليصحبهم معه إلى جهنم : ﴿ **فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ [3] ، ﴿ **قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ [4] .

إنه تحد خطير لا بد وأن ينتبه إليه أصحاب الدعوات ،... العلماء ورثة الأنبياء ، بل بنو البشر عموما ، لأن شياطين الإنس والجن يتكاتفون ويعملون من أجل اجتيال المسلم عن دينه والله يقول : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** ﴾ [5] .

أما الشياطين فلهم تحذير ، إنهم لن يفلتوا من عقاب الله ، فهم فى قبضة الله وتحت قهره وسلطانه ، وسيأتى الوقت الذى يدفعون فيه الثمن غاليا : ﴿ **قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً** ﴾ [6] .

إن ستر العورة بالنسبة للرجل والمرأة واجب ، حسب الحد الذى حدده الشارع الحكيم : ﴿ **قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى** ﴾ [7] .

---

(١) طه : ١١٧ .
(٢) الأعراف : ١٤ ــ ١٥ .
(٣) الأعراف : ١٦ ــ ١٧ .
(٤) الإسراء : ٦٢ .
(٥) التوبة : ٣٦ .
(٦) الإسراء : ٦٣ .
(٧) الأعراف : ٢٦ .

والذين يكشفون عوراتهم ، سواء كانوا رجالا أو نساء ، فهؤلاء يخالفون أوامر الشارع الحكيم ، ويطيعون أوامر الشيطان : ﴿ **ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما** ﴾ (١) .

وذلك يعني أن الجاهلية التى عرّت المرأة وجعلتها تكشف عن مفاتنها ، وحضتها على الاختلاط بالرجال ، تخالف أمر الله سبحانه وتعالى .

ذلك يعني أن الجاهلية التى وضعت المرأة في محلات البيع والشراء ، وفي دواوين العمل مزاحمة للرجل تخالف شريعة الله .وذلك يعني أن الجاهلية التي سمحت للشباب أن يختلط بالفتاة في الجامعات والمدارس ، في الفصل الدراسي تخالف شريعة الله . وذلك يعني أن الجاهلية التي تعتبر المرأة غير المحجبة متحررة ومتقدمة ، وتعتبر الحجاب من بقايا التخلف والرجعية ، أيضا تخالف شريعة الله .

إذن فستر العورة دليل الامتثال لأوامر الله : ﴿ **إنَّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾ (٢) والعرى قرين المعصية والفطرة الفاسدة ، التى تتمرد على أوامر العزيز الحكيم التى توجب ستر العورة ، وهي دليل على أن شياطين الإنس حريصون كل الحرص على تجريد الإنسان من ثيابه ، بل إنهم يبذلون كل الجهود لكى يسير الإنسان عاريا فيفقد بذلك أخص خصائص إنسانيته ، وقد قطعوا فى ذلك شوطا كبيرا ، والدليل نوادى العراة ، والدليل الشواطىء التى يتجرد فيها الناس من ثيابهم ، وهذا دليل على أن الذى يتعرى ويتجرد من ثيابه إنما هو مطيع للشيطان ، إذن فالعرى دليل التأخر وليس دليل التمدن ، إنه دليل الانتكاسة والارتكاسة ، والذين يتعرون دليل على أنهم عبيد للشيطان ، وليس دليلا على حريتهم التى يتشدقون بها ، فالحرية الحقيقية تتحقق فى ستر العورة التزاما لأوامر العزيز الحكيم .

* إن باب التوبة مفتوح لآدم وبنيه ، فقد أخبر رسول الله محمد ﷺ : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (٣). فآدم عليه السلام ، خالف أمر ربه ، وأكل من الشجرة ، ثم أدرك أنه قد عصى ، فتاب ، فتاب الله عليه . وهذه رحمة من الله لبنى آدم ، فهو سبحانه

---

(١) الأعراف : ٢٧ .

(٢) طه : ١١٨ .

(٣) رواه الترمذى .

وتعالى « يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (١) .

وقد قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط : أحدها : أن يقلع عن المعصية . والثاني : أن يندم على فعلها . والثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا : ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ (٢) . فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة ، هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها .

« ولعل في تجربة آدم عليه السلام ، تربية لهذا الخليفة وإعدادا ، لقد كان إيقاظا للقوى المذخورة في كيانه ، كانت تدريبا له على تلقي الغواية ، وتذوق العاقبة ، وتجرع الندامة ، ومعرفة العدو ، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين » .

« إن قصة الشجرة المحرَّمة ، ووسوسة الشيطان باللذة ، ونسيان العهد بالمعصية ، والصحوة من بعد الشدة ، والندم وطلب المغفرة ـ إنها هي هي تجربة البشرية المتجددة المكرورة » .

« لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقره في الأرض مزودا بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلا استعدادا للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيرا » (٣) .

قيمة آدم وبنيه عند رب العالمين :

« إن الإنسان أكرم بكثير من كل تقدير عرفته البشرية ... إنه إنسان بنفخة من روح الله : ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾ (٤) . وهو بهذه النفخة مستخلف في الأرض : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ (٥) ... ولأن الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو ، جعل الله الآصرة التي يتجمع عليها البشر هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة ... جعلها آصرة العقيدة في الله ، فعقيدة المؤمن هي وطنه ، وهي قومه ، وهي أهله ... ومن ثم يتجمع البشر عليها وحدها ، لا على أمثال ما تجتمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج » .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) الأعراف : ٢٣ .
(٣) في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٥٩ .
(٤) الحجر : ٢٩ .
(٥) البقرة : ٣٠ .

« والمؤمن ذو نسب عريق ، ضارب في شعاب الزمان . إنه واحد من ذلك الموكب الكريم الذى يقود خطاه ذلك الرهط الكريم من الأنبياء والرسل بدايته بآدم عليه السلام ، ونهايته محمد ﷺ : ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾ [1] » .

* « إن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم ، ووهبه الهدى : ﴿ **فإمَّا يأتينكم مني هدى** ﴾ . وذلك يعني أن المنهج الإلهي ليس عدوا للإبداع الإنساني ، إنما هو منشيء هذا الإبداع وموجه له الوجه الصحيح ... لذلك كي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض ، هذا المقام الذي منحه الله له ، وأقدره عليه ، ووجه من الطاقات المكنونة ما يكافيء الواجب المفروض عليه فيه . وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ، ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام . والتقيد بشرطه في عقد الخلافة ، وهو أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله » [2] .

* « لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ، ولا للفلتة العارضة : ﴿ **إنَّا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ [3] ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديرا** ﴾ [4] وكل أمر لحكمه .

* إن البشرية ـــ وهي من صنع الله ـــ لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذى يخرج من يده سبحانه وتعالى ، وقد جعل في منهجه وحده مفاتح كل مغلق ، وشفاء كل داء : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ [5] . ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم** ﴾ [6] ، ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه ، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه ، ولا تسلك في أمر نفسها ، وفي أمر إنسانيتها ، وفي أمر سعادتها أو شقوتها ... ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات ... المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة .... وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذى صنع الجهاز . ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه ، فترده إلى المصنع الذى منه

---

(١) فى ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ١٢ ؛ وفى هذا ردّ ودليل على فساد الدراسات التاريخية التى جعلت الإنسان حيوانا انحدر من سلالة القردة (موسوعة تاريخ العالم ، قصة الحضارة) والآية : المؤمنون : ٥٢ .

(٢) فى ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ١٦ . (٣) القمر : ٤٩ .

(٤) الفرقان : ٢ . (٥) الإسراء : ٨٢ . (٦) الإسراء : ٩ .

خرج ، ولا أن تستفتي المبدع الذى أنشأ هذا الجهاز البشري ، الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف ، الذى لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذى أبدعه وأنشأه : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ (١) .

« ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة ، البشرية المسكينة الشاردة ، البشرية التي لن تجد الرشد ، ولن تجد الهدى ، ولن تجد الراحة ، ولن تجد السعادة ، إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى صانعها الكبير ، كما ترد الجهاز الزهيد إلى صانعه الصغير » (٢) .

« ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنّى جاعل في الأرض خليفة** ﴾ إذن هي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود ، زمام هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، ويكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحويل والتبديل ، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، وتسخير هذا كله ــ بإذن الله ــ في المهمة الضخمة التى وكلها الله إليه » .

« إذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة ، والاستعدادات المذخورة كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية » .

« وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض وتحكم الكون كله ، والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته ، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك ، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صفحة هذا الكون الضخمة » .

« وإذن فهي منزلة عظيمة ، منزلة هذا الإنسان ، في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة ، وهو التكريم الذى شاءه له خالقه الكريم » (٣) .

---

(١) الملك : ١٣ ــ ١٤ .

(٢) في ظلال القرآن ، ج١ ، ص ١٥ . وهذا يستلزم ممن يسمون بعلماء النفس والاجتماع أن يراجعوا الأساس الذى أقاموا عليه دراساتهم والذى وضعه دارون وفرويد ودوركايم وغيرهم من أصحاب النظريات المعادية للدين (انظر مذاهب فكرية معاصرة تأليف محمد قطب) .

(٣) في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٥٦ .

المبحث الثالث

مجتمعات بشرية

بين آدم ونوح عليهما السلام عمرها عشرة قرون [1] على الإسلام

أثبتنا بالوثائق ، أن آدم عليه السلام ، قد قام بعد نزوله من الجنة إلى الأرض ، بتكليف من الله عز وجل ، بإقامة المجتمع المسلم ، وقام آدم عليه السلام بتنفيذ التكليف الرباني فأقام المجتمع الإسلامي المتحضر بمعنى ، أنه كان متقدما في المجال المادى ، وهذا التقدم المادي كان منضبطا بضوابط العقيدة والشريعة الإسلامية . وفي هذا المجتمع كان آدم عليه السلام أول خليفة مسلم يباشر مهمته التي من أجلها خلقه الله عز وجل ، وهي العبادة بمفهومها الشامل : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت** ﴾ [2] .

ولم ينس آدم عليه السلام ـــ كراع للمجتمع المسلم ـــ أن يربي الناس على مفاهيم الإسلام ، يبين لهم معالم الدين ويبين لهم معالم الحلال والحرام ، ويبين لهم الحدود ، ويربيهم على الخلق الكريم والسلوك السوى لتزكوا نفوسهم وأخلاقهم .

ولم ينس أن يبين لهم لماذا خلقوا ، وأنهم سيموتون ، ويبعثون ويحاسبون ، وأن الفائز

---

(١) وهو العصر الذى يقابل العصر الذى سماه المستشرقون : باسم عصور ما قبل التاريخ ، أو العصور الحجرية (العصر الحجرى القديم ، العصر الحجرى الحديث ، والعصر الحجرى النحاسى) .

وزعموا أن الإنسان من سلالة القردة التى تطورت عبر ملايين السنين من الخلية الحية التي نشأت في البرك والمستنقعات ، حتي انتهت إلى الشكل الإنسانى .

كما أنكروا الخالق عز وجل ، وزعموا أن الإنسان لم يكن يعرف ربه أو دينه . وكان إدراكه لا يتجاوز إدراك طفل صغير . ثم نما بمرور الزمن (انظر : موسوعة تاريخ العالم ، تاريخ العالم ، موجز تاريخ الإنسانية ، قصة الحضارة ، وكتب التاريخ القديم المقررة فى دور العلم باللغة العربية) .

(٢) الأنعام : ١٦٢ ـــ ١٦٣ .

من انتهى به المطاف إلى الجنة ، وأن الخاسر من انتهت به حياته وأعماله إلى النار .

ولم ينس أيضا أن ينبههم إلى عدوهم الأول ، وخطورة دوره ، أنّه الشيطان اللعين ، الذى يرى الناس هو وقبيله من حيث لا يراه الناس ، ويبين لهم كيف يتقون شره ووسوسته ، وهي أن يكونوا عبادا لله ، فإذا كانوا عبادا لله حقيقة ، فلن يجد الشيطان إليهم سبيلا : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ (١) .

ومن المؤكد أنه قد طرح أمامهم تجربته كاملة في الجنة ، وقصته مع إبليس اللعين ، وكيف أنه أخطأ ، فندم وتاب ، فتاب الله عليه ، حتى يعي أبناؤه التجربة ، ولكي يعرفوا كيف يتقون كيد ذلك الشيطان اللعين .

ومن المؤكد أيضا ، أن آدم عليه السلام وزوجه ، قد حدثوا أبناءهم عن الجنة وما فيها ، فكانت ترفرف حولها الأرواح ، وترنو بأبصارها إلى ذلك المرتقى السامق ، على أمل أن تكون من أصحاب اليمين .

وكان أثر المربّى وهو آدم وزوجه واضحا في الأجيال المسلمة التى تربت على يديه وعهده ؛ فعاشت لا يجد الشيطان سبيلا إلى قلوبها ، لأنها وعت الدرس كاملا ، وأدركت أن طاعة الله ستؤدى بها فى النهاية إلى الجنة التي عاش فيها أبوهما وأمهما لفترة من الزمان ، وعرفت أن طاعة الشيطان تعنى طردها من رحمة الله .

ولقد استمرت المجتمعات الإسلامية قائمة على أمر الله ، مخضعة حياتها لنظام الله وشريعته ، لمدة عشرة قرون ، وقع فيها انحراف خطير ، يتمثل في قتل أحد ابني آدم على يد أخيه .

---

(١) الحجر : ٤٢ .

المبحث الرابع

قصة ابني آدم عليه السلام

أولا : مقتل أحد ابني آدم وبداية الانحراف فى المجتمع المسلم الأول :

دون القرآن الكريم هذا الخبر في قول الله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ، إذ قربا قربانا** [1] ، **فتُقبِّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر ، قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين . إني أريد أن تبوء بإثمي** [2] **وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له** [3] **نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه** [4] ، **قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخي فأصبح من النادمين** ﴾[5] .

إننا بهذا الخبر الوارد في القرآن الكريم ، أمام مجتمع لا شرك فيه ، عقيدة الأخوين سليمة ، كل منهما يريد نيل رضاء الله عز وجل ، فقدم كل منهما قربانا ، تقبل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، ..

لقد تقبل الله من الأول لأنه من المتقين ، ولم يتقبل من الآخر لأنه لم يكن كذلك وهذا دليل على أن الشيطان قد أفسد عمله (قربانه) ولذلك لم يتقبله الله منه وهنا نلمح أيضا الشيطان اللعين ، يتسلل إلى قلب هذا الأخ الذى لم يتقبل منه ، من مدخل الحسد والغيرة ، كيف يتقبل الله من أخيه ولم يتقبل منه ؟ ولم يقف الشيطان عند هذا الحدّ ،

---

(١) مايتقرب به من البر إليه تعالى .
(٢) ترجع بإثم قتلى .
(٣) فزينت له وسهّلت عليه .
(٤) جيفته أو عورته .
(٥) المائدة : ٢٧ ــ ٣٢ .

وهو تحريك شهوة الحسد والغيرة فى قلب الأخ على أخيه ، ولكن استمر في دوره وما زال به حتى قبل الأخ أن يقتل أخاه ، وبعدها أصبح من الخاسرين النادمين .

ثانيا : معالم ترسيها قصة ابنى آدم عليه السلام : وجوب الدعوة إلى الله :

لقطة من مجتمع مسلم ، وقع فيه انحراف ، يتمثل فى أخ يقتل أخاه ، والسبب أن الله سبحانه وتعالى قد تقبل طاعة الأخ المقتول ورفض طاعة الأخ القاتل .

منها نلمح أن مدار قبول الأعمال على النية والإخلاص وأن يكون العمل صوابا : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ .

وعدم قبول العمل دليل على أنه لم تتوفر فيه الشروط الشرعية ، وكان من المفروض على صاحب العمل غير المتقبل من الله عز وجل ، أن يتوب ، والتوبة لها شروط : أن يقلع عن الذنب ، وأن يندم على فعله ، ويعزم على ألا يرجع إليه مرة أخرى ، ولكن الأخ الذى لم يُتقبل منه تمادى فى غَيِّه ، وأعقب معصيته الأولى بمعصية أشد وأكبر ، ألا وهى قتل أخيه ﴿ **فأصبح من النادمين** ﴾ .

درس في الدعوة باللسان دون استخدام اليد ، مع من ؟ مع أخ مسلم ! درس للبشرية من أخ يحاول أن ينقذ أخاه من النار لقد حرص الأخ الصالح على أن يدعو أخاه إلى الله فعلَّمه : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ .

لقد حرص الأخ الصالح أن يدفع أخاه بالتى هي أحسن : ﴿ **لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك** ﴾ والسبب ؟ ﴿ **إنّى أخاف الله رب العالمين** ﴾ لقد حرص الأخ الصالح أن يحذر أخاه من الوقوع فى حرمة الاعتداء عليه فيكون من أصحاب النار : ﴿ **وذلك جزاء الظالمين** ﴾ .

فى هذا الدرس دعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . لقد كان في الإمكان أن يحفظ الأخ التقي حياته ، بأن يصمت ولا يتكلم ولا يعلق ، ولكن ما موقفه حينذاك بين يدي الله عز وجل وخاصة أنه يعلم الطريق الذى يجب أن يسلكه الإنسان ليتقبل الله عمله : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ .

والله يقول : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا** ﴾ (١) .

روى الطبراني في الكبير عن علقمة أن رسول الله محمد ﷺ قال للأشعريين وهم قوم علماء ولهم جيران حُفاة جهال ولا يعلمونهم ولا يقومون بإرشادهم والنصح لهم فنهرهم : « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم وما بال أقوام لا يتفقهون من جيرانهم ولا يتعلمون ولا يتعظون ولا يأتمرون . والله ليعلمن قوم جيرانهم ويعظونهم ويفقهونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون ويأتمرون وينتهون أو لأعاجلنهم العقوبة » . ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ (٢) .

لذلك لم يكن بإمكان الأخ التقى أن يصمت ولا يبين لأنه مكلف بالدعوة إلى الله .

إن الأخ التقى يخشى أن يستفحل أمر المنكر فينزل عذاب الله فيشمل الصالح والطالح : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ ؛ لأنهم لم يقوموا بواجب الدعوة إلى الله . ولم يقوموا بواجب الأمر بالمعروف .

روى الطبراني ورجاله ثقات عن أبي عميرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر العامة أن تغيره ولا تغيره . فذاك حين يأذن الله في هلاك العامة والخاصة » .

وروى الطبراني في الأوسط عن جابر مرفوعا أن الله عز وجل أوحى إلى ملك « اقلب مدينة كذا على أهلها ، فقال الملك : إن فيها عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين . قال : اقلبها عليه وعليهم إن وجهه لم يتمعر فيَّ ساعة قط » أي لم يحمرّ وجهه بإنكار المنكر غضبا لله ، ومن هنا كان لا بد وأن يقوم الأخ الصالح بواجب الدعوة لله تعالى .

قدم الله سبحانه وتعالى نموذجين موغلين في القدم لمن يسلم نفسه تماما لله ... ولمن

---

(١) البقرة : ١٥٩ ــ ١٦٠ .

(٢) المائدة : ٧٨ ــ ٧٩ .

يسلم جزءاً منه للشيطان :

ـــ نموذج الأخ الصالح الذى يتلقى من الله .

ـــ ونموذج لأخيه الذى يتلقى من الشيطان فى جزء من أموره .

الاثنين تقربا إلى الله أى أن كلا الاثنين لا يشركان بالله .

الأخ الصالح يقظ لكل صغيرة وكبيرة من السلوكيات يرد الأمور كلها إلى الله ... ومقياس رضاء الله من تلك السلوكيات هو القبول .... ومقياس سخط الله هو عدم القبول .

لاحظ أن قربانه قد قبله الله وقربان اخيه رفضه الله ... فبادر بتنبيه أخيه أن عمله هذا مع أنه مقدم إلى الله ولكن ينقصه التقوى ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ .

وكان رأيه فى أخيه صحيح أى أنه تنقصه التقوى فكانت هذه الملاحظة من الأسباب التي دفعت غير التقي إلى التهديد بالقتل فأفهمه التقي أنه ليس من شرع الله ولا من التقوى ولا من خشية الله قتل المسلم لأخيه ﴿ **لئن بسطت إلَيَّ يدك لتقتلني ، ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين** ﴾ .

فهو هنا يتلقى من الله وكان يستطيع أن يدافع عن نفسه بأن يهدد بالقتل ثم يقتل أيضا لكن رسول الله ﷺ يقول : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

أما الأخ الآخر فهو غير خاضع تماما لله فقد أسلم جزءا من نفسه إلى الشيطان .

فقد قرب قربانا إلى الله وقلبه به حسدٌ على أخيه والذى زرع هذا الحسد الشيطان ، فقد زين له أن أخاه أفضل منه ... ثم كان الرفض الإلهى لقربانه وقبول الله لقربان أخيه .... استغلها الشيطان فرصة لتأكيد أفضلية أخيه عليه وكان نتيجة سماعه لهذا اللعين أنه رفض حتى الاستماع إلى نصيحة أخيه الذى نبهه إلى شرط من شروط القبول وهو التقوى ....

وكانت هذه النصيحة سببا فى تمادى الأخ غير التقي فى غيه فهدد أخاه بالقتل ﴿**لأقتلنك** ﴾ .

نبهه أخوه أنه يجب أن يخشى الله فيما يفعل .... لكن الأخ غير التقى أسلم نفسه

إلى الشيطان وتلقى منه الأوامر وشرَّع من عند نفسه شريعة قتل الأخ لأخيه .... ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾ .

« من قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعاً » :

« وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » . وهذا نص على التعليل ، وبهذا الاعتبار يكون على إبليس كفل من معصية كل من عصى بالسجود ، لأنه أول من عصى به ، وكذلك كل من أحدث في دين الله ما لا يجوز من البدع والأهواء ، قال ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » . وهذا نص في الخير والشر ، وقال ﷺ : « إن لأخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون » . وهذا ما لم يتب الفاعل من تلك المعصية » (١) .

« من قتل نفسا وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعا ، ومن ترك قتل نفس واحدة وصان حرمتها واستحياها خوفا من الله فهو كمن أحيا الناس جميعا » (٢) .

* « الحسد مدخل من مداخل الشيطان إلى القلب ، لأنه قد يحمل الشخص على إهلاك نفسه بقتل أقرب الناس إليه قرابة ، وأمسهم به رحما ، وأولاهم بالحنو عليه ودفع الأذية عنه ، فحينما حسد أحد ابني آدم أخاه ، كان بذلك قد أعطى الشيطان فرصة ليستقر في سويداء قلبه ، ويقدم على ارتكاب جريمته . ولخطورة هذا الأمر ، نهى رسول الله ﷺ الأمة عن الحسد . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم . المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا ، التقوى هاهنا ، ـــ ويشير إلى صدره ـــ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله . إن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

الله لا ينظر إلى أجسادكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . رواه مسلم » .

* إن عداء الجاهلية لأولياء الله يعرضها لحرب من الله سبحانه وتعالى ، فما بالنا بمن يقتل أولياءه ، أو يعذبهم ، ويعتدى على أعراضهم وأموالهم ؟ ؟

روى البخارى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدى بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ، ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته »[1] .

« وفي الخبر : « إذا كانت الفتنة فكن كخير ابنى آدم » . وروى أبو داود عن سعد ابن أبي وقاص قال : قلت يا رسول الله ، إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده (إليَّ) ليقتلني ؟ قال : فقال رسول الله : « فكن كخير ابني آدم » ــ وتلا هذه الآية ــ : ﴿ **لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني** ﴾ . « قال مجاهد : كان الغرض عليهم حينئذ ألا يستل أحد سيفا ، وألا يمتنع ممن يريد قتله . قال علماؤنا : وذلك مما يجوز التعبد به ، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعا . وفي وجوب ذلك عليه خلاف والأصح وجوب ذلك ، لما فيه من النهي عن المنكر »[2] .

* بعث الله الغراب حكمة ، ليرى ابن آدم كيفية المواراة ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **ثم أماته فأقبره** ﴾ . فصار فعل الغراب في المواراة سمة باقية في الخلق ، فرض على جميع الناس على الكفاية ، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين . وأخص الناس به الأقربون الذين يلونه ، ثم الجيرة ، ثم سائر المسلمين .

وكما أورد الإمام القرطبي :

« ويستحب في القبر سعته وإحسانه ، لما رواه ابن ماجه عن هشام بن عامر رضي

---

(١) رواه البخارى ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « احفروا وأوسعوا وأحسنوا » . وروى عن الأدرع السلمي قال : جئت ليلة أخرى إليه ﷺ ، فإذا رجل قراءته عالية ، فخرج إليه ﷺ فقلت : يا رسول الله ، هذا مراء ، قال: فمات بالمدينة ففرغوا من جهازه ، فحملوا نعشه ، فقال رسول الله ﷺ : « ارفقوا به رفق الله به إنه كان يحب الله ورسوله » . قال : وحضر حفرته فقال : « أوسعوا له وسع الله عليه » . فقال بعض أصحابه : (يارسول الله) لقد حزنت عليه ؟ فقال : « أجل إنه كان يحب الله ورسوله »[1].

« اللحد أفضل من الشق ، فإنه الذى اختاره الله لرسوله ﷺ ، واللحد هو أن يحفر في جانب القبر إن كانت تربته صلبة » .

« وروى ابن ماجه عن سعيد بن المسيب قال : حضرت ابن عمر في جنازة ، فلما وضعها في اللحد قال : بسم الله ، وفي سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله ﷺ . فلما أخذ في تسوية (اللبن على) اللحد قال : اللهم أجرها من الشيطان ، ومن عذاب القبر ، اللهم جاف الأرض عن جنبيها ، وصعّد روحها ، ولقنها منك رضوانا »[2] .

---

(١) أخرجه عن أبى بكر بن أبي شيبة عن زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة عن سعيد بن أبي سعيد ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ٢ ، ص ١٤٤ .

obeikandl.com

الفصل الثانى

بعثة نوح عليه السلام فى أرض الرافدين

المبحث الأول

عصر قبيل بعثة نوح عليه السلام
ملامح الانحرافات التى أصابت المجتمع

في أعقاب تلك القرون العشرة الصالحة التي قامت حياة أهلها على الإسلام منذ عهد آدم وإلى قبيل ميلاد نوح عليه السلام حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الطاغوت والانحراف عن نظام الله وشرعه ، والكفر باليوم الآخر .

وعبادة الطاغوت يلمحها الباحث في التوجه بالعبادة إلى ودّ وسواع ، ويغوث ويعوق ونسر . وهؤلاء كانوا رجالا مسلمين صالحين في المجتمع الإسلامي ، وكان لهم أتباع يرون فيهم القدوة والأسوة والمثل الأعلى التي سمعوها ورأوها فيمن قبلهم ، فلما مات هؤلاء ، قال أصحابهم الذين كانوا يرون فيهم القدوة : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروا لهم صورا ، فلما ماتوا وجاء آخرون ، دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدون ، وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم[1] .

وهكذا استطاع الشيطان ، أن يجتال ذلك الجيل الأخير من القرون الصالحة ، وذلك

---

(١) رواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : ﴿**وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا**﴾ . قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت . (البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٠٥ ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٢٦ – ٤٢٧) .

لغفلتهم وعدم يقظتهم ، ونسيانهم لعهدهم مع ربهم ومع أبيهم آدم عليه السلام .

ولم يقف أمر هذا الجيل عند هذا الانحراف من عبادة الطاغوت ممثلة في الصور والتماثيل ، إنما تعداه إلى جنبات الحياة كلها .

هذه هي صورة ذلك الجيل الذى مكن الله سبحانه وتعالى له في الأرض بعد آدم عليه السلام تمكينا ماديا ، وضرب بسهم وافر في مجال التقدم العلمي ، في مجال الفلك ، والطب ، وصناعة المراكب ، ولكن مع التقدم العلمي كانت هنالك ارتكاسة فكرية في مجال الإيمان بالله واليوم الآخر . لقد كفروا بالله عز وجل ، واستكبروا عن قبول الحق ، والكبر يعزل الإنسان عن رحمة ربه وهدايته ، يصور هذه الحقيقة قول الله عز وجل عن القوم الذين بعث فيهم نوح عليه السلام : ﴿ **وأصروا واستكبروا استكبارا** ﴾[1]. وقد رأينا فيما سبق كيف طرد الله إبليس من الجنة من أجل الكبر .

ومن ملامح الانحرافات التي أصابت ذلك المجتمع :

* **رفض إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه** ، والإعراض بل والتصدى لكل دعوة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ومن أساليب التصدى :

ـــ تشويه سمعة الداعية ، تماما كما فعلوا مع نبيهم نوح عليه السلام ، لقد اتهموه بالضلالة : ﴿ **إنَّا لنراك في ضلال مبين** ﴾[2] . واتهموه بالكذب : ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ . وقالوا : إنه بشر ، ولا يجوز في عرفهم لبشر أن يحمل رسالة السماء : ﴿ **ما نراك إلَّا بشرا مثلنا** ﴾[3] .

وزعموا أن الذين اتبعوه هم الفقراء ، وفي تصورهم أن دعوة أتباعها هم الفقراء ، لا تستوعب علية القوم :

﴿ **وما نراك اتبعك إلَّا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾[4] .

ـــ واتهموه بالجنون : ﴿ **إنْ هو إلَّا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾[5] .

---

(١) نوح : ٧ .
(٢) الأعراف : ٦٠ .
(٣) هود : ٢٧ .
(٤) هود : ٢٧ .
(٥) المؤمنون : ٢٥ .

* ووصل الأمر بالجاهلية إلى حد التآمر على حياة الدعاة ، تماما كما فعلوا مع نبيهم نوح عليه السلام ، إذ هددوه بالقتل : ﴿ **قالوا : لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾ (١) .

لقد تفشى الشرك بالله في حياة المجتمع ، ورفض الناس إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، فعاقبهم الله بالتضييق في الأرزاق . إن الله سبحانه وتعالى قد ضيق عليه في الأرزاق إمضاء لسنة ربانية : ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾(٢) .

﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا** ﴾(٣) .

* التواصي بالكفر بالله ، والتواصي بالفجور ، أى يوصي بعضهم بعضا بالانحراف عن نظام الله وشرعه : ﴿ **إنك إن تذرهم يُضِلُّوا عبادك ولا يلدوا إلَّا فَاجِراً كفارا** ﴾(٤) .

أى أنهم يضعون الخطط لإضلال المجتمع ، ويدخل في ذلك ، إفساد مناهج التعليم ، لتربية المجتمع والأبناء على الانحراف عن دين الله .

إنهم بخططهم ، يزينون الفاحشة ويحضون عليها ، تماما كما يحدث في عالمنا المعاصر ، فالإذاعة المرئية والمسموعة والمقروءة حريصة على إشاعة الفاحشة في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية .

إنَّهم يخططون ، لإضلال الناس ، ولتحقيق ذلك نراهم يكممون أفواه الدعاة ، ويطاردونهم ، ويحاصرونهم ، بل ويُخَوِّفون الناس من الدين والمتدينين ،بل ويربون الأطفال على السخرية من الدين والمتدينين ومن الإيمان وأهله : ﴿ **وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾(٥) . وهكذا نرى الأبناء منذ نعومة أظافرهم ينشأون على معصية الله عز وجل ، والفسق والفجور ، وعلى كراهية الدين والمتدينين .

ومن هنا يبدو الواجب الأول في رقاب المسلمين ، أن يسعوا إلى جهاد المشركين واستئصال شأفتهم ، إذا لم يسلموا لله رب العالمين ، لأن وجودهم ضرر وبلاء على بني آدم المسلمين ، إنهم يفسدون في الأرض ، إنهم يدمرون الأمم والشعوب .

ومن هنا نفهم دعوة نوح عليه السلام ، التي منها : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من**

---

(١) الشعراء : ١١٦ .
(٢) طه : ١٢٤ .
(٣) الطلاق : ٨ــ٩ .
(٤) نوح : ٢٧ .
(٥) هود : ٣٨ .

الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾[1] .

وهذا يَجْعَلُ التبعة ثقيلة في رقاب أصحاب الدعوات ، إن الكفران والضلال له دول تنافح عنه وتسعى لنشره ، وتخطط لسيطرته ، فما بال أصحاب هذا الدين ، لا يتحدون ، ولا يتجمعون والله يقول : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾**[2] .

عجيب أن ينشغل المسلمون بعضهم ببعض عن عدوهم ، إنه عدم الفهم ، إنه عدم الإدراك نتيجة ضعف العقيدة ، نتيجة عدم الفقه بأمر هذا الدين . ومن هنا كان أول أصلٍ من الأصول التى يجب على العبد تعلّمها معرفة العبد ربه .

* لقد كان المجتمع طبقيا ، بمعنى أن طبقة « الملأ » وهم أصحاب الجاه والمال والسلطان هم الذين يمسكون بناصية الأمور داخل المجتمع ، ويسخرون بقية الطبقات في خدمتهم ، بل وكانوا يطلقون على الطبقة الفقيرة لفظة « الأراذل » : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾**[3] .

هذه الطبقة اختلّت المعايير لديها ، فكانت تتصور أن أصحاب الجاه أفهم ، وأصحاب السلطان أعلم ، وبالتالى ـــ حسب معاييرهم المُختلّة ـــ فإن الرسالة كان من الواجب أن تكون فيهم .

هذه الطبقة كانت حريصة ، كما هو الحال في الجاهليات المعاصرة ، على الوقوف في وجه دعوة الإسلام ، ومحاولة صد الناس عنها بكافة الطرق والوسائل ، مستخدمة في تلك كل الإمكانيات المتاحة لها .

وهي حريصة على المكر بالصف المسلم وتدبير المؤامرات للإيقاع به : ﴿ **ومكروا مكرا كبارا ﴾**[4] . وهذا هو سمت الجاهلية المعاصرة .

هذه الطبقة تنظر إلى المؤمنين بازدراء : ﴿ **ولا أقول للذين تزدرى أعينكم ﴾**[5] . وهو نفس موقف الجاهلية المعاصرة الماكرة من المؤمنين الموحدين ، تلفق التهم الكاذبة ، والقضايا ضد الصف المسلم ، وتقوم بإشاعة الأخبار الكاذبة عنهم ، لإثارة الجماهير ضدهم ، ولصدهم عن سبيل الله ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **وإن كان مكرهم لتزول منه**

---

(١) نوح : ٢٦ ـــ ٢٧ .
(٢) التوبة : ٣٦ .
(٣) هود : ٢٧ .
(٤) نوح : ٢٢ .
(٥) هود : ٣١ .

الجبال ﴾[1] .

هذه الطبقة ، طبقة الملأ ، وسمها الله سبحانه وتعالى بالظلم : ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا** ﴾[2] ، ﴿ **بعدا للقوم الظالمين** ﴾[3] . وما أكثر الظلمة في عالمنا المعاصر ، الذي يسمى زورا وبهتانا عصر الحريات ، وهو عصر تطارد فيه الكلمة ، الكلمة الطيبة فقط ، أما الكلمة الخبيثة فيعان أصحابها ، وتفتح لها الجرائد والمجلات صفحاتها ، بل ويسمح لها أن تعبر عن نفسها في الإذاعة المرئية والمسموعة ، بل وعبر مناهج التربية والتعليم ، التربية على الفاحشة وتعليم الخطيئة .

هذه الطبقة قد وصفها الله بالعمى : ﴿ **إنهم كانوا قوما عمين** ﴾[4] وما أكثر العمى الذين لهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم قلوب لا يفقهون بها فى عالمنا المعاصر ويتسلطون على دولاب الحياة ويمسكون بقياد البشرية ، هذه الطبقة قد وصفها الله عز وجل ، بالجهل ﴿ **ولكني أراكم قوما تجهلون** ﴾[5] وما أكثر الجهلة ، وإن حملوا أعلى الدرجات العلمية ، الذين تُسند إليهم أمور الأمم وهذا دليل على قرب الساعة : « إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة » قال : كيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة) .

هذه الطبقة التى ترفض إفراد الله وحده بالعبادة ، قد وصفها الله عز وجل بأنها كارهة للحق ﴿ **وأنتم لها كارهون** ﴾[6] ومأأكثر الذين يكرهون الحق .

هذه الطبقة التى تتسلط على دولاب الحياة فى المجتمعات الجاهلة ، سمتها الإجرام : ﴿ **وأنا بريء مما تجرمون** ﴾[7] .

فكيف يسلم المسلمون الموحدون أصحاب الدعوة قيادهم وقياد البشرية لمثل هذه الطبقة ؟

وكانت هذه الطبقة طبقة الملأ حريصة على السخرية من الدعوة وصاحبها : ﴿ **وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾[8] .

---

(١) إبراهيم : ٤٦ .
(٢) هود : ٣٧ .
(٣) هود : ٤٤ .
(٤) الأعراف : ٦٤ .
(٥) هود : ٢٩ .
(٦) هود : ٢٨
(٧) هود : ٣٥ .
(٨) هود : ٣٨ .

ومن ملامح تلك الانحرافات أيضا التي قامت نتيجة انحراف الناس عن الإسلام ، أن ذلك الجيل لم يكن يطق سماع كلمة « لا إله إلا الله » ، يصور هذه الحقيقة قول الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام ، وهو يدعوهم إلى إفراد الله وحده بالعبادة : ﴿ **رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا** »[1] .

والجاهلية الآن تتفنن في أساليب منع الناس عن سماع هذه الدعوة ، دعوة لا إله إلا الله خشية التأثر بها . ومن هنا قام التخطيط المنظم ، لتجريد مناهج التعليم ، وبرامج الإعلام وغيرها من القيام على قاعدة العقيدة ، بل وذهب الأمر إلى أبعد من ذلك حينما أقصيت المناهج الإسلامية ، ووضع بدلاً منها مناهج لا دينية .

وهكذا أدركنا أن التقدم المادى لا يعني بأية حال من الأحوال تقدما حضاريا ، لأنه افتقد السمت الذى يقوم عليه التقدم الحضارى ، وهي العقيدة الإسلامية التي تقوم على إفراد الله وحده بالعبادة .

في ظل هذه الظروف ، والمجتمع هكذا بعث نبي الله نوح عليه السلام ، ومن خلال بعثته نلمح أول رسول إلى أهل الأرض يحمل منهج الله لإعادة الناس إلى ربهم الحق ، ودينهم الحق : ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ .

---

(١) نوح : ٥ ــ ٧ .

المبحث الثانى

سيرة نوح عليه السلام

أبو البشر الثاني يدعو أهل الرافدين ومن حولها إلى الإسلام

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[1] .

وهذا نموذج للدراسة والتأسي يسوقه الله تعالى لبني آدم ، الذين يريدون أن يعتسفوا الطريق ، ويختصروا المراحل ، ويستعجلوا قطف الثمرة قبل نضوجها ، بعد أن عيل صبرهم ، وفقدوا سيطرتهم على أنفسهم ، بسبب قلة إيمانهم ، هذا النموذج يعلمهم الصبر ويعلمهم كيف يبنون الإيمان الصحيح في قلوبهم وقلوب غيرهم .

هذا نموذج لرسول كريم من أولى العزم ، بعثه الله في خضم ردة شاملة عن دين الله ، بعد عشرة قرون من الحياة في ظل الإسلام ، فانطلق يؤدى واجب الدعوة بكل الوسائل لا يخشى في الله لومة لائم ، ولا يخشى تهديدا أو وعيدا . وثابر على ذلك ، على مدار ألف سنة إلا خمسين عاما ، وفي النهاية ﴿ **وما آمن معه إلَّا قليل** ﴾[2] .

إلى من ينتسب نوح عليه السلام ؟ متى ولد ؟ كم قرن عاش ؟ متى بعث ؟ وإلى من ؟ وإلى أى دين دعا ؟ وما هي مصادر معلوماتنا عنه ؟ وما هي الدروس والمعالم التي

---

(١) يونس : ٧١ ــ ٧٢ « أى وأنا متمثل ماأمرت به من الإسلام لله عز وجل ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم ، وتعددت مناهجهم ، كما قال تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾ » تفسير القرآن العظيم ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

(٢) هود : ٤٠ .

ترسيها سيرته في حياة بني آدم ؟

ينتسب نوح عليه السلام إلى آدم أبي البشر . وكان بين آدم ونوح عشرة قرون [1] ، كلهم على الإسلام ، أى أن البشرية كانت مستسلمة لنظام الله وشرعه .

وقد بعث الله تعالى نوحا ــ كما قلنا ــ لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس في الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد ، فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض كما يقول له أهل الموقف يوم القيامة .

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث فقيل : كان ابن خمسين سنة . وقيل : ابن ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقيل : ابن أربعمائة وثمانين سنة [2] .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة نوح وما كان من قومه ، وما أنزل الله بمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز :

في سورة القمر والأعراف وهود ويونس والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات ونوح .

كما ورد مضمون هذه السيرة « سيرة نوح عليه السلام » في مواضع متفرقة من القرآن والحديث والآثار ، في سورة النساء : ﴿ **إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده** ﴾ . وسورة الأنعام وفي سورة إبراهيم : ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب** ﴾ .

وفي سورة الإسراء : ﴿ **ذرية من حملنا مع نوح ، إنّه كان عبدا شكورا** ﴾ .

---

(١) كما أورد ذلك الحافظ أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه : « أن رجلا قال : يا رسول الله ، أنبي كان آدم ؟ قال : نعم مكلم . قال : فكم بينه وبين نوح قال : عشرة قرون » وفي صحيح البخارى عن ابن عباس قال : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام » . فإذا كان المراد بالقرن مائة سنة ، فبينهما ألف سنة لا محالة . لكى لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام ، إذ قد يكون بينهما قرون متأخرة لم يكونوا على الإسلام . وإذا كان المراد بالقرن : الجيل من الناس كما فى قوله تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ﴾ . فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين والله أعلم . (البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٠١) .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١ ص ١٠١ .

وفي سورة الأحزاب ، وسورة (ص) ، وسورة غافر ، وسورة الشورى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ .

وفى سورة (ق) ، والنجم : ﴿ **وقوم نوح من قبل إنَّهم كانوا هم أظلم وأطغى** ﴾ . وفي الحديد ، والتحريم .

نوح عليه السلام في سورة الأعراف [1] :

﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ ...

« على سنة الله في إرسال كل رسول من قومه ، وبلسانهم ، تأليفا لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم ، وتيسيرا على البشر في التفاهم والتعارف . وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة ، ولا يستجيبون ، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم ، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة ، وإن هي إلَّا تعلة . وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى مهما جاءهم من أى طريق .

﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه** ﴾ فخاطبهم بتلك الكلمة الواحدة التى جاء بها كل رسول ﴿ **فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره** ﴾ .

فهي الكلمة التى لا تتبدل ، وهي قاعدة هذه العقيدة التى لا توجد إلا بها ، وهي عماد الحياة الإنسانية الذى لا تقوم على غيره ، وهى ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط . وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى ، والعبودية لأمثالهم من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد »[2] .

« إنّ دين الله منهج للحياة ، قاعدته : أن يكون السلطان كله في حياة الناس كلها لله . وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى ألَّا يكون للناس إلهٌ غيره ... والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وإنشائه وتدبيره بقدرة الله وقدره . وعلى نفس المستوى يتمثل فى الاعتقاد بربوبية الله في التقدم بشعائر العبادة له وحده ... كلها حزمة واحدة ...

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ فى ظلال القرآن ، ج ٣، ص ١٣٠٨ .

(٢) ظلال القرآن ج ٣ ص ١٣٠٨ .

غير قابلة للتجزئة ، وإلّا فهو الشرك ، وهو عبادة غير الله معه ، أو من دونه .

ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه ، وفي صدق الرائد الناصح لأهله :

﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ ...

وهنا نرى أن ديانة نوح ... كانت فيها عقيدة الآخرة . عقيدة الحساب والجزاء في يوم عظيم ، يخاف نوح على قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب ... وهكذا تتبين مفارقة منهج الله وتقريره في شأن العقيدة ، ومناهج الخابطين في الظلام من « علماء الأديان » وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن » وكتاب التاريخ القديم الذين تبنوا منهجهم .

« فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين من قوم نوح لهذه الدعوة الخالصة الواضحة المستقيمة ؟ [1] :

﴿ قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلال مبين ﴾ .

كما قال مشركو العرب لمحمد ـ ﷺ ـ إنّه صبأ ، ورجع عن دين إبراهيم ! !

وهكذا يبلغ الضال من الضلال ، أن يحسب من يدعوه إلى الهُدى هو الضال !

بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعد ما يبلغ المسخ فى الفطرة ... هكذا تنقلب الموازين ، وتبطل الضوابط ، ويحكم الهوى ، ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذى لا ينحرف ولا يميل .

وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدى الله ؟ إنّها تسميهم الضالين . وتَعِدُ من يهتدى منهم ، ويرجع بالرضى والقبول ... أجل من يهتدى إلى المستنقع الكريه ، وإلى الوحل الذى تتمرغ فيه الجاهلية !

وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف عن لحمها ؟ وماذا تقول للفتى الذى يستقذر اللحم الرخيص ؟ إنّها تسمي ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما (رجعية)

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٣ ص ١٣٠٩ .

وتخلفا وجمودا وريفية ! وتحاول الجاهلية بكل ما تملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذى تتمرغ فيه في المستنقع الكريه » [1] .

« وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة ، وجنون الأفلام والسينما والتلفزيون وما إليه ، وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهي ؟ إنَّها تقول عنه إنه : (جامد) . ومغلق على نفسه ، وتنقصه المرونة والثقافة ! وتحاول أن تجره إلى تفاهة من هذه ينفق فيها حياته ...

إن الجاهلية هي الجاهلية .... فلا تتغير إلَّا الأشكال والظروف !

وينفي نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه . إنَّما هو رسول من رب العالمين . يحمل لهم الرسالة . ومعها النصح والأمانة . ويعلم من الله ما لا يعلمون ، وهو موصول به ، وهم عنه محجوبون :

﴿ قال ياقوم ليس بي ضلالة ولكنِّى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ .

ونلمح هنا فجوة في السياق ... فكأنما عجبوا أن يختار الله رسولا من البشر ، من بينهم ، يُحَمِّلَهُ رسالة إلى قومه ، وأن يجد هذا الرسول فى نفسه علماً عن ربِّه لا يجده الآخرون ، الذين لم يُختاروا هذا الاختيار ... هذه الفجوة في السياق يدل عليها ما بعدها » [2] .

﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ﴾ .

« وما من عجب في هذا الاختيار . فهذا الكائن الإنساني شأنه كله عجب ... إنه يتعامل مع العوالم كلها ، ويتصل بربه بما ركب في طبيعته من نفخة من روحه ... فإذا اختار الله من بينهم رسوله ـــ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـــ فإنَّما يتلقى هذا المختار عنه ، بما أودع في كيانه من إمكانية الاتصال به والتلقي عنه ، بذلك السر اللطيف الذى

---

(١) فى ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣٠٨ .

(٢) فى ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣٠٩ .

به معنى الإنسان ، والذى هو مناط التكريم العلوى لهذا الكائن العجيب التكوين .

ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة : ﴿ **لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون** ﴾ ...

فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ليظفروا في النهاية برحمة الله .... ولاشيء وراء ذلك لنوح ، ولا مصلحة ، ولا هدف ، إلا هذا الهدف السامي النبيل ....

ولكن الفطرة حين تبلغ حدا معينا من الفساد ، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر ، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير »[1] .

﴿ **فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوما عمين** ﴾ ....

ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير ... فبعماهم هذا كذَّبوا ..... وبعماهم لاقوا هذا المصير [2] .

نوح عليه السلام في سورة هود [3] :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله** ﴾ فهذا هو قوام الرسالة ، وقوام الإنذار . ولماذا ؟

﴿ **إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين** ﴾ .

« الشبهات ذاتها والاتهامات ذاتها ، والكبرياء ذاته ، والاستقبال الغبى الجاهل المتعافي ! .

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٣ ص ١٣٠٩ .

(٢) فى ظلال القرآن ج ٣ ص ١٣١٠ .

(٣) فى ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ١٨٧٢ .

إنها الشبهة التى وقرت فى نفوس جهال البشر . إن الجنس البشرى أصغر من حمل رسالة الله ، فإن تكن رسالة فليحملها مَلَكٌ أو مخلوق آخر ، وهى شبهة جاهلة ، مصدرها عدم الثقة فى هذا المخلوق الذى استخلفه الله في أرضه ، وهي وظيفة خطيرة ضخمة لابد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة ، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيأون لحمل الرسالة ، باختيار الله لهم .

وشبهة أخرى جاهلة كذلك ، هي أنه إذا كان يختار رسولا ، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملأ الكبراء في قومهم ، المتسلطين المتعالين ، وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنساني والتي من أجلها استحق الخلافة في الأرض ، بعمومه ، واستحق حمل رسالة الله بخصوصية في المختارين من صفوته ، وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو سلطان في الأرض ، إنما هي في صميم النفس ، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى ، بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقي ، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها إلى آخر صفات النبوة الكريمة ، وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء ؟ »[1] .

« ولكن الملأ من قوم نوح ، كالملأ من قوم كل نبى تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية ، فلا يدركون مبررا لاختصاص الرسل بالرسالة ، وهي في زعمهم لا تكون لبشر ، فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض : ﴿ **ما نراك إلا بشرا مثلنا** ﴾ هذه واحدة ... أما الأخرى فأدهى : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، بادى الرأى** ﴾ ! ! وهم يسمون الفقراء من الناس (أراذل) . كما ينظر الكبراء دائما إلى الآخرين الذين لم يؤتوا المال والسلطان ، وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالبا ، لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرر الناس من العبودية للكبراء . وتصل القلوب بإله واحد قاهر عال على الأعلياء . ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف ، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة ، ولأنهم لا يخافون من العقيدة في الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية في شتى صورها . وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة بدلا من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك ، فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل أرض ومن ثم كان يقاومها الطغاة ، ويصدون عنها الجماهير . ويحاولون تشويهها واتهام

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٤ ص ١٨٧٢ .

الدعاة إليها ببشريتهم للتشويش والتنفير : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾ أى دون تردد أو تفكير ... فإذا كان الأراذل يؤمنون فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل ... ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ . يدمجون الداعي بمن تبعوه من الأراذل ، وما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدى ، أو أعرف بالصواب . فلو كان معكم خير أو صواب لاهتدينا إليه ولم تسبقونا أنتم إليه . وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطىء : أى قياس الفضل بالمال . والفهم بالجاه . والمعرفة بالسلطان . فذو المال أفضل ، وذو الجاه أفهم ، وذو السلطان أعرف ، من هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائما حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع ، أو تضعف آثارها فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية وإلى تقاليدها الوثنية في صورة من صورها الكثيرة ، وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية قشيب [1] ، وهى انتكاسة للبشرية من غير شك ، لأنها تصغر من القيم التي صار بها الإنسان إنسانا . واستحق الخلافة في الأرض ، وتلقى الرسالة من السماء ، وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية العضلية الفيزيقية . ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ : هذا هو رد الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب » [2] .

ويتلقى نوح ــ عليه السلام ــ الاتهام والإعراض والاستنكار في سماحة النبي واستعلائه وفي ثقته بالحق الذي جاء به ، واطمئنانه إلى ربه الذى أرسله :

﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . وياقوم لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكني أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما في أنفسهم ، إنى إذاً لمن الظالمين** ﴾ .

« وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة ، فإذا هم ــ على عادة طبقتهم ــ قد أخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا أن تغلبهم الحجة ، وأن

---

(١) في أمريكا وأوروبا اليوم والبلاد التي لا تأخذ الإسلام عقيدة وشريعة يقاس الرجل ويوزن برصيده في البنوك ، أو بمقدار ما لديه من أملاك ، أو بما لديه من درجات علمية .

(٢) فى ظلال القرآن ج ٤ ص ١٨٧٢ ــ ١٨٧٣ .

يذعنوا للبرهان العقلي والفطري ، وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدى :

﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا ، فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي إنْ أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون . أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي ، وأنا برىء مما تجرمون ﴾ [1] .

ثم يمضي السياق في قصة نوح ، يعرض مشهدا ثانيا : مشهد نوح يتلقى وحى ربه وأمره : **﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا ، إنهم مغرقون ﴾** . فقد انتهى الإنذار ، وانتهت الدعوة ، وانتهى الجدل ، فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت » [2] ، أما البقية الباقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه ، ولذلك قرر الله مصيرهم وانتهى الأمر فيهم **﴿ إنهم مغرقون ﴾** .

« نوح يصنع الفلك » :

﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه . قال إنْ تسخروا منَّا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

« ثم مشهد البقية عندما حلت اللحظة المرتقبة : **﴿ حتى إذا جاء أمرُنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها ، بسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ﴾** .

ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب ، مشهد الطوفان :

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء . قال لا

---

(١) هود : ٣٢ ــ ٣٥ .

(٢) فى ظلال القرآن ص ١٨٧٥ ــ ١٨٧٦ .

عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

وفي لحظة تتغير صفحة المشهد ، فها هو ذا الموج الغامر يبتلع كل شيء :

﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

وتهدأ العاصفة ، ويخيم السكون ، ويقضى الأمر ، ويتمشى الاستقرار كذلك في الألفاظ وفي إيقاعها في النفس والأذن » (١) .

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وَغيضَ الماءُ ، وقُضيَ الأمرُ ، واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ . وبعدا لهم عن الحياة فقد ذهبوا ، وبعدا لهم عن رحمة الله فقد انتهوا ، وما عادوا يستحقون ذكرا ولا ذكرى .

﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين . قيل يانوح ، اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم . تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

نوح عليه السلام في سورة إبراهيم (٢) :

مواقف متشابهة للجاهلية من دعوة نوح ـــ عليه السلام ـــ وغيره من الرسل :

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أى بالحجج الواضحات **﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾** أى وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيبا ، **﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم**

---

(١) فى ظلال القرآن ج ٤ ص ١٨٧٧ ـــ ص ١٨٧٩ .

(٢) ٩ ـــ ١٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ ؛ صفوة التفاسير ، ج ٢ ، ص ٩٢ ـــ ٩٣ .

به ﴾ أى كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به ﴿ **وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾ أى في شك عظيم من دعوتكم ، وقلق واضطراب من دينكم ﴿ **قالت رسلهم أفي الله شك** ﴾ أى أجابهم الرسل بقولهم : أفي وجود الله ووحدانيته شك ؟ والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ أى خالقها ومبدعها على غير مثال سابق ﴿ **يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ أى يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم ذنوبكم ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ أى إن آمنتم أمدّ في أعماركم إلى منتهى آجالكم ، ولم يعاقبكم في العاجل فيهلككم ، ﴿ **قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين** ﴾ حجة ظاهرة على صدقكم .

﴿ **قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا** ﴾ . قال ابن الجوزي : وإنَّما قص هذا وأمثاله على نبينا ﷺ ليقتدي بمن قبله في الصبر ، وليعلم ما جرى لهم ﴿ **وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ وهنا يسفر الطغيان عن وجهه متبجحا بالقوة المادية التى يملكها المتجبرون :

﴿ **وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا ، أو لتعودن في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم** ﴾ أى ولأمنحنكم سكن أرضهم بعد هلاكهم ، ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾ .

﴿ **واستفتحوا ، وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ، ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾

نوح عليه السلام في سورة نوح [1] :

﴿ **إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾ .

---

(١) ١ ـ ٢٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٨ .

وعبادة الله : تعني إخضاع الحياة لنظام الله الشامل وشرعه .

والتقوى : ترك المحارم واجتناب المآثم ، وهي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على المنهج الرباني ، وتقوى الله تقتضي عدم التلفت هنا وهناك ، وعدم الاحتيال والالتواء في التنفيذ فتقوى الله هي منبع الخلق الفاضل الذى يراقب الإنسان فيه ربه بلا رياء وبلا تظاهر .

وطاعة الرسول : فيما أمر به ونهى عنه فما ينطق عن الهوى ، والمؤتمن المصطفى من الله لإبلاغ كل ما يريد الخالق ـــ سبحانه وتعالى ـــ إبلاغه للخلق ، كما أنه النموذج السلوكي العملي للدعوة التي يدعوه إليها : ﴿ **يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر** ﴾ .

﴿**قال رب إنى دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائي إلا فرارا** ﴾ . يخبر تعالى عن عبده ورسوله « نوح » ـــ عليه السلام ـــ أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ، ما لقي من قومه في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاما ، وهو لم يترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالا لأمر الله وابتغاء طاعته . ﴿ **وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم** ﴾ أى سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه ، ﴿ **وأصروا واستكبروا استكبارا** ﴾ أى واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

﴿ **ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا** ﴾ وهذا يؤكد ضرورة تنوع أساليب الدعوة .

﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾ أى إذا تبتم إلى الله وأطعتموه ، كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا** ﴾ أى لم لا تعظمون الله حق عظمته ، أى لا تخافون من بأسه ونقمته .

﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل**

الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ [1] . وفي هذا شحذ اهتمام المدعو بتوجيه نظره إلى آيات الله في الكون ، والنفس ، وتقريب حقيقة البعث إلى الأفهام .

فالإنسان خلق من طين ثم يموت فيواري التراب . ويتحلل وتختلط ذراته بالأرض ، ثم يبعث فيخرج من الأرض مرة أخرى ، تماما كما توارى البذور في الأرض ، وينزل عليها الغيث فتهتز الأرض وتربو وتنبت من كل زوج بهيج .

﴿ **قال نوح : رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا** ﴾ . أى إنهم عصوا نوحا وخالفوه وكذبوه ، واتبعوا من غفل عن أمر الله منشغلا بماله وولده الذى يعتبر استدراجا له لا إكراما ﴿ **ومكروا مكرا كبارا** ﴾ أى ومكر بهم الرؤساء مكرا عظيما متناهيا في الكبر ، وذلك احتيالهم في الدين ، وصدهم الناس عنه ، وإغراؤهم وتحريضهم على أذية نوح ـــ عليه السلام ـــ ﴿ **وقالوا لا تذرن آلهتكم** ﴾ أى لا تتركوا عبادة الأوثان والأصنام وتعبدوا رب نوح : ﴿ **ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا** ﴾ أى ولا تتركوا على وجه الخصوص هذه الآلهة الخمسة ﴿ **وقد أضلوا كثيرا** ﴾ أى وقد أضل كبراؤهم خلقا وناسا كثيرين بما زينوا لهم من طرق الغواية والضلال ﴿ **ولا تزد الظالمين إلا ضلالا** ﴾ .

وهذا يعكس لنا دور القيادات الجاهلية المضللة التي لا تكتفي بالتلويح بالدنيا لصرف الناس عن عبادة ربهم ، ولكنها تقوم أيضا بتزيين الكفر والضلال للناس .

﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال**

---

(١) من الواضح هنا أن نوحا عليه السلام قد وجه نظر المدعوين إلى آيات الله في النفس :
﴿ **مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا** ﴾ (وهي تعكس دراية ما نسميه بعلم الأجنة : « نطفة ثم علقة ثم مضغة ») . كما أنه وجّه نظر المدعوين إلى آيات الله في الكون : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا** ﴾ (وهي تعكس لنا دراية بعلم الفلك) .
وهذا يعكس لنا أن قوم نوح عاشوا في عصر بلغ التقدم العلمي مداه ، من الناحية الطبية والفلكية ... هذا العصر الذى بلغ التقدم العلمي مداه في مجال العلوم الطبيعية والتشريحية والفلكية ، وضعه المستشرقون ومن سار على نهجهم فيما يسمى بالعصور الحجرية التي كان الإنسان يعيش أثناءها معيشة بدائية لا تكاد تختلف عن معيشة الحيوان !

نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا [1] . **رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا** ﴾ .

نوح في سورة الشعراء [2] :

﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين** ﴾ . وإنما قال « المرسلين » ، لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل . ﴿ **إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين** ﴾ أى إني لكم ناصح أمين في نصحي ، لا أخون ولا أكذب .... ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾ أى السفلة والفقراء والضعفاء . ﴿ **قال وما علمي بما كانوا يعملون** ﴾ أى ليس علي أن أبحث عن خفايا ضمائرهم ، وأن أنقب عن أعمالهم ، هل اتبعوني إلا إخلاصا . ﴿ **إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن إنا إلا نذير مبين . قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين** ﴾ أى خوفوه بالقتل بالحجارة . ﴿ **قال رب إن قومي كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين . فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ أى الغالب الذي لا يقهر .

نوح في سورة المؤمنون [3] :

الله سبحانه وتعالى يقص على النبي — ﷺ — خبر نوح عليه السلام ليتأسى به في صبره ، وليعلم أن الرسل قبله قد كذبوا .

---

(١) ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾ . أى يربونهم بعد ولادتهم حنفاء ، على الكفر والفجور . وهو ما يفعله الكثير من بني آدم في عصرنا الحديث فالناس ينفقون أموالهم ليضلوا عن سبيل الله بالإذاعة المرئية والمسموعة والمقروءة .. يتعلم فيها الإنسان كيف تهرب البنت من بيت أبيها والابن من أبيه . يتعلم فيها الإنسان السطو على الأعراض .. كيف يسرق . كيف يختلس الولد الفرصة ليحادث صديقته على التليفون .. إلخ ﴿ **ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، صفحة ٣٤٠ — ٣٤١ ، وصفوة التفاسير ، جـ ٢ ، صفحة ٢٨٧ ، الآيات ١٠٥ — ١٢٢ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤ ، صفوة التفاسير ، جـ ٢ ، ص ٣٠٧ ، الآيات ٢٣ — ٣١ المؤمنون .

﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ أى أشراف القوم ورؤساؤهم الممعنون في الكفر والضلال . ﴿ **ما هذا إلا بشر مثلكم ، يريد أن يتفضل عليكم** ﴾ أى يريد أن يطلب الشرف والرياسة عليكم بدعواه النبوة لتكونوا له أتباعا . ﴿ **ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾ أى انتظروا واصبروا عليه حتى يموت . ﴿ **قال رب انصرني بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا** ﴾ أى بمرأى منا وبحفظنا . وهذا يبين لنا أن الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ قد علم نوح عليه السلام صناعة السفينة التى كانت تجري بهم في موج كالجبال . وهذا دليل على التقدم المادي الذى كان عليه القوم في ذلك الوقت ، وأنها أصبحت وسيلة من وسائل النقل الهامة في ذلك الزمن السحيق .

﴿ **فإذا جاء أمرنا وفار التنور ، فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين . إن في ذلك لآيات وإنْ كنا لمبتلين . ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين** ﴾

المبحث الثالث

نوح عليه السلام إمام المسلمين
على أرض الرافدين وما حولها

لقد أسفرت حادثة الطوفان عن هلاك جميع الكافرين ؛ وقيام المجتمع المسلم المتحضر ، الذي يعبد الله وحده ، ويخضع حياته لنظام الله وشرعه على أرض الرافدين والبلاد المحيطة بها . ولعل ذلك كان في الفترة التي أطلق عليها المستشرقون « عصر ما قبل الأسرات السومرية » [1] (أى قبل ٣٢٠٠ ق . م ؟؟) ، والدليل على هذا الافتراض ، تقدمه النصوص السومرية القديمة التي يذكر مدونوها من العصر السومري : « نحن أبناء الناجين من الطوفان » [2] .

وحينما نقول المجتمع المسلم المتحضر ، فذلك يعني أنه المجتمع المتقدم في المجالات المادية المنضبطة بضوابط العقيدة والشريعة الإسلامية .

لقد كان المجتمع متقدما في مجالات الطب ، والفلك ، وصناعة السفن ، وركوب متن البحار ، ومعرفة دروب الأرض ومسالكها ، هذا التقدم كان يستخدم في خدمة دين الله عزوجل ، وفي خدمة المسلمين الموحدين .

ومع إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، اختفت الطبقية ، وأصبحت التقوى هي معيار المفاضلة بين الناس ، وأصبحت العقيدة هي الرابطة التي يجتمع الناس على أساسها ،

---

(١) أو عصور ما قبل التاريخ (حسب تسمية المستشرقين ومن سار على نهجهم) وقد عثر على آثار ذلك العصر كما يقولون في جرمو ، وتل حسونة ، وتل حلف ، وتل العبيد ، والوركاء

(٢) وذلك يعنى أهل سومر قد عاشوا فترة على الإسلام ، قبل أن يجتالهم الشيطان عن دينهم . والدليل على ذلك تقدمه لنا النصوص السومرية القديمة ، متمثلة في رواسب خط التوحيد .

لأن الدولة الإسلامية دولة عقدية ، دينها الإسلام ، يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر فيها قاعدة تقوم عليها حياة الناس ، وكان إمام المسلمين في ذلك الوقت هو نوح عليه السلام ، ومن هذه البقعة المباركة ، انطلق المسلمون في أرجاء الأرض مأذونا لهم بتعميرها ونشر الإسلام فيها ، وإقامة حكم الله عليها . فذهب سام إلى جزيرة العرب ، ليضع نواة المجتمع المسلم ، وكذلك فعل حام في أفريقية ، ويافث في أوزوبا ، لأنهم تعلموا أن إقامة دين الله فى الأرض كلها واجب فى رقابهم .

وصية نوح عند وفاته :

إن نبي الله نوح عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه :« إني قاص عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنين . آمرك بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرضين لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله . ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة وضمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده ، فإن بها صلات كل شيء وبها يرزق الخلق وأنهاك عن الشرك والكبر »[1] .

وقد مكث نوح في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك فإن كان ما ذكر عن ابن عباس محفوظا من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة .

وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلا أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام [2] ومع مرور الزمن وبعد وفاة نوح عليه السلام بزمن لا يعلمه إلا الله ، وهلاك الأجيال المسلمة ، استطاع الشيطان أن يجتال الكثيرين من بقايا ذرارى المسلمين عن دينهم ، فتفشت الانحرافات ، واندثرت تقريبا ملامح المجتمع المسلم أو كادت [3] .

---

(١) سفه الحق وغمط الناس . رواه أحمد ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ١١٩ .

(٢) وهذا الخبر يخالف أصلا من الأصول الإسلامية وهى أن الله سبحانه وتعالى نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور الأنبياء مساجد ، ولله المثل الأعلى ، وهذا الخبر لم يثبت ، وإلا لو صح لكان لرسول الله موقفاً من هذه المسألة .

(٣) وهى الفترة التى يطلق عليها عصر بداية الأسرات السومرى (٣٢٠٠ ق . م ؟؟) .

المبحث الرابع

معالم ترسيها سيرة نوح عليه السلام في حياة بني آدم

إن الدين عند الله الإسلام وهو ليس من اختراع العقل البشرى :

« إن قوم نوح هؤلاء .... هم ذرية آدم .... وآدم ــ كما ورد في سورة الأعراف ــ قد هبط إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها وهي المهمة التي خلقه الله لها وزوده بالكفايات والاستعدادات اللازمة [1] لها . بعد أن علمه ربه كيف يتوب من الزلة التي زَلها ، وكيف أخذ عليه ربه العهد والميثاق هو وزوجه وبنيه أن يتبع ما يأتيه من هدى الله ولا يتبع الشيطان وهو عدوه وعدو بنيه إلى يوم الدين .

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مستسلما لله رب العالمين ... ولا شك أنه علم بنيه الإسلام جيلا بعد جيل ، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض ، وحيث لم تكن معها عقيدة أخرى ! فإذا نحن رأينا قوم نوح ــ وهم ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله ــ قد صاروا إلى هذه الجاهلية التي وصفتها قصة نوح في سورة هود ــ فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعا ، وأنها انحرفت عن الإسلام بفعل الشيطان المسلط على بني آدم ، وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس كلما تراخوا عن الاستمساك بهدي الله ، واتباعه وحده وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة ... ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدرا من الاختيار ــ هو مناط

(١) نظرا لأن طريقة وأسلوب عرض الأحداث التاريخية يشكل جزءا من المنهج الإسلامى لكتابة التاريخ ، حتى يمكن للحدث التاريخى أن يؤدى دوره فى تربية الفرد المسلم ، فقد نقلنا هنا وفى مواضع أخرى نقولا بكاملها من « فى ظلال القرآن » لسيد قطب رحمه الله لأنه ليس بإمكاننا أن نعرضها كما عرضها ذلك الكاتب الإسلامى لكى تؤدى الدور المنوط بها .

الابتلاء ـــ وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده ، فلا يكون لعدوه من سلطان كما يملك أن ينحرف ـــ ولو قيد شعره ـــ عن هدي الله إلى تعاليم غيره ، فيجتاله الشيطان حتى يقذف به ـــ بعد أشواط ـــ إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التى انتهت إليها ذراري آدم ـــ النبي المسلم ـــ بعد تلك الأجيال التى لا يعلمها إلا الله .

وهذه الحقيقة ـــ حقيقة أن أول عقيدة عرفت فى الأرض هى الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده ـــ تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم « علماء الأديان المقارنة » وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورا متأخرا من أطوار العقيدة ، سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح ، وتأليه الشمس والكواكب [1] ، إلى آخر ما تخبط فيه هذه البحوث التى تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة ، يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحى الإلهى والرسالات التي من عند الله ، وإثبات أن الأديان من صنع البشر وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان .

وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين ، فيتابعون تلك النظريات التى يقررها الباحثون في تاريخ الأديان ـــ وفق ذلك المنهج الموجه ! ـــ من حيث لا يشعرون ، وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم حين يقرر أن آدم ـــ عليه السلام ـــ هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام وأن نوحا [2] ـــ عليه السلام ـــ واجه ذرارى آدم الذين اجتالهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه القائم على التوحيد المطلق ... وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، وأن الرسل جميعا أرسلوا بعد ذلك بالإسلام ، القائم على التوحيد المطلق .... وأنه لم يكن قط تطور في العقيدة السماوية فى أصل الاعتقاد ، إنما كان الترقي والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة ،

---

(١) ديانة مصر القديمة تأليف أدولف أرمان ، وترجمة محمد أنور شكرى ومحمد عبد المنعم أبو بكر ، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، تأليف ج . ه . برستد وترجمة زكى سوس ؛ حضارة مصر والشرق القديم ، تأليف إبراهيم رزقانة وآخرين .

(٢) ونوح هو أول رسول إلى الأرض . ويؤكد ذلك ما ورد فى الصحيحين من حديث الشفاعة ما قاله النبى ﷺ : « يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد .. فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض » أى أنه أول من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه .

وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة . إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب فى الأجيال التالية حتى بعد انجراف الأجيال عنها ، ترقي عقائدهم الجاهلية ذاتها ، حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني ، أما عقيدة التوحيد ذاتها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعا ! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم المترقية ، إنما هي آتية لهم من عند الله سبحانه ، فهي حق منذ اللحظة الأولى ، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى .

هذا ما يقرره القرآن الكريم ، ويقوم عليه التصور الإسلامي . فلا مجال — إذن — لباحث مسلم وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام ! — أن يعدل عن هذا الذى يقرره القرآن الكريم فى وضوح حاسم ، إلى شيء مما تتخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة . تلك النظريات النابعة من منهج موجه كما أسلفنا » ويضيف سيد قطب :

« ومع أننا هنا — فى ظلال القرآن — لا نناقش الأخطاء والمزالق في الكتابات التى تكتب عن الإسلام — إذ أن مجال هذه المناقشة بحث آخر مستقل — ولكننا نلم بنموذج واحد نعرضه فى مواجهة المنهج القرآني والتقريرات القرآنية في هذه القضية :

كتب الأستاذ العقاد فى كتابه : « الله » فى فصل « أصل العقيدة » :

« ترقى الإنسان فى العقائد ، كما ترقى فى العلوم والصناعات فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى . وكذلك كانت علومه وصناعاته فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى [1] .

وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة ، وهى أظهر ما تراه العيون ، وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ، ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت فى ظلام من أمرها فوق ظلام . ولعلها لا تزال .

---

(١) عباس محمود العقاد ، الله ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٢ ، وغالبا قد تأثر العقاد فى ذلك بكتاب منهج مقارنة الأديان ، وكتابات التاريخ القديم .

فالرجوع إلى أصول الأديان فى عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تنجلى للناس كاملة شاملة فى عصر واحد ، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرا بعد عصر ، وطورابعد طور ، وأسلوبا بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التى يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التى آمن بها الإنسان الأول ، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة العريقة ، ولم يكن من المتصور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة فهذه هى وحدها النتيجة التى لا يترقب العقل نتيجة غيرها ، وليس فى هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء ، أو يبنون عليه جديدا فى الحكم على جوهر الدين ، فإن العالم الذى يخطر له أن يبحث فى الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء . إنما يبحث عن محال ... » كذلك كتب العقاد فى فصل « أطوار العقيدة الإلهية » [1] :

« يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب :

وهو دور التمييز والترجيح ودور الوحدانية .

ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده ، أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور ، وتقبل الصلوات أو القرابين .

وفى الدور الثانى وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ، ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها ، إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها فى شئون المعاش والدفاع ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلبا أعظم

---

(١) نفس المرجع السابق (ص ١٤ وما بعدها) إنما نستمر فى سرد هذه النظرية لكى يتأكد لنا أن هذا الخط هو الذى تبناه علماء التاريخ والآثار عند الحديث عن العقائد ، وهو الخط الذى رسمه لهم المشتغلون بمقارنة الأديان من المستشرقين وأعوانهم .

وألزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم فى حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح وهى موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عن الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

وفى الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها . ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع ، والحاشية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية[1] الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ، ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت شائعة فى عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة . وتقترن العبادة بالتفكير فى أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وكلمته العالية ، وكثيرا ما ينفرد الإله الأكبر فى هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتترك الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة والأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية » . ويُعلِّق سيد قطب على كلام العقاد :

« وواضح سواء من رأى الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصا من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم ، ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمنى مطرد على الإجمال[2] .

وهذا واضح من الجملة الأولى فى تقديم المؤلف لكتابه : « موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية منذ أن اتخذ الإنسان ربا ، إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد » ص ١ .

---

(١) وهذا فهم خاطىء لحقيقة التوحيد . فكم من المجتمعات قد تحضرت الآن ولكنها ارتكست إلى درجة المجتمعات المشركة الكافرة .

(٢) وهو نفس الخط ونفس الفكر الذى يقول به علماء الآثار والتاريخ والناقلون عنهم بلا استثناء إلا من رحم ربى ناسين ما قاله محمد ﷺ ما معناه أنه « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » رواه مسلم .

والذى لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر فى كتابه الكريم ، تقريرا واضحا جازما شيئا آخر غير ما يقرره صاحب كتاب « الله » وعلماء التاريخ والآثار وغيرهم متأثرين فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة . وأن الذى يقرره الله ـــ سبحانه ـــ أن آدم وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة ، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشىء من التعدد والوثنية ، وعرف الدينونة لله وحده باتباع مايتلقى منه وحده ، وأنه عَرَّف بنيه بهذه العقيدة . فكانت هناك أجيال من أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام دينا وإلا التوحيد عقيدة [1] .. وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد .. ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد .. ودانت لشتى الأرباب الزائفة .. حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد ، وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعا ، ولم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون نزاهة التوحيد وينكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية . ولنا أن نجزم أن أجيالا من ذرارى هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق ، قبل أن يطول عليهم الأمد ، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد .. وأنه هكذا كان شأن كل رسول : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[2] .

والذى لا شك فيه أن هذا الشىء ، والذى يقرر علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه كتاب التاريخ القديم وعلماء الآثار وغيرهم وصاحب كتاب الله شىء آخر . وبينهما تقابل تام فى منهج النظر وفى النتائج التى انتهت إليها .. وآراء الباحثين فى تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضا ، فهى ليست الكلمة النهائية حتى فى مباحث البشر الفانين .

وما من شك أنه حين يقرر الله ـــ سبحانه ـــ أمرا بينه كتابه الكريم هذا البيان الساطع ، ويقرر غيره أمرا آخر مغايرا له تمام المغايرة ، فإن قول الله يكون أولى بالاتباع ، وبخاصة ممن يدافعون عن الإسلام ، ويكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة .. وأن هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية فى أن الدين جاء وحيا من عند

---

(١) ومنهم الشعوب التى عاشت على أرض الرافدين وعلى أرض وادى النيل . وسنقدم من النصوص المسمارية والمصرية القديمة ما يؤكد الحقيقة التى يعرضها هنا سيد قطب .

(٢) الأنبياء : ٢٥ .

الله ، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم ، وأنه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يجيء بغير التوحيد فى أية فترة من فترات التاريخ ، ولا فى أية رسالة . كما أنه لا يخدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أن هؤلاء إنما يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية للدين كله وهى أنه وحى من عند الله ، وليس من وحى الفكر البشرى المترقى المتطور ! وليس وقفا على ترقى العقل البشرى فى العلم المادى والخبرة التجريبية .

ولعل هذه اللمحة المختصرة ـــ التى لا نملك الاستطراد فيها فى كتاب الظلال ـــ تكشف لنا عن مدى الخطورة فى تلقى مفهوماتنا الإسلامية ـ فى أى جانب من جوانبها ـــ عن مصدر غير إسلامى . كما تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها فى أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها حتى وهم يتصدون لرد افتراءات على الإسلام من أعدائه ... ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾[1] »[2] .

ومن المعالم التى ترسيها سيرة نوح عليه السلام فى حياة بنى آدم :

* وجوب الدعوة إلى الله ، وهى أشرف الوظائف لأنها وظيفة الرسل عليهم السلام ومنهم نوح عليه السلام .

* الله أخذ العهد والميثاق على الرسل ومنهم نوح عليه السلام لإقامة دين الله وهو الإسلام في الأرض :

﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد للكافرين عذابا أليما** ﴾[3] .

يقول الله تعالى مخبرا عن أولي العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق لإقامة دين الله تعالى وإبلاغ رسالاته والتعاون والتناصر والاتفاق . وقد صرح بذكر هؤلاء الخمسة في قوله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا**

---

(١) الإسراء : ٩ .

(٢) فى ظلال القرآن .

(٣) الأحزاب ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٤١٩ .

إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ [1] .

وذلك يعني أن الدين وهو الإسلام الذى دعا إليه محمد ﷺ ، هو من الدين الذى وصى به الله جميع الأنبياء والمرسلين قبل محمد ﷺ .

* لله فى حياة الأمم سنن ، منها :

ـــ التمكين في الأرض للمؤمنين الموحدين ، كما تحقق لنوح والمؤمنين معه ﴿ **وأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾** .

والتمكين قد يتأخر ، ولكن ذلك لا يعني أن الله سبحانه وتعالى قد عطل سنته ، أبدا ، ولكن كل شيء عنده له أجل ، فقوم نوح قد مكن الله لهم بعد ألف سنة إلا خمسين عاما من الدعوة الشاقة التي ارتبطت بمعاناة شديدة ، وتضحيات كبيرة ، وهنا درس لابد وأن يستوعبه أصحاب الدعوات ، وهو : أن الزمن جزء من العلاج ، فإذا طال الامتحان ، وطال الابتلاء فلا يعني ذلك أن الله قد تخلى عن جنده ، أو أن سنة الله ما عادت تعمل ، إنما كل شيء له وقت عند ربّه عز وجل ﴿ **وماتشاءون إلا أن يشاء الله ﴾** .

والخلافة الإسلامية لم تسقط إلا منذ أقل من قرن من الزمان ، ورغم ذلك فإن طلائع البعث الإسلامي قد بدت بشائرها في كل مكان ، في أفريقية ، وأوروبا ، وآسيا ، وهي تتعرض الآن للابتلاء والتمحيص ، وبعدها يحدث التميز ، وبعد ذلك يأتي التمكين للمؤمنين ـــ إن شاء الله ـــ إمضاء لوعد الله وسنته ، وتنحية الكافرين عن موقع القيادة أيضا إمضاء لوعد الله وسنته .

وعلى أصحاب الدعوات أن يعيشوا مع دعوة نوح عليه السلام ، على مدار تسعمائة وخمسين عاما ، ليعلموا أنهم لم يزالوا في أول الطريق ، فيتعلموا الصبر والمصابرة ، والثبات والاستمرار فى إبلاغ دعوة الله عز وجل .

ـــ ومن سنن الله في الكون التدمير على الكافرين ، وتنحيتهم عن موقع القيادة ، كما حدث لقوم نوح من الكافرين : ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾** [2] . ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين ﴾** [3] . ﴿ **فنجيناه ومن معه في الفلك ، وجعلناهم خلائف ،**

---

(١) الشورى ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ ـــ ١٠٩ .

(٢) هود : ٣٧ .

(٣) الصافات : ٨٢ .

وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ [1] . وهذا تهديد رهيب للكافرين وللمشركين الذين كفروا بالله ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، والذين يعذبون المسلمين ويقتلونهم ويحرمونهم من أموالهم وديارهم . انتقام الله وعقابه لا شك قادم إذا لم يتوبوا إلى الله عز وجل .

وعلى الجانب المقابل فإن عبادة الله ، وتقوى الله ، وطاعة الله ورسوله تؤدى إلى مغفرة الذنوب ، والتوسيع في الأرزاق ، والبركة في العمر . ومن هنا وجه نوح عليه السلام نظر قومه إلى هذه الحقيقة بقوله : ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾[2] .

ولذلك حينما اجتاحت الضائقة الاقتصادية قوم نوح عليه السلام ، قدم لهم منهجا اصلاحيا يؤدى إلى حل مشاكلهم الاقتصادية . هذا المنهج يقوم على :

* التوجه بالعبادة لله وحده ، مع إعلان التوبة وطلب المغفرة منه ، ولقد عبر عن ذلك نوح عليه السلام بقوله : ﴿ **فقلت : استغفروا ربكم ، إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾[3] .

ولقد فسر الحافظ ابن كثير هذه الآية بقوله : « أى إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدر لكم الضرع : ﴿ **وأمدكم بأموال وبنين** ﴾ . أى أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية فيها »[4] . هذا هو منهج الأنبياء لإصلاح أحوال الأمم الاعتقادية والاقتصادية وهذا هو المخرج ، ولا مخرج سواه ، للذين قلت أرزاقهم ، وضاقت صدورهم .

* إنَّ الله سميع قريب مجيب ، فحينما دعا نوح ربه ، استجاب الله له :

﴿ **ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ، فنجيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾[5] . وذلك يعنى أنه إذا عز النصير ، واشتد التضييق على صاحب الدعوة ، عليه أن يتوجه إلى الله بطلب النصر وطلب العون والتأييد . إذا قلت الأرزاق وحُبس القطر لا مجال إلا التوجه بالدعاء إلى فاطر الأرض والسماء .

---

(١) يونس : ٧٣ .
(٢) نوح : ٣ ـ ٤ .
(٣) نوح : ١٠ ـ ١٢ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٢٥ .
(٥) الأنبياء : ٧٦ .

ولا عجب في ذلك فهو الذى يستغاث به ، ويستجار به ، وهو الذي يدعى ، وهو الذى يستنصر به . وهذا ما فعله نوح عليه السلام ، لقد دعا ربه : ﴿ **أني مغلوب فانتصر** ﴾[1] .

وكانت الاستجابة الفورية من رب العالمين : ﴿ **ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين** ﴾[2] . وهذا مافعله الغلام صاحب الدعوة فى حادثة أصحاب الأخدود ، لقد أحاط به جند الطغيان يريدون قتله ، فرفع يديه إلى رب العالمين الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، داعيا : « اللهم اكفينهم بما شئت » . فتزلزل الجبل وسقط كل من كان عليه ، ورجع الغلام إلى الملك الذى سأله عن مصير جنده فرد عليه قائلا : لقد كفانيهم الله بما شاء .

* التوجه بالشكر إلى الله عز وجل ، لأنه هو صاحب الفضل ، وهو صاحب النعمة ، وهو وحده القادر على أن ينجى الصف المسلم والجماعة المسلمة من كيد أعدائها ، ومن هنا يجب التوجه بالشكر إليه ، تماما كما فعل نوح عليه السلام : ﴿ **الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين** ﴾[3] .

إنّه معرفة الفضل لصاحبه ، إن نوحا والذين آمنوا معه كانوا قلة ، ولم يكونوا يملكون من مقومات القوة الظاهرة شيئا ، في مواجهة قوة الملأ المادية ، لم يكن لهم حول ولا طول . ومن هنا توجهوا يطلبون النصر من الله ، وحينما جاء النصر قدموا الشكر لواهب النصر ، إنّه رب العالمين .

والأمة المسلمة قد سلبت قوتها المادية الآن ، ولم يعد لها حول ولا قوة إلّا بالله ، ولكن ظل هنالك مصدر يمكن أن يعطيها القوة التي تحسم بها المعارك ، إنّه الله رب العالمين الذى يعطي الإيمان ، والذى به ترجح كفة المؤمنين الصادقين .

* إن الدعوة إلى الله يجب أن تكون هي الشغل الشاغل للجماعة المسلمة ، همها بالليل وهمها بالنهار ، لأنها السبيل الوحيد لإنهاء غربة الإسلام والمسلمين ، ولأنها الطريق الوحيد لإنهاء العدوان الواقع على دين الله وعباد الله ، وإقامة حكم الله فى الأرض حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله .

---

(١) القمر : ١٠ . (٢) الأنبياء : ٧٧ . (٣) المؤمنون : ٢٨ .

يتضح ذلك من الجهد الذى كان يبذله نوح عليه السلام : ﴿ **قال : رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا** ﴾ . ﴿ **ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا** ﴾[1] وذلك على مدار ألف سنة إلّا خمسين عاما ، مستخدما في عرض قضية الإيمان كافة الوسائل المتاحة له في عصره ، بالترغيب تارة ، وبالترهيب تارة أخرى .

فها هو نوح عليه السلام يوجه نظر المدعوين إلى قصة الخلق في النفس البشرية : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا** ﴾[2] .

ويوجه النظر إلى خلق السموات والأرض : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا** ﴾[3] ، ﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾[4] . ألا يدل ذلك كله على وجود اللطيف الخبير وأنه هو الإله الحق الذى يطلب نبي الله نوح من قومه التوجه إليه بالعبادة .

إن نعمة الله وفضله تمثلت في نجاة ذرية نوح ــ عليه السلام ــ المسلمين واستخلافهم فى الأرض ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾[5] .

أهمية البلاغ وأداء النصيحة ، ويعبر عن هذا المعنى قول ﴿ **أبلّغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾[6] وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغا فصيحا ناصحا عالما بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات ، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله قال لأصحابه يوم عرفه وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا : « أيها الناس ، إنّكم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ » : قالوا : نشهد أنّك قد بلغت وأديت ونصحت . فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : « اللهم اشهد ، اللهم اشهد »[7] .

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمعروف الأكبر أن يعبد الله وحده ، وتكون شريعته حاكمة ، والمنكر الأكبر أن يعبد الطاغوت ، ويفرض قانونه ودستوره .

---

(١) نوح ٥ ــ ٩ .
(٢) نوح ١٣ ــ ١٤ .
(٣) نوح ١٥ ــ ١٦ .
(٤) نوح ١٩ ــ ٢٠ .
(٥) الصافات : ٧٧
(٦) الأعراف : ٦٢ .
(٧) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

ومن هنا نفهم دعوة نوح عليه السلام : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم إله غيره** ﴾[1] .

* المال والبنون فتنة ، ولا يجب أن تمنع الإنسان من أداء واجب الدعوة إلى الله ، مع ما يترتب على ذلك من تكاليف وتضحيات ورغم فتنتها فإنها يمكن أن تعين صاحبها في أداء واجب الدعوة إلى الله ، ويمكن أن تكون معوقا وعقبة في سبيل الدعوة إلى الله . وهذا الذى وقع لقوم نوح ، إن أموالهم وأبناءهم لم تزدهم من الله إلا بعدا ، وكان من الواجب أن تزيدهم من الله قربا : ﴿ **واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا** ﴾[2] .

أى أنهم اتبعوا عبيد الدنيا ممن غفلوا عن أمر الله ، ومُتِّعوا بأموال وأولاد ، وهي في نفس الوقت استدراج وإنظار لا إكرام ، ...

لقد كان من الواجب على قوم نوح عليه السلام أن يوجهوا الأموال في الدعوة إلى دين الله ، وفي هداية الناس إلى الإسلام الذى لا صلاح للبشرية إلا به . كان من الواجب أن يوجهوا المال للمسح على قلوب الفقراء والمحتاجين ، ولكنهم لم يفعلوا ، تماما كما تفعل الجاهلية في عالمنا المعاصر ، إنَّها تنفق الأموال الطائلة على التقنية الحديثة لاستخدامها في تعذيب بني آدم ، وإهدار آدميتهم ، إنَّها تنفق الأموال الطائلة على أجهزة الترويع لتحصي على المسلمين أنفاسهم ، إنَّها تنفق الأموال الطائلة على أجهزة الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة لإفساد عقيدة المسلمين ، وصد الناس عن دين الإسلام ، حتى لا تكون كلمة الله هي العليا ، وهكذا نرى أن المال لم يزدهم من الله إلا بعدا ، ومن النار إلا قربا .

لقد كان من الواجب ، وقد أنعم عليهم الله بنعمة الأولاد ، أن يعدوهم ليكونوا جنودا مسلمين مجاهدين ، يعملون لنصرة الإسلام « دين الله » ، يعملون لنصرة المظلومين ، ولكنهم لم يفعلوا ، لقد ربوهم على كره الإسلام ، وحرب الإسلام والمسلمين . وهكذا نجد أن نعمة الأولاد لم تزدهم من الله إلا بعدا ، ومن النار إلا قربا .

* أهمية الثبات والتضحية والصبر :

﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إنَّ العاقبة للمتقين** ﴾[3] .

---

(١) الأعراف : ٥٩ .
(٢) نوح : ٢١ .
(٣) هود : ٤٩ .

أى أن خبر نوح مع قومه من الغيب ، ولم يكن في الإمكان أن نعرف عنها شيئا ، إلا عن طريق الوحي الذى نزل من عند الله بهذا الخبر على رسول الله محمد ﷺ ، ليقتدى ويتأسى : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾(١).

كان نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة عن قتادة عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة ، قال : « فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو الخلق خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربك حتي يريحنا من مكاننا هذا فيقول : لست هناكم . فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها . ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله . قال : فيأتون نوحا ﷺ فيقول : لست هناكم . فيذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها . ولكن ائتوا إبراهيم ﷺ الذى اتخذه الله خليلا فيأتون إبراهيم ﷺ فيقول : لست هناكم . ويذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها . ولكن ائتوا موسى ﷺ الذى كلمه الله وأعطاه التوراة . قال : فيأتون موسى عليه السلام . فيقول : لست هناكم . وذكر خطيئته التى أصاب فيستحى ربه منها . ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته . فيأتون عيسى روح الله وكلمته . فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمد ﷺ عبدا قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر » . قال : قال رسول الله ﷺ : « فيأتونى . فأستأذن على ربى فيؤذن لى . فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا . فَيَدَعَنِى ماشاء الله . فيقال : يامحمد ، ارفع رأسك قل تسمع . سل تعطه . اشفع تُشفع فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ربى ثم أشفع ، فيحد لى حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة (قال : فلا أدرى فى الثالثة أو فى الرابعة قال) فأقول : يارب . مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن أى وجب عليه الخلود »(٢) .

* إن نوحاً عليه السلام قد أنذر قومه الدَّجال : « وإنّي أنذرتكم كما أنذر به نوح قومه » (٣) .

---

(١) الأنعام : ٩٠ .

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان : ٣٢٢ ؛ اللؤلؤ والمرجان ١ / ٤٩ ــ ٥١ .

(٣) رواه البخارى ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ألا أحدثكم عن الدجال حديثا ما حدث به نبي قومه ، إنه أعور ، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار ، والتي يقول عليها الجنة هي النار ، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه » . البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١١٠ .

* يجب أن يتحلى الدعاة بالخلق الكريم ، وأن يحلموا ، ويصبروا ويتأسوا بالأنبياء عليهم السلام ، ومنهم نوح عليه السلام الذى رمي بالضلال ، فلم يجهل على قومه ، وإنما رد عليهم قائلا : ﴿ **يا قوم ليس بي ضلالة ولكنّى رسول من رب العالمين** ﴾[1].

* الدين النصيحة ، ولذلك نجد أن كل رسول كان ينصح أمته ويبلغها رسالة ربها كاملة ، وهذا ما فعله نوح عليه السلام : ﴿ **أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾[2].

* إنّ تقوى الله تؤدى إلى نزول رحمة الله على المتقي : ﴿ **ولتتقوا ولعلكم ترحمون** ﴾[3].

* ضرورة التوكّل على الله ، يوجهنا إلى ذلك قول نوح عليه السلام : ﴿ **فعلى الله توكلت** ﴾[4].

* أهمية الإخلاص في الدعوة إلى الله ، نلمح هذه الحقيقة في كلمة نوح عليه السلام وهو يدعو قومه : ﴿ **فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلّا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾[5].

* الجزاء من جنس العمل :

﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا** ﴾[6].

أى من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ **أغرقوا فأدخلوا نارا** ﴾ أى نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار[7].

وهذا تحذير للظالمين من غضب العزيز الجبار .

* الدعاء على الكافرين :

كما كان يفعل نوح عليه السلام ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾[8].

* مصاحبة الأخيار المؤمنين :

---

(١) الأعراف : ٦١ .
(٢) الأعراف : ٦٢ .
(٣) الأعراف ٦٣ .
(٤) يونس : ٧١ .
(٥) يونس : ٧٢ .
(٦) نوح : ٢٥ .
(٧) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٢٧ .
(٨) نوح : ٢٦ ـــ ٢٧ .

ومن هنا كان دعاء نوح عليه السلام : ﴿ **رب اغفر لي ولوالدى ولمن دخل بيتي مؤمنا** ﴾[1].

« لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي » رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

* ﴿ **ومكروا مكرا كبارا . وقالوا : لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً** ﴾[2] .

« وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله قال البخارى : حدثنا هشام عن ابن جريج ، وقال عطاء عن ابن عباس : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد : أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير آل ذى كلاع . وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح ـــ عليه السلام ـــ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت »[3] .

* إن عبادة الله وتقواه ، أى ترك المحارم ، واجتناب المآثم وطاعته فيما أمر به ، والانتهاء عما نهى عنه ، وطاعة رسوله وتصديقه فيما أرسل به من عند ربه ، يؤدى إلى مغفرة الذنوب ، والمد فى الأعمار ، ورفع العذاب . يبين ذلك دعوة نوح لقومه : ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾[4] . وقد ورد في الحديث « صلة الرحم تزيد فى العمر »[5] .

* إن الحق في نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، أم لم يتبعوه ، والحق الذى لا شك فيه أن اتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ، وغالبا أن من يتبع الحق هم ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال الله تعالى : ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلّا قال**

---

(١) نوح : ٢٨ .
(٢) نوح : ٢٢ ـــ ٢٣ .
(٣) تفسير القرآن العظيم جـ ٤ ، ص ٤٢٧ .
(٤) نوح : ٣ ـــ ٤ .
(٥) تفسير القران العظيم جـ ٤ ، ص ٤٢٤ .

مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾(١). ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال : « أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال هرقل : هم أتباع الرسل »(٢).

* **نوح نبي مسلم وإلى الإسلام دعا :**

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه : ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله ، وأمرت أن أكون أول المسلمين ﴾(٣).

يقول الحافظ ابن كثير : أي وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم كما قال تعالى : **﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾**(٤).

* الصراع بين الحق والباطل صراع عقدى بالدرجة الأولى ، فهو صراع بين الدعاة لإقامة دين الله فى الأرض « حتى لا تكون فتنة » وبين الذين لايريدون أن تستقيم الحياة على دين الله عز وجل . والدليل نلمحه فى سيرة نوح عليه السلام : **﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ﴾**(٥).

فهاهم القوم يرفضون دعوة الخير ، ويتهمون صاحبها بالضلال . ولم يقف الأمر عند اتهام الرسول الكريم بالضلال ولكن تعداه إلى اتهامه بالجنون : **﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾**(٦)، **﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾**(٧)، وكانوا يسخرون منه **﴿ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾**(٨) وتجاوز أهل الكفر حدهم وهددوا صاحب الدعوة بالقتل **﴿ لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين ﴾**(٩).

---

(١) الزخرف : ٢٣ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٤٤٢ .
(٣) يونس : ٧١ - ٧٢ .
(٤) المائدة : ٤٨ .
(٥) الأعراف : ٥٩ — ٦٠
(٦) المؤمنون : ٢٥ .
(٧) القمر : ٩ .
(٨) هود : ٣٨ .
(٩) الشعراء : ١١٦ .

والصراع سنة كونية : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾(١) ، ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع** ﴾(٢) ... وأثناء الصراع يتميز الصادق من الكذوب ، ويتميز المؤمن الصادق من المنافق ، وأثناءه يصطفى الله الشهداء : ﴿ **الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾(٣) ، ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾(٤) .

أهداف الصراع مُقدرة : ﴿ **قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون** ﴾(٥) .

ونتيجته معروفة : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾(٦) .

والنصر قد يكون بالتمكين فى الأرض للمؤمنين ، والتدمير على الكافرين ﴿ **فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين** ﴾(٧) .

إن نتيجة الصراع بين الحق والباطل مقدرة حتى فى جانبها المعنوى ، وإن هؤلاء كانوا يسخرون من المؤمنين فى الدنيا ، وسوف يأتى الوقت الذى يضحك فيه المؤمنون من المجرمين : ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون** ﴾(٨) .

إن للملأ من القوم فى الجاهليات موقفا واحدا لم يتغير من « لا إله إلا الله » على مدار تاريخ البشرية ، إنهم يرفضون إفراد الله رب العالمين وحده بالعبادة ، إنهم لا يطيقون إخضاع الحياة لنظام الله وشرعه ، مثال ذلك قوم نوح عليه السلام ، وقوم إبراهيم ، وقوم هود وقوم صالح .

---

(١) البقرة : ٢٥١ .
(٢) الحج : ٤٠ .
(٣) العنكبوت : ١ ــ ٣ .
(٤) البقرة : ٢١٤ .
(٥) التوبة : ٥٢ .
(٦) غافر : ٥١ .
(٧) الأعراف : ٦٤ .
(٨) المطففين : ٢٩ ــ ٣٦ .

وهم لا يطيقون أن ترتفع راية لله فى الأرض ، لا يطيقون صوتا يرتفع بلا إله إلا الله .

إن الشرك بالله يقترن بالتضييق فى الأرزاق على المشركين ، ونزول عذاب الله : ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾[1] .

﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديداً** ﴾[2] .

وهذه السنة الربانية فى حياة الأمم ، فى ضوئها يمكن لنا أن نُفسِّر حالة المعيشة الضنك التى تعيشها الشعوب فى غالب بقاع الأرض الآن .

* وفى هذا توجيه من رسول الله محمد ﷺ لأصحاب الدعوات من بعده : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾[3] كما صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى .

«إن سفينة نوح عليه السلام استوت بمن فيها على الجودى وهو جبل بالجزيرة . ويذكر الإمام الحافظ ابن كثير ، أن الله قد أبقى سفينة نوح ـــ عليه السلام ـــ على الجودى من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة »[4] .

وهنالك تفسير يقول : « إن نوع السفينة ، قد جعله الله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان »[5] .

أتباع نوح عليه السلام فى ميزان الله عز وجل ؛ من خلال سورة الشعراء :

قيل : إن الذين أسلموا مع نوح عليه السلام لله رب العالمين ، كانو قلّة ، تقول بعض الروايات : إنهم كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم ورواية أخرى تقول : إنهم كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : إنهم كانوا عشرة ، وقيل : إنما كان نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة يام الذى انخزل وانعزل وسلل عن طريق النجاة[6] لقد كانوا قلة وهم حصيلة ألف سنة إلا خمسين عاما من الدعوة .

إن هذه القلة .. وهى ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل ، قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ، وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل

---

(١) طه : ١٢٤ . (٢) الطلاق : ٨ ـــ ٩ . (٣) الأحقاف : ٣٥ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٤٦ . (٥) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٠٧ .

(٦) البداية والنهاية ،جـ ١ ، ص ١١١ ، ١١٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٤٥ .

شيء وكل حي في المعمورة وقتها من الأرض ، وأن يجعل هذه القلة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها ، والاستخلاف من جديد ... وهذا أمر خطير .

إن طلائع البعث الإسلامى التى تواجه الجاهلية الشاملة فى الأرض كلها ، والتى تعانى الغربة فى هذه الجاهلية والوحشة ، كما تعاني الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل ... إن هذه الطلائع ينبغي أن تقف طويلاً أمام هذا الأمر الخطير ، وأمام دلالته التى تستحق التدبر والتفكير [1] .

إن وجود البذرة المسلمة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله ... شيء يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وأرضها وعمرانها ومنشآتها وقواها ومدخراتها جميعاً ، كما يستحق منه ـــ سبحانه وتعالى ـــ أن يكلأ هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض وتعمرها من جديد .

لقد كان نوح ـــ عليه السلام ـــ يصنع الفلك بأعين الله ووحيه ، كما قال تعالى : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى في الذين ظلموا ، إنهم مغرقون** ﴾[2] .

وعندما لجأ نوح إلى ربه يعلن أنه مغلوب ويدعو ربه أن ينتصر له وقد غلب رسوله ... عندئذ أطلق الله القوى الكونية الهائلة لتكون في خدمة عبده المغلوب :

﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾[3] .

وبينما كانت تلك القوى الكونية تزاول عملها على هذا المستوى الكوني الرائع المرهوب .. كان الله سبحانه بذاته العلية مع عبده المغلوب :

﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر** ﴾[4] .

هذه الصورة الرائعة التى يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامى في كل مكان وفي كل زمان أمامها حين تطاردها الجاهلية ، وحين تغلبها الجاهلية ..

إنها تستحق أن يسخر الله لها القوى الكونية الهائلة ، وليس من الضرورى أن تكون

---

(١) فى ظلال القرآن . المجلد ٤ ص ١٨٩٢ ـــ ١٨٩٣ .
(٢) هود : ٣٧ .
(٣) القمر : ١١ ، ١٢ .
(٤) القمر : ١٣ ، ١٤ .

هي الطوفان . فما الطوفان إلّا صورة من صور تلك القوى : ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾ .

وإنه ليس عليها إلا أن تثبت وتستمر في طريقها ، وإلا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه ، وإلا أن تصبر حتى يأتي الله بأمره ، وإلا أن تثق أن وليها القدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . وأنه لن يترك أولياءه إلى أعدائه إلافترة الإعداد والابتلاء ، وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها وسيصنع بها في الأرض مايشاء .

وهذه هي عبرة الحادث الكوني العظيم ..

إنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية ، وهو يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالربوبية . كما أنّه لا ينبغي أن يقيس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى وهو عبده ، الذى يستنصر به حين يغلب فيدعوه : ﴿ **أني مغلوب فانتصر** ﴾ .

إن القوى ليست في الحقيقة متكافئة ولا متقاربة ... إن الجاهلية تملك قواها .. ولكن الداعي إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية ـــ حينما يشاء وكيفما يشاء ـــ أيسر هذه القوى يدمر الجاهلية من حيث لاتحتسب .

وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله .. وقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، قبل أن يأتي الأجل الذى قدره الله . ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا قلة من المسلمين ... ولكن هذه القلة من البشر كانت في ميزان الله تساوى تسخير تلك القوى الهائلة ، والتدمير على البشرية الضالة جميعاً وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة ، تعمرها من جديد ، وتستخلف فيها .

إن عصر الخوارق لم يمض ؟ فالخوارق تتم في كل لحظة ـــ وفق مشيئة الله الطليقة .. ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطاً أخرى ، تلائم كل فترة ومقتضياتها . وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها ، ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائماً ، ويلابسون آثارها المبدعة .

والذين يسلكون الطريق إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملاً ، بكل ما في طاقتهم من جهد ، ثم يدعوا الأمور لله فى طمأنينة وثقة .. وعندما يُغلبون عليهم أن يلجأوا

إلى الناصر المعين ، وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح : ﴿ **فدعا ربه أني مغلوب فانتصر** ﴾ .. ثم ينتظروا فرج الله القريب . وانتظار الفرج من الله عبادة ، فهم على هذا الانتظار مأجورون [1].

زوجتا نوح ولوط عليهما السلام في النار مع الذين كفروا ؛ بسبب فساد العقيدة :

﴿ **ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين** ﴾[2] .

أى ضرب الله مثلا للذين كفروا في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدى معهم شيئا ، إن لم يكن الإيمان حاصلا في قلوبهم . وامرأة نوح وامرأة لوط كانتا في صحبة نبيين رسولين ليلا ونهارا ، يؤاكلانهما ، ويضاجعانهما ، ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ، ﴿ **فخانتاهما** ﴾ أى في الإيمان لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما في الرسالة ، فلم يُجْد ذلك كله شيئا ولا دفع عنهما محذورا ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل** ﴾ (للمرأتين) ﴿ **ادخلا النار مع الداخلين** ﴾ . والخيانة ليست الفاحشة بل في الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء .

نظرة الإسلام إلى الوشائج والروابط وحقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم :

« إن الوشيجة[3] التى يجتمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين ، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم » .

« إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، وليست وشيجة الجنس

(١) راجع : فى ظلال القرآن .

(٢) التحريم : ١٠ ، وراجع : تفسير القرآن العظيم .

(٣) فى ظلال القرآن ، المجلد الرابع ص ١٨٨٦ ــ ١٨٩٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٤٧ .

والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة .... إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ، ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ، كما قال سبحانه وتعالى لعبده نوح ـــ عليه السلام ـــ وهو يقول : ﴿ **رب إن ابني من أهلي** ﴾ .. ﴿ **يا نوح : إنه ليس من أهلك** ﴾ ثم بين له لماذا يكون ابنه ... ليس من أهله ... ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾ ... إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح : ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحسبان خاطىء . أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ، ولو كان هو ابنك من صلبك » .

« وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط ، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة .... إن الجاهليات تجعل الرابطة آناً هي الدم والنسب وآناً هي الأرض والوطن ، وآناً هي القوم والعشيرة ، وآناً هي اللون واللغة ، وآناً هي الجنس والعنصر ، وآناً هي الحرفة والطبقة ؟ تجعلها آناً هي المصالح المشتركة ، أو التاريخ المشترك أو المصير المشترك .... وكلها تصورات جاهلية ـــ على تفرقها أو تجمعها ـــ تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي .

والمنهج الرباني القويم ـــ ممثلاً في هذا القرآن الذى يهدى للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول ـــ ﷺ ـــ وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه ـــ قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير ... والمعلم الواضح البارز في مفرق الطريق ..

وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى ، ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها ....

ضرب لها المثل فيما يكون بين الولد والوالد ، وذلك فيما كان بين إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ وأبيه وقومه كذلك :

﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . يا أبت إني قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمٰن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك**

ربى إنه كان بي حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾[1] .

وضرب لها المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما علمه الله سبحانه ولقنه ، وهو يعطيه عهده وميثاقه ، ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة في عقبه :

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾[2] .

﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾[3] .

وضرب لها المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه ، وذلك فيما كان بين نوح وامرأته ، ولوط وامرأته . وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون :

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾[4] .

وضرب لها المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم وأموالهم ومصالحهم وماضيهم وحاضرهم ومصيرهم . وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم . وما كان من الفتية أصحاب الكهف أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده .... ﴾[5] .

---

(١) مريم : ٤١ ــ ٥٠ .
(٢) البقرة : ١٢٤ .
(٣) البقرة : ١٢٦ .
(٤) التحريم : ١٠ ــ ١١ .
(٥) الممتحنة : ٤ .

﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا . فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا . ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا . نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السمٰوات والأرض لن ندعو من دونه إلٰهاً لقد قلنا إذاً شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ﴾[1] .

وبهذه الأمثلة التي ضربها الله للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين الذين سبقوها في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان ، وضحت معالم الطريق لهذه الأمة ، وقام هذا المعلم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التي يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يقوم على سواها . وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق في حسم ووضوح يتمثلان في مواقف كثيرة ، وفي توجيهات من القرآن كثيرة ..... هذه نماذج منها :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولٰئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولٰئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[2] ...

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾[3] ...

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه .... ﴾[4] ..

---

(١) الكهف : ٩ ــ ١٦ .
(٢) المجادلة : ٢٢ .
(٣) الممتحنة : ١ .
(٤) الممتحنة : ٣ ــ ٤ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾[1] .

﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[2] .

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي ، وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوى الذى يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً إلى آخر الزمان . ولم يعد هناك مجال للجمع بين الإسلام وبين إقامة المجتمع على أى قاعدة أخرى غير القاعدة التي اختارها الله للأمة المختارة . والذين يدعون صفة الإسلام ، ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التي أحلّ الإسلام محلها قاعدة العقيدة ، إما أنهم لا يعرفون الإسلام ، وإما أنهم يرفضونه ، والإسلام في كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة ، التي يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها ، بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلاً ؟

وندع هذه القاعدة وقد صارت واضحة تماماً — لننظر في جوانب من حكمة الله في إقامة المجتمع الإسلامي على هذه القاعدة ..

إن العقيدة تمثل أعلى خصائص « الإنسان » التي تفرقه عن عالم البهيمة ، لأنها تتعلق بالعنصر الزائد في تركيبه وكينونته عن تركيب البهيمة وكينونتها — وهو العنصر الروحي الذي به صار هذا المخلوق إنساناً في هذه الصورة — وحتى أشد الملحدين إلحاداً وأكثر الماديين مادية ، قد انتبهوا أخيرا إلى أن العقيدة خاصة من خواص الإنسان تفرقه فرقاً أساسياً عن الحيوان[3] .

ومن ثم ينبغي أن تكون العقيدة — في المجتمع الإنساني الذي بلغ ذروة الحضارة الإنسانية — هي آصرة التجمع ؛ لأنها العنصر الذى يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم . ولا تكون آصرة التجمع عنصراً يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان والبهائم ، من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التي تمثل خواص الحظيرة ، وسياج

---

(١) التوبة : ٢٣ .

(٢) المائدة : ٥١ .

(٣) من هؤلاء جوليان هاكسلي من علماء الداروينية الحديثة ، كما يقول صاحب الظلال .

الحظيرة ، ولا تكون كذلك هي الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر واللون واللغة . فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة . وليس هناك إلا شؤون العقل والقلب التي يختص بها الإنسان دون البهيمة .

كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم .. وهو عنصر الاختيار والإرادة فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته بمجرد أن يبلغ سن الرشد ، وبذلك يقرر نوع المجتمع الذى يريد أن يعيش فيه مختاراً ، ونوع المنهج الاعتقادى والاجتماعى والسياسي والاقتصادى والخلقي الذي يريد ـــ بكامل حريته ـــ أن يتمذهب به ويعيش ...

ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ونسبه ولونه وقومة وجنسه . كما لا يملك أن يقرر الأرض التى يجب أن يولد فيها ، ولغة الأم التي يريد أن ينشأ عليها ... إلى آخر تلك المقومات التي تقام عليها مجتمعات الجاهلية ... إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض ، ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأى ، إنما هي تفرض عليه فرضاً سواء أحب أم كره ، فإذا تعلق مصيره في الدنيا والآخرة معاً ـــ أو حتى في الدنيا وحدها ـــ بمثل هذه المقومات التي تفرض عليه فرضاً لم يكن مختاراً ولا مريداً ، وبذلك تسلب إنسانيته مقوماً من أخص مقوماتها ، وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان ، بل من قواعد تركيبه وتكوينه الإنساني المميز له عن سائر الخلائق .

ومن أجل المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية ، والمحافظة على الكرامة التي وهبها الله له متمشية مع تلك الخصائص ، يجعل الإسلام العقيدة ـــ التي يملك كل فرد اختيارها بشخصه منذ أن يبلغ سن الرشد ـــ هي الآصرة التي يقوم عليها التجمع الإنساني في المجتمع الإسلامي ، والتي يتقرر على أساسها مصير كل فرد بإرادته الذاتية . وينفي أن تكون تلك العوامل الاضطرارية التي لا يد له فيها ، ولا يملك كذلك تغييرها باختياره ، هي آصرة التجمع التي تقرر مصيره طول حياته ...

ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة ـــ وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى ـــ أن ينشىء مجتمعا إنسانيا عالميا مفتوحا ، يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتي ، لا يصدهم عنه صاد ، ولا يقوم في وجوههم حاجز ولا تقف دونه حدود مصطنعة ، خارجة عن خصائص الإنسان العليا ، وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات

والخواص البشرية ، وتجتمع في صعيد واحد ، لتنشىء « حضارة إنسانية » تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ، ولا تغلق دون كفاية واحدة بسبب من اللون أو العنصر أو النسب أو الأرض ....

ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية ، ولإقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة ، والحدود الإقليمية السخيفة ، ولإبراز « خصائص الإنسان » في هذا التجمع وتنميتها وإعلائها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان .... كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والألوان واللغات ، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة ، وإن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها ، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت ، وأنشأت مركبا عضويا فائقا في فترة تعد نسبيا قصيرة . وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة ، تحوى خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان ».

« لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق العربي والفارسي والشامي والمصرى والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والإندونيسي والإفريقي .... إلى آخر الأقوام والأجناس .... وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية . ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما (عربية) إنما كانت دائما (إسلامية) ، ولم تكن يوما ما (قومية) إنما كانت دائما (عقيدية) » .

« ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة وبآصرة الحب . وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة فبذلوا جميعا أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم ، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذى ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق . وهذا ما لم يجتمع قط لأى تجمع آخر على مدار التاريخ » .

« ولقد كان أشهر تجمع بشرى في التاريخ القديم هو تجمع الامبراطورية الرومانية مثلا . فقد جمعت بالفعل أجناسا متعددة ، ولغات متعددة وألوانا متعددة ، وأمزجة متعددة . ولكن هذا كله لم يقم على (آصرة إنسانية) ، ولم يتمثل في قيمة عليا

كالعقيدة .... لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الامبراطورية كلها من ناحية ، وتجمع عنصرى على أساس سيادة الجنس الروماني ـــ بصفة عامة ـــ وعبودية سائر الأجناس الأخرى . ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي ، ولم يؤت الثمار التي آتاها التجمع الإسلامي » .

« كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى ... تجمع الامبراطورية البريطانية مثلا ... ولكنه كان كالتجمع الروماني ، الذى هو وريثه . تجمعا قوميا استغلاليا ، يقوم على أساس سيادة القومية الانجليزية واستغلال المستعمرات التي تضمها الامبراطورية ... ومثله الامبراطوريات الأوربية كلها ... الامبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما ، والامبراطورية الفرنسية ... كلها في ذلك المستوى الهابط البشع المقيت ، وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعا من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة (إنسانية) عامة ، إنما أقامته على القاعدة (الطبقية) . فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم .. هذا تجمع على قاعدة طبقة (الأشراف) ... وذلك تجمع على قاعدة طبقة (الصعاليك) (البروليتاريا) ، والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى ، وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني ... فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها . باعتبار أن (المطالب الأساسية) للإنسان هي (الطعام والمسكن والجنس) ـــ وهي مطالب الحيوان الأساسية الأولية ـــ وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ... » .

« لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني ... وما يزال متفردا ... والذين يعدلون عنه إلى أى منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة أخرى ، من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة ... إلى آخر هذا النتن السخيف ، هم أعداء (الإنسان) حقا ، هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ، ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق » [1] .

---

(١) مقتطفات من فصل : (نشأة المجتمع المسلم وخصائصه) من كتاب « معالم في الطريق » .. « دار الشروق » ، الظلال م ٤ ص ١٨٩٠ ـــ ص ١٨٩١ .

« ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين ، الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركته ، وهم الذين يقول الله تعالى فيهم : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ (١) لم يفتهم أن يدركوا أن التجمع على أساس العقيدة سر من أسرار قوة هذا الدين ، وقوة المجتمع الإسلامي الذى يقوم على هذا الأساس ... ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذى يسهل عليهم السيطرة عليه ، وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله ، ولاستغلالهم كذلك واستغلال مقدراتهم وديارهم وأموالهم .... لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفتهم أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها ، وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد أصناما ، تعبد من دون الله ، اسمها تارة (الوطن) واسمها تارة (القوم) واسمها تارة (الجنس) . وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم (الشعوبية) وتارة باسم (الجنسية الطورانية) وتارة باسم (القومية العربية) وتارة بأسماء شتى ، تحملها جبهات شتى ، تتصارع بينها في داخل المجتمع الإسلامي الواحد القائم على أساس العقيدة المنظم بأحكام الشريعة ... إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية ، وتحت الإيحاءات الخبيثة المسمومة ، وإلى أن أصبحت تلك (الأصنام) مقدسات يعتبر المنكر لها خارجا على دين قومه ، أو خائنا لمصالح بلده ...

وأخبث المعسكرات التي عملت وما زالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي كان يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ ... كان هو المعسكر اليهودى الخبيث ، الذى جرب سلاح (القومية) في تحطيم التجمع المسيحي ، وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية ... وبذلك حطموا الحصار المسيحي للجنس اليهودى ، ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنود .

وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامي — بعد جهد قرون كثيرة في إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي .... ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله . كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم على الاستعمار الأوربي الصليبي . وما يزالون ... حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة ، ليقوم التجمع الإسلامي من جديد ، على أساسه المتين الفريد ....

---

(١) البقرة : ١٤٦ .

وأخيرا فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هي قاعدة تجمعهم . ذلك أن الدينونة لله وحده لا تتم تمامها إلا بقيام هذه القاعدة في تصورهم وفي تجمعهم .

يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد وألا تتعدد المقدسات ، ويجب أن تكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمتجهات ...

إن الوثنية ليست صورة واحدة هي وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية ، إن الوثنية يمكن أن تتمثل مرة أخرى في المقدسات والمعبودات من دون الله أيا كانت أسماؤها ... وأيا كانت مراسمها .

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية ، ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان ... وما إليها .... يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها وهو يدعوهم إلى الله وحده ، وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه .

لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشرى .... أمة المسلمين من أتباع الرسل ـــ كل في زمانه حتى يأتي الرسول الأخير إلى الناس كافة ـــ وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون ....

وعندما أراد الله أن يعرف المسلمين بأمتهم التي تجمعهم على مدار القرون ، عرفها لهم في صورة أتباع الرسل ـــ كل في زمانه ـــ وقال لهم في نهاية استعراض أجيال هذه الأمة : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ ... ولم يقل للعرب : إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها سواء ، ولا قال لليهود : إن أمتكم هي بنو إسرائيل أو العبرانيون في جاهليتهم وإسلامهم سواء ، ولا قال لسلمان الفارسي : إن أمتك هي فارس ، ولا لصهيب الرومي : إن أمتك هي الرومان ، ولا لبلال الحبشي : إن أمتك هي الحبشة ، إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش : إن أمتكم هي المسلمون الذين أسلموا حقا على أيام موسى وهارون ، وإبراهيم ولوط ، ونوح ، وداود وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل وإدريس وذى الكفل وذى النون ، وزكريا ويحيى ومريم ... كما جاء في سورة الأنبياء : (آيات : ٤٨ ـــ ٩١) .

هذه هي أمة المسلمين في تعريف الله سبحانه ... فمن شاء له طريقا غير طريق الله فليسلكه . ولكن ليقل : إنه ليس من المسلمين ، أما نحن الذين أسلمنا لله ، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التي عرفها الله لنا ، والله يقص الحق وهو خير الفاصلين .... »[1] .

(١) الظلال م ٤ ص ١٨٨٦ ــ ١٨٩٢ .

obeikandl.com

المبحث الخامس

مكان حدوث الطوفان فى ضوء القرآن الكريم ثم فى ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة

جزء من الأجيال العشرة من بنى آدم التى كانت على الإسلام عاشت على أرض الرافدين (دجلة والفرات) وعيلام

عاشت بعد آدم أجيال عشرة من بنى آدم على الإسلام ، وفي أعقاب هذه الأجيال العشرة ، جاء جيل ، ظهرت فيه ملامح الانحراف والمروق من دين الله عز وجل .

ومما لا شك فيه أن جزءاً من هذه الأجيال كان يعيش فى المنطقة التى تشمل أرض الرافدين (دجلة والفرات) وإقليم عيلام وامتدت لتصل إلى بلاد الهند، وإن كان ذلك منذ بداية الخليقة والدليل على ذلك التشابه فى المدنيات وجنس بنى آدم الذين عاشوا فى تلك المناطق والذى أثبتته الأبحاث الأثرية الحديثة . فقد ذكر أحد الأساتذة وهو الدكتور عبد المنعم أبو بكر [1] نتائج هذه الأبحاث :

أولا : عثر الأثريون في : « صوصة » عاصمة إقليم عيلام على أنواع من الفخار حوت زخارف ملونة تشبه إلى حد كبير تلك التي وجدت مرسومة على أوان سومرية [2] كما أن التنقيبات التي قام بها « مارشال » في مناطق شمال غرب بلاد الهند ، عثر في منطقتين منها إحداها « هاربا » والأخرى هي « مهندجو ـــ دارو » على نفس الأنواع من « الفخار السالفة الذكر ، ونفس الطريقة المستعملة في زخرفته » ثم وجد مارشال أن أهل هذه

---

(١) حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٢٦٨ .

(٢) أرض سومر هى أرض السواد وهى الجزء السفلى من دجلة والفرات .

المنطقة ، ومنطقة عيلام استعملوا طريقة للكتابة التصويرية تشبه من نواح عدة تلك التي استعملها السومريون .

كما عثر المنقبون من رجال الآثار على قطع كثيرة من العقيق في أطلال المنازل في منطقتي « هاربا » و « مهندجو ـــ دارو » من نفس النوع الذى عثر عليه المنقبون في بلاد سومر .

ثانيا : هنالك تشابه كبير بين جماجم السومريين وأولئك الذين كانوا يسكنون بلاد أفغانستان وبلوخستان في العصور الأولى من التاريخ .

ثالثا : والدليل على أن هذه الأجيال كانت تعيش فى تلك البقاع منذ بداية الخليقة ، أن الوثائق البابلية التي كتبها البابليون ، ويرجعها الأثريون إلى عام (٢٠٠٠ ق .م) تثبت تاريخ أمتهم « منذ أول الخليقة » ، ذاكرين جداول الملوك الذين حكموا البلاد في ذلك الوقت العتيق [١] .

ولقد أكدت هذه الوثائق : « أن شعب السومر سكن هذه المناطق منذ أول الخليقة . ولقد نزل نظام الحكم من السماء أى من عند الله ، وهو ما يؤكده القرآن ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ وقام ثمانية بالحكم في ثماني مدن مختلفة[٢] ، وحكم كل منهم عددا من السنين يزيد على الألف (لأن الأجيال الأولى كانت تعمر ألف عام كما بين حديث محمد ﷺ) ثم انتهى حكمهم بحدوث الطوفان الذى عم العالم كله وأهلك الحرث والنسل » [٣] .

---

(١) حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٢٦٩ . وللأسف فإن الدراسات التاريخية والأثرية التى تنطلق من منطلق الحرص على طمس خط التوحيد ذهبت تشكّكُ في هذه الوثائق ، قائلة .. « للأسف الكبير عملت الأساطير والروايات المتوارثة على خلط أسماء الحكام الأصليين بالآلهة وأبطال الأساطير ، كما عينت لحكمهم فترات بولغ في عدد سنيها بشكل لا يتفق مطلقا مع معدل حياة الإنسان » المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ،

(٢) قد يكونون هم أبناء آدم الذين تعلموا من أبيهم أن عمارة الأرض هى العبادة .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٧٠ . ونسى هؤلاء الكتاب أن هذه الفترات التى بولغ فى عدد سنيها هى معدل حياة الإنسان الحقيقية فى عصوره الأولى كما بينا . لماذا اعتبر التاريخ القديم هذا الخبر أسطورة وغير صحيح ، ألم نقرأ أن نوحاً قد لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده . ذلك عمر الدعوة ، فكم كان عمره قبل الدعوة ، وكم لبث بعد الطوفان ؟

فكون الجداول التى وضعها البابليون لأسماء من حكم منذ بداية الخليقة قد ذكر فيها أن الحكام كانوا يحكمون لفترة طويلة قد تبلغ ألف عام ، شيء لا غرابة فيه .

(وهذا مايؤكده القرآن الكريم فى سيرة نوح عليه السلام) .

وهناك ما تركه لنا مؤرخ بابلي قديم هو بروسس (٢٥٠ ق.م) من أخبار عن سومر منها : يصف فيه جيلا من الجبابرة يقودهم واحد منهم يسمى ؟ ؟ خرج من الخليج الفارسي ، وأدخل في البلاد فنون الزراعة وطرق المعادن والكتابة . ثم يقول : « وقد ترك إلى بني الإنسان كل الأشياء التي تصلح أمور حياتهم ، ولم يخترع من ذلك الوقت شيء حتى الآن » .

ومع أن كُتاب ما يسمى بالتاريخ القديم من المحدثين يعتبرون ذلك الخبر أسطورة ، إلا أننا من جانبنا نرجح فيها جانب الحقيقة . فالإنسان في ذلك الزمان البعيد كان عملاقا ، وكان جبارا . مثال ذلك نوح عليه السلام ، لأنه من سلالة أبيه آدم عليه السلام الذى كان طوله ستون ذراعا ، وكان أكمل صورة للخلق ، كما أنه كان قريب العهد به وبالتالي شبيها به ؛ لأن الخلق مازال ينقص حتى الآن كما قدمنا .

كما تبين لنا أيضا ، أن الإنسان كان يعرف الزراعة وطرق المعادن والكتابة ، أى أنه لم يكن إنسانا بدائيا ، أو حجريا ، ولكنه على جانب كبير من الدراية [1] . كما أن قولته بخروج « أهل سومر من الخليج الفارسي » ، إذا وضعنا إلى جوارها كلمة أخرى للسومريين وردت في نصوصهم « بأنهم من سلالة الناجين من الطوفان » ، فذلك يعني أن ما ورد على لسان المؤرخ البابلي القديم صحيح وليس من قبيل الأساطير . وقد عَلّق الأستاذ عبد المنعم أبو بكر على الوثائق التي ذكرها بقوله :

« وهذه هي المرة الأولى التي تتحدث وثائق قديمة شعبية عن الطوفان بجانب الكتب السماوية ، وكان في هذا دافع لبعض العلماء أن يحاولوا استقصاء الأمر بطريقة علمية وتفرغ لهذه الدراسة عالم اسمه « هيليون » قام بمقارنة كل النصوص البابلية التي ذكرت الطوفان وفحصها فحصا دقيقا على ضوء ما ورد في هذا الحادث في الكتب السماوية ، وهو يؤكد أن هذه الوثائق كلها ـــ مع وجود بعض الاختلافات من حيث وصف الطوفان ونتائجه ومسبباته ـــ ترجع إلى أصل واحد تناقلته الأجيال ، وتحدثت به أفواه الناس ، إلى أن سجلوه

---

(١) قصة الحضارة ، حـ ٢ ، م ١ ، ص ١٤ ، وهكذا تؤكد الدراسات الأثرية المعلومات المستقاة من المصادر الإسلامية .

« في أكثر من وثيقة » . وانتهي هيليون إلى تحديد تاريخ حدوث الطوفان في القرن الأربعين قبل الميلاد » .

رابعا : كما أن هذا المكان (أرض سومر وعيلام) لا بد وأن يكون قد شمله الطوفان الذى أغرق الله به الكافرين والدليل :

أن الأبحاث العلمية التي جرت في أكثر من مكان في أرض الرافدين ، تسجل ظواهر تثبت حدوث فيضان كاسح حوالي منتصف القرن الأربعين ، وذلك في أسفل التل الذى حوى أطلال مدينة كيش ، وأطلال مدينة أور ، حيث عثر على طبقة طمية اختلطت بها كميات كبيرة من القواقع والأسماك التي تعيش في المياه العذبة ، وذلك على عمق يزيد على ثمانية أمتار أسفل التل . ثم عثر في أسفلها على طبقة أخرى تحوى مخلفات بشرية (١) .

خامسا : أن الإنسان الذى كان يعيش في تلك البقاع قبل حدوث الطوفان كان على جانب كبير من التقدم المادى والفكرى ، فقد عثر الأثريون الفرنسيون في هذه المنطقة — إقليمي عيلام وأرض سومر — على آثار يرجع عهدها إلى عشرين ألف عام — حسب تقديرهم — كما وجدوا شواهد تدل على قيام ثقافة راقية يرجع عهدها إلى عام (٤٥٠٠ ق . م) فقد تبين أن أهل هذا الإقليم كانوا يعرفون الزراعة ، ويرعون الحيوانات ، وكانوا يعرفون الكتابة . وقد خلفوا وثائق تجارية تؤكد أن تجارتهم قد امتدت إلى مصر والهند ، كما عثر على أدوات يعتبرها الأثريون أجمل ما صنعه الإنسان في عهود التاريخ كله ، كما عثر على أقدم ما عرف من عجلات المركبات الذى عرف في بابل — فيما بعد — ثم في مصر (٢) .

---

(١) حضارة مصر والشرق القديم ص ٢٧٠ .

(٢) قصة الحضارة ج ٢ ، م ١ ، ص ١١ ، ١٢ .

وهذه الحقائق قد ذكرها القرآن الكريم قبل قيام الأبحاث الأثرية بأكثر من ألف سنة ، فقد ذكر القرآن الكريم أخبار قوم نوح عليه السلام وهى تعاصر الفترة التى تحدثت عنها الدراسات الأثرية . ذكر القرآن مايؤكد أن أصحاب هذه الفترة كانوا على جانب كبير من التقدم المادى الذى يتمثل فى معرفة الزراعة ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً** ﴾ .

كما أن قوم نوح كان لديهم دراية بعلم الأجنة : ﴿ **قد خلقكم أطوارا** ﴾ وكان لديهم دراية بعلم الفلك : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا** ﴾ بل إنهم كان لديهم علم — وهذا من عند الله — أن الإنسان مكون فى خلقته من عناصر من جنس طينة الأرض : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتاً** ﴾ .

وحدود إقليم عيلام قديما ، كان من الشرق يحده الجبال الحالية لهضبة إيران العظيمة ، ومن الغرب نهر دجلة ، وكان مركزه مدينة « السوس » القديمة ، وهي « شوشان » الحالية داخل الحدود الإيرانية .

وهذا يؤكد لنا أنه من الخطأ الفادح أن نطلق على الإنسان صاحب هذه المدنية « إنسان العصور الحجرية » أو « عصور ما قبل التاريخ » ؛ لأنه في هذه المنطقة عاش إنسان على جانب كبير من الرقي والفهم والتقدم المادى ، كما أكدت ذلك الدراسات الأثرية والتاريخية التى قدمنا جانباً منها .

هل يمكن معرفة بعض أسماء المدن التي تركز فيها العمران في هذه الفترة قبل بعثة نوح عليه السلام ؟

نعم كان العمران متركزاً ــ كما ذكرت النصوص السومرية العراقية القديمة ــ في خمس مدن متعاقبة ، وهي : أريدو ، وبادتيبيرا ، ولاراك ، وسيبّار ، وشورروباك . وذكرت النصوص أنها قد حكمت (بأشخاص) عمروا طويلاً ، لفترات امتدت آلاف السنين[1] .

وبعد : أكان الطوفان عاما في الأرض ؟ أم أنه كان في تخوم الأرض التي بعث فيها نوح ؟ وأين كانت هذه الأرض ؟ وأين تخومها في العالم القديم وفي العالم الحديث ؟

وسنحاول بقدر معرفتنا ــ وما توفيقنا إلا بالله ــ أن نضع عدة افتراضات للإجابة على هذه الأسئلة على أن نضع في الاعتبار أنّه ليس لهذه الإجابة بعد ذلك قيمة في تحقيق الهدف الذى من أجله أورد الله سبحانه هذه السيرة فى القصص القرآني ، لأن الهدف يتحقق بدونها .

الثابت من النصوص القرآنية أن قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية في ذلك

---

(١) مصر والعراق ، ص ٣٩٨ ، وهو يعتمد على : TH , Jacobsen , The sumerian king hist , Assyriological Studies NO XL . , 1939 ,ومراجع أخرى . وهكذا نرى أن النصوص السومرية تؤكد ما ذكرته المصادر الإسلامية عن العشرة قرون بين آدم ونوح عليهما السلام .

وللأسف فإن كتاب التاريخ القديم ، اعتبروا ذلك من الأساطير . وآمل أن تتاح الفرصة لدراسة هذه النصوص مباشرة ، فتظهر لنا ما حرص أعداء الإسلام على إخفائه . وقد ذكرت النصوص أن بعد الطوفان عاد العمران إلى أرض العراق ، وظهرت مدن أخرى كثيرة مثل كيش ، وأوروك ، وأور ...

الزمان ، وأن الأرض التي كانوا يسكنونها كانت هي الأرض المعمورة في ذلك الحين .

ويكاد يكون من المتفق عليه حتى الآن أن أقدم حضارة إنسانية [1] عثر على جزء منها في إقليم عيلام وأرض سومر . والأول : مكان عاصمته الآن في سوشان الحديثة (بإيران) . والثانى : أرض السواد جنوب دلتا دجلة والفرات (بالعراق) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن نصوص أرض الرافدين القديمة قدمت لنا أخبار الطوفان في الأدب السومرى والأدب البابلى بصورة تطابق أحداثها الرئيسية لرواية القرآن الكريم تقريباً .

كما ورد في البداية والنهاية [2] « أن الجودى جبل مشهور بأرض الجزيرة (العراق) » ص ١١٥ .

« وقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم على التعيين ، وهو جبل عظيم شرقي جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة عند الموصل ، امتداده من الجنوب إلى الشمال مسيرة ثلاثة أيام وارتفاعه مسيرة يوم ونصف ، وهو أخضر لأن فيه شجرا من البلوط ، وإلى جواره قرية يقال لها : قرية الثمانين »ص ٢١ ، ٢٢ .

وغير ذلك هنالك أكثر من رواية أوردها الطبرى [3] تفيد بأن سفينة نوح ــ عليه السلام ــ رست بأرض الجزيرة شمالاً ، ومن ذلك ما جاء في الجزء الأول ، ص ١٨٥ ــ ١٨٦ في رواية ترجع إلى ابن عباس : « أن سفينة نوح انتهت إلى الجودي ، وهو جبل بالحضيض في أرض الموصل » . وفي رواية أخرى ، جـ ١ ، ص ١٨٩ أنها استقرت بناحية كردى من أرض الجزيرة ، وأنه ابتنى هناك قرية سماها ثمانين (وهي سوق الثمانين الذي كان قائما في عهد الطبري) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أورد البيروني في كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » : « بأن الجودى جبل بالعراق رست عليه سفينة نوح عليه السلام » .

كما جاء في القاموس المحيط[4] : « أن جبل الجودى في نواحي ديار بكر من بلاد

---

(١) قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ١ ، ص ١١ .

(٢) تأليف الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير .

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ ــ ٣١٠ هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، جـ ١ ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة .

(٤) ترتيب القاموس المحيط ، جـ ١ ،ص ٥٥٣ ،« والجودى جبل بالعراق استوت عليه سفينة نوح عليه السلام » .

الجزيرة ، وهو يتصل بجبال أرمينية ، وأنه قد استوت عليه سفينة نوح عليه السلام » .

ولذلك يمكننا أن نفترض أن الطوفان قد وقع في الأرض المعمورة في ذلك الزمان . وكما أشرنا فإنه من المستقر عليه الآن : أن أقدم حضارة إنسانية قد عثر عليها هى في إقليم عيلام ، وأرض سومر . وبالتالي فإنه يمكن لنا أن نفترض أن الطوفان قد حدث جزء منه في أرض عيلام (إيران الحالية) وسومر (العراق الحالية) وما وراءها .

ويترتب على ذلك افتراض آخر : أن قوم نوح ـــ عليه السلام ـــ الذين شهدنا مدى جاهليتهم ومدى إصرارهم على باطلهم ، ومدى استنكارهم لدعوة الإسلام الخالص التي حملها نوح ـــ عليه السلام ـــ كان جزء منهم يعيش في منطقة عيلام (في أرض إيران الحالية) ، وسومر (في أرض العراق الحالية) إلى جنوب غرب الهند على اعتبار أنها المنطقة التى سكنها آدم وزوجه والقرون العشرة التى كانت على الإسلام .

نصوص الآداب السومرية والبابلية والآشورية القديمة التى عثر عليها بأرض الرافدين تؤكد حقيقة الطوفان الذي عاقب الله به المشركين من قوم نوح عليه السلام :

يؤيد هذه الافتراضات التي ذهبنا إليها آنفاً النصوص السومرية والبابلية والآشورية القديمة التي كشفت عنها الأبحاث الأثرية في تلك المناطق ، والتي تؤكد حقيقة الطوفان ، الذى أهلك الله به الكافرين الذين كذبوا بدعوة نوح وظلوا على شركهم بالله عز وجل .

فإذا ما درسنا تاريخ أرض الرافدين منذ أقدم العصور ، سوف نجد أن التراث الأثري الأدبي وغير الأدبي السومرى والبابلي والآشوري يضع أيدينا على الحقائق التالية :

أنه منذ زمن بعيد ، حدث في أرض سومر « الرافدين » فيضان كاسح أهلك الحرث والنسل ، عقاباً لأهلها على ذنب ارتكبه أحد ملوكهم الكافرين[1] ولذلك قد امتد مداه وهذا احتمال إلى عيلام وإيران وحتى أرض الهند باعتبارها امتدادا لأرض سومر وقد ظلت ذكرى هذا الحادث الضخم عالقة في أذهان الناس يتناقلونها جيلا بعد جيل إلى أن سجلتها الآداب السومرية والآشورية والبابلية :

---

(١) قصة الحضارة جـ ٢ ، م ١ ص ١٦ .

أولا : الآداب العامة : [1]

« ويغلب عليها الطابع الديني ، وقد عثر عليها مكتوبة على ألواح ترجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد ، ويقال : إن أصحابها نسخوها عن أصول قديمة يصعب تحديدها تحديدا قاطعا . وحوت الآداب السومرية قصصا وملاحم وأساطير ومحاورات دينية ودنيوية . وكانت من أشهرها مغامرات جلجميش وقصة الطوفان :

وتبدأ قصة الطوفان بالحديث عن خلق البشر والحيوانات والنباتات ، وتعمير الأرض في خمس مدن من مدن أرض الرافدين منها شوروباك وأريدو . وبعد ذلك تقرر أن يغمر الفيضان الأرض ودب الذعر فى قلوب قاطني المدن الخمسة . زيو سودرا الرجل الصالح في هذه المدن يُوحَى إليه بالقرب من جدار مقدس : « سوف ألقى إليك كلمتي ، فاستمع لأمري ، بقضائنا سوف (يكتسح) الفيضان مراكز العبادة (الوثنية ؟) ويقضى على سلالة البشر (العاصين ؟) ذاك قرار ...وقضاء » . ويبدو أنّه نصحه ببناء سفينة كبيرة وينقل إليها من كل الأزواج ؟ فصدع الرجل بالأمر . وفي اليوم المحدد هبت ريح عاتية واكتسح الفيضان الأرض بما عليها على مدار سبعة أيام وسبع ليال بعد أن حمل السفينة على ظهره .

ورست السفينة على اليابسة ، وصدرت كلمة السماء إلى الأرض فاخضرت ، ودبت فيها الحياة ووهب الربُّ الأكبر ، زيو سودرا حياة طويلة وكانت حياته سببا في الحفاظ على سلالة البشر »[2] .

ثانيا : الأدب البابلي :

ذكر كتاب التاريخ القديم أسطورة (؟) جلجميش والطوفان ، وقالوا إنها من الأساطير الشهيرة التي أدخل في ثناياها قصة الطوفان على أيدى البابليين بعد أن أدخلوا عليها بعض التعديلات . والواقع أن الجزء الذى يهمنا رصده هنا هو ما يتعلق بحادثة

---

(١) مصر والعراق ، ٣٩٨ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، والسومريون كما تقول النصوص أنهم من سلالة الناجين من الطوفان ، وفى ضوء العقيدة الإسلامية فإن الناجين من الطوفان هم الموحدون ـــ أى المسلمون من قوم نوح عليه السلام .

(٢) مصر والعراق ، ٤٣٥ وما بعدها ، وهو يعتمد على :

W .C .Lambert , Babylonian Wisdom literature ,oxlard ,. 1960 , 92 p .

الطوفان ، ولكن ذلك لا يمنع بأن نسرد بعض ملامح الأسطورة :

« جلجميش كان حاكما على مدينة « أوروك » زاده الله بسطة في الجسم ونضارة في الوجه ، فطغى وتجبر حتى أنه كان يسخر الأبناء ويستحل النساء والبنات . ولما جأر الناس بالشكوى خُلق انجيدو أكثر قوة واقتدارا حتى تهبط عزيمة جلجميش ويصرف طغيانه عن شعبه (هكذا تقول الأسطورة) ، وتستمر الأسطورة في متابعة أخبار جلجميش وانجيدو إلى أن يحين الوقت الذي يلتقي فيه جلجميش بـ « أوتنا بشتيم » طالبا منه سر الخلود . ولكن أوتنا بشتيم يأبى إلا أن يقص على مسامع جلجميش أخبار الماضي البعيد ومنها قصة الطوفان القديم ..

سأكشف لك جلجميش سراً ، وهو سر رباني ، وملخص السر أن مدينة شوروباك على ضفاف الفرات كانت تزخر بالحياة ، وفي يوم ما تلقى رجل شوروباك « أوتنابشتيم » أمراً ببناء سفينة يُحَمِّلَها من كل كائن حي « ارحل بها وخذ بذرة كل حي » . وصدع رجل شوروباك بالأمر ، قائلاً ، وسأكون أهلاً لحمل الرسالة . وأتم بناء السفينة ، ثم أنزلها إلى الماء بعد تحميلها بصنوف الأحياء . وفي الموعد المضروب اكفهر الجو واعتمت السماء وفاضت الترع ، وهبت العواصف ، « فنسفت الجبال واقتلعت الناس » . واستمرت أعاصير الطوفان ستة أيام وست ليال ، وفي اليوم السابع هدأ البحر ، وتوقف الطوفان ، ففتح رجل شوروباك طاقة من السفينة فسقط الضوء على وجهه فسجد وبكى ، ورست السفينة لينزل الأحياء منها ، وتبدأ الحياة » (١) .

ثالثاً : مخلفات الطوفان المادية :

كما سبق لنا أن أوردنا ما ذكره المشتغلون بالدراسات الأثرية من أن الحفر والتنقيب في بلاد أرض النهرين (عام ١٩٢٩ م) قد أثبتت حدوث الطوفان ، وقد تأكد حدوث ذلك حينما أسفر الحفر عن العثور على طبقات طمية ، تتراوح سمكها بين نصف وثلاثة ونصف من الأمتار على عمق عظيم من سطح الأرض ، فى مناطق متعددة من أرض النهرين (دجلة والفرات) . نذكر منها : أور ، وكش وشوروباك ، وفى تلك الطبقات الطمية كان يختلط كثير من القواقع وأعداد كبيرة من الأسماك التي كانت تعيش في مياه الأنهار . وأسفل هذه

---

(١) مصر والعراق ٤٦٩ ــ ٤٧٥ .

الطبقات عثر على بقايا حضارات إنسانية كانت قائمة قبل الطوفان ، وصفها الشعراء القدامى ـــ فيما بعد ـــ بأنّها العصر الذهبى لتلك البلاد .

وقد ذهب المكتشف « وولى » أن طبقة الغرين قد ترسبت على أثر فيضان مروع ظل عالقاً بأذهان الأجيال التالية ، وكان معروفاً باسم الطوفان[1] ، وقد أتى على تلك الحضارات الزاهرة .

ولنا على هذه النصوص تعليق :

أولاً : أن هذه النصوص قد نسخها أصحابها عن أصول قديمة يصعب تحديدها تحديداً قاطعاً ، ومعنى ذلك أنها ترجع إلى زمن أبعد من الألف الثاني قبل الميلاد بزمن طويل .

ثانياً : يبدو أن كاتب هذه النصوص كان يقصد تأريخاً لتلك الفترة ووجد أنه من المناسب إعطاء القارىء فكرة عن قصة الخلق[2] ، وعمارة الأرض ، وانحراف البشرية عن أوامر الله عز وجل ، وقرار السماء بإغراق الأرض ومن عليها بالطوفان ، وأن ذلك القرار أوحى به الله عز وجل إلى رجل صالح « زيو سودرا » ونصحه ببناء سفينة يحملها من كل الأزواج .

ثالثاً : هل « زيو سودرا » الذى ذكرته النصوص السومرية هو نوح ـــ عليه السلام ـــ الذى عاش حياة طويلة حتى يعمر الأرض ؟؟

رابعاً : أطلق الأثريون لفظة « أسطورة » على قصة جلجميش والطوفان ، رغم أنها تحمل ملامح قصة نوح عليه السلام ، ولم يحاولوا أن يفسروها فى ضوء التصور الإسلامي لأنهم حريصون على طمس معالم خط التوحيد في حياة البشرية !!

خامساً : أطلقت النصوص البابلية اسم « أوتنابشتيم » رجل شوروباك على الرجل الصالح الذى تلقى أوامر ربه .

---

(١) قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ١ ، ص ١٦ ، وهو يعتمد على :

Cambridge Ancient History , L , 86 , 361 . Childe , The Most Ancient East , 126 , Keith , in New york Times , April 3 , 1932 .

مصر والعراق ، ص ٣٩٨ ، ٤٣٥ وقد عثر على سجلات مكونة من ألواح الطين فى خرائب أور كتبت بعد عام ٣٠٠٠ ق.م تؤكد أنهم كانوا على جانب كبير من التنظيم الإدارى فهل يمكن بعد ذلك أن نتصور أن هذا قد أعقب عصور من التخلف والهمجية (قصة الحضارة ، ص ١٧) .

(٢) انظر : قصة الحضارة ، جـ ٢ ، م ١ ، ص ١٦ .

سادساً : ذكرت النصوص بعض الكلمات التي تعكس لنا إيماناً بالله عز وجل مثل :

من يستطيع أن يعاند السماء يا صديقي ؟ ليس من يخلد تحت الشمس .

إن البشر أيامهم معدودة .

إن الموت نهاية كل حي ، وأنه ليس من سبيل إلى حياة الخلود .

ماذا يعني ذلك ؟؟

هل يعني ذلك أن أخبار الطوفان التي أوردتها التوراة الأصلية مأخوذة عن النصوص السومرية والبابلية ؟؟

هل ما أوردته النصوص السومرية والبابلية من أخبار الطوفان أساطير من اختراع السومريين وتأليفهم ؟؟

هل ما أورده القرآن الكريم من أخبار الطوفان في ثنايا سيرة نوح ـــ عليه السلام ـــ مأخوذ عن التوراة أو عن النصوص السومرية أو البابلية القديمة ؟

هذه الأسئلة أجاب عليها المستشرقون ، وتابعهم في ذلك أبناء المسلمين بالإيجاب ؟؟

وفي ضوء العقيدة الإسلامية ، فإن هذه التعليلات التي أوردها المستشرقون ومن سار على نهجهم كلها خطأ من أولها إلى آخرها .

والصحيح :

أن حادث الطوفان الذى أهلك الله به المكذبين من قوم نوح ـــ عليه السلام ـــ حادث ضخم في حياة البشرية ، ظل عالقاً بأذهان الناس الذين عاصروه وشاهدوه وعاينوه ونجوا منه بفضل الله ، وأدركوا أن سبب ذلك : أن بني آدم قد رفضوا الانصياع لأوامر الله ، ورفضوا الاستسلام لأوامره ، وعصوا رسوله نوح ـــ عليه السلام ـــ وتناولوه بألسنتهم وأيديهم ... ولابد أنهم قد عاشوا كل الأطوار التي مرت بها دعوة نوح ـــ عليه السلام ـــ والمعاناة التي عاناها ذلك النبي الكريم على مدار ألف عام إلا خمسين عاما ... وموقف الجاهلية من رسول الإسلام ، ثم صدور الأوامر إلى نوح ـــ عليه السلام ـــ بركوب السفينة ... وتفجر الأرض بالعيون ، وانهمار السماء بالماء ، وصراخ الجبارين ، واستغاثة

المستغيثين ، ثم غرق أعرق حضارة إنسانية أنشأتها الأمم التي عاشت بين عصر آدم وعصر نوح عليهما السلام .

هذا الحادث الضخم قد ترك بصمات واضحة في أذهان الأجيال التي عاينته ، والتي كانت توصى أبناءها وأحفادها بعدم تعريض أنفسهم لغضب الجبار كما حدث لقوم نوح المكذبين .

ولا شك أيضاً أنهم كانوا يوصون أبناءهم بأن : ﴿ **فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[1] .

كما كانوا يحذرونهم خطر الانحراف عن نظام الله وشرعه ، حتى لا يتعرضوا لغضب العزيز الجبار ، ولطوفان مماثل كالذى دمر الكافرين من معاصريهم . وبعد هلاك جيل الطوفان استمرت الأجيال يوصي بعضها البعض بهذه الوصايا التي ورثوها وفقهوها ، في الوقت الذي تتعرض فيه لفتنة الشيطان ونزغه ، وبمضى الوقت نجح الشيطان في التهوين من شأن هذه الوصايا ، إلى أن اندثرت آثارها في النفوس وملامحها الحقيقية ، وبهتت صورتها في أذهان الأجيال التالية التي قامت بتسجيل هذه الأخبار على تفاوت بينها في النصوص السومرية والبابلية ، من باب التنبيه للأجيال من الغفلة ، وللعظة والعبرة .

ومن هذا المنطلق ذكر الله في التوراة الأصلية أخبار نوح عليه السلام والطوفان ، وكذلك القرآن الكريم ، حتى يتحقق : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾[2] .

أى أن أخبار الطوفان في أصولها قصص حقيقية ، وليست أساطير ، ولم تأخذها التوراة عن الآداب السومرية ، ولم يأخذها القرآن عن التوراة المحرفة . أى هي حوادث حقيقية ذكَّر الله بها موسى في التوراة ، وذكر بها محمد ﷺ في القرآن الكريم .

بالإضافة إلى ما سبق ، إذا عملت مقارنة بين أخبار الطوفان في النصوص البابلية وأخبار الطوفان في التوراة وأخبار الطوفان في القرآن الكريم ، سوف نتبين اختلافاً كبيراً في الأسلوب يؤكد أن كلام الله عز وجل ـــ وهو القرآن الكريم ـــ الذى يروي لنا قصة نوح والطوفان هو من علم الله عز وجل ، وليس مأخوذاً عن التوراة . وأن التوراة الأصلية إذا كان

---

(١) البقرة : ١٣٢ .

(٢) هود : ٤٩ .

قد ورد فيها أخبار نوح والطوفان ، فلا شك فهى من بقايا علم الله تعالى الذى أنزله على موسى عليه السلام ، وبالتالي فهي ليست مأخوذة عن الآداب السومرية والبابلية ، أى أنها وحي من عند الله عز وجل وليست من اختراع العقل البشرى .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

أرض الرافدين (دجلة والفرات)

العراق

فى المصادر الإسلامية ومراجع التاريخ القديم

تمهيد :

سبق وبينا الفساد والتشويه والتزييف الذى اعتور تاريخ وحضارة الأمة المسلمة منذ أقدم الدهور[1] على أيدى المستشرقين من يهود ونصارى ومن سار على نهجهم من أبناء العرب والمسلمين .

ورغم ذلك فهناك أسباب قد تكون ملحة ، تستوجب منا ذكر بعض الملامح الرئيسية لتاريخ الأمم منذ أقدم الدهور كما يعرضها المستشرقون ومن سار على نهجهم ، مع ذكر نماذج للمراجع والمصادر التى تقول بذلك ، هذه الأسباب هي :

أولاً : بيان :

(أ) فساد المنهج الذى اتبع في معالجة تاريخ تلك الأمم منذ أقدم الدهور والذى يمتد لبضعة آلاف من السنين ، على أيدى هؤلاء الكتاب .

(ب) فساد معظم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في كتابة ذلك التاريخ .

(جـ) فساد التصورات التي انطلق منها أولئك المستشرقون ومن سار على نهجهم وهم يكتبون ذلك التاريخ ، ليتأكد لنا عدم أهليتهم للكتابة عن تاريخ البشرية ، على وجه العموم ، وعن تاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص .

---

(١) هو الذى تسميه الدراسات التاريخية المعاصرة التاريخ القديم ، ومنه تاريخ الشرق الأدنى القديم ، وتاريخ العرب قبل الإسلام .

(د) فساد النتائج التي أسفرت عنها تلك الكتابات الاستشراقية الحاقدة التي حمل لواءها الكثير من أبناء العرب والمسلمين والتي تظهر لنا تاريخ آلاف السنين من عمر أبناء آدم عليه السلام ، على أنه تاريخ وثني جاهلي محض ، لا أثر فيه لتوحيد الله ولا لدعوة الرسل ، ولا دين هو الإسلام يطلب من البشرية أن تعتنقه .

ثانياً : أن هذه الكتابات والأبحاث الاستشراقية ، حوت مجموعات من الوثائق الهامة ، التي تؤكد أصالة خط توحيد الله عز وجل ، فى حياة آدم وبنيه منذ أقدم الدهور ، والتي تؤكد أن الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ كان يتعهد البشرية دائماً بالرسل ، يعرفونها بربها الحق ، ودينها الحق ، هذه الوثائق لا غنى عنها للكاتب المسلم عند معالجة تاريخ هذه الأمم .

ثالثاً : المخلفات الأثرية لتلك الأمم والتي اعتمد عليها المستشرقون ومن سار على نهجهم في كتابة تاريخ تلك الأمم تكشف لنا صورة كاملة لحياة تلك الأمم من الناحية العقائدية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية .

فمن خلالها يمكن لنا أن نرى ملامح عن حياة الأمة عند صلاح دينها وعقيدتها واستقامتها على أمر الله ، حكاماً ومحكومين (وهذا يمكن تبينه بصعوبة كبيرة نتيجة حرص الكتاب على طمس خط التوحيد ، والرفع من شأن الحكام الظلمة) .

ومن خلالها أيضاً يمكن لنا أن نرى فساد الأمة ـــ حكاماً ومحكومين ـــ عند فساد دينها وعقيدتها وعدم استقامتها على نظام الله وشرعه . نرى ذلك متمثلاً في حكام ادعوا الألوهية والربوبية وزعموا أن لهم الحق في وضع النظام والمنهج الذي يهبهم كل الحقوق ويجرد الرعية من حقوقها ، ويجعلهم مجموعة من الماشية والأغنام ، فإذا ما أراد الإنسان الحصول على مكان يدفن فيه ، وكفن يكفن فيه فعليه أن يلجأ إلى ربه وحاكمه للحصول على دفنه ، لأن الدفن هبة من الحاكم لعبيده وجواريه !!!

ومن خلالها يمكن لنا أن نرى إمكانيات الأمم المادية الضخمة تسخر لخدمة رغبات وشهوات النظام الحاكم ـــ ومن يدور في فلكه ـــ الفاجرة دون أن نسمع صوتاً يرده إلى صوابه ، ويعلمه أنه هذا الذى يبذره ليس من ماله ، أو مال أبيه ، وإنما هي عارية مستخلف عليها ، والتصرف فيه يكون بحساب ، وتحت قيود الحلال والحرام ..

ومن خلالها أيضاً يمكن لنا أن نرى مدى الاستخفاف بالأمم ، التي كانت تساق إلى حتفها بملء إرادتها ، لتذبح على أهواء الزعماء والحكام .

ومن خلالها نرى ماذا يعتور الفطرة حين فسادها ، فلم تعد تنكر منكراً ، أو تأمر بمعروف .

ومن خلالها نرى رجال الدين الذين باعوا أنفسهم للشيطان ، وكيف أنهم يروجون الحكايات والأساطير ليبرروا سرقة الزعماء والحكام للسلطة في كل زمان .

ومن خلالها نرى الطبقة المثقفة المفكرة في الأمة ، وقد جرت في ركاب حكامها ، وباعت أقلامها لأهل الباطل ، فدونت تاريخ الجاهلية وتاريخ الوثنية وتاريخ الظلم ، وجعلت من أصحابه عظماء حكماء ، تفيض الحكمة منهم على من حولهم ، وتجاهلت الرجال الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويتصدون للظالمين ، فيبطشون بهم ، ويغيبونهم فى السجون والمعتقلات ، بل إنّها تجاهلت الحكام الصالحين ، وتجاهلت وأغفلت عمداً الفترات التى كان الإسلام يحكم فيها حياة الأمة .

المبحث الأول

عصور ما بين آدم ونوح عليهما السلام

« ما قبل الطوفان »[1]

أولاً : ما يسمى عصور ما قبل التاريخ[2] :

١ ــ العصر الحجرى القديم :

قد أثبتت الأبحاث التاريخية أن حياة إنسان غرب آسيا [3] قد تشابهت مع حياة إنسان شمال أفريقيا وأوربا ، بدليل تشابه مخلفاته وخاصة أدواته الحجرية التى عثر عليها في هذه الأماكن ، ويقول المؤرخون إن إنسان أرض الرافدين القديم الذى سكن الكهوف فى العصر الحجري القديم وعاش في المناطق الجبلية والهضاب قد ترك لنا مخلفاته التى مكنتنا من التعرف على حضارته في بعض الكهوف مثل شانيدار (بالقرب من قرية شانيدار في منطقة

---

(١) فى مراجع التاريخ القديم الحديثة وهى تقوم فى غالبها على منهج معاد للتصور الدينى عموما والإسلامى على وجه الخصوص كما بيَّنا فى مقدمة كتابنا .

(٢) وهى الفترة التى صور المستشرقون إنسانها على شاكلة الحيوان ، أو « الإنسان القرد » ، **وإنه لم يكن يعرف ربَّه** وخالقه ، فتصوَّر له آلهة على قدر نضوجه الفكرى ، أى أنه كان وثنيا ، وتطوّر فى وثنيته بل تطور فى خلقه ، وأن ذلك الإنسان كان يعيش معيشة لا تختلف عن معيشة الحيوان ، بل إنه تعلم من الحيوان الزواج ، وإنشاء الأسرة ، بل إنه تعلم التدين من الحيوان ــ كما زعموا ــ وأنه كان يسير عاريا ، فاخترع اللباس ، واستأنس الحيوان ، واخترع الزراعة ــ كما تزعم مراجع التاريخ القديم مثال ديانة مصر القديمة ، ص ٤ تطور الفكر والدين ؛ شجرة الحضارة ص ٢٧ ــ ٢٩ ، حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٣ ؛ الجغرافيا التاريخية عصر ما قبل التاريخ وفجره ، ص ١٩٧ ؛ انتصار الحضارة ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، الله ، ص ١ ــ ٥ تاريخ الحضارة المصرية ، جـ ١ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ؛ مصر والعراق ، ١٥ ــ ٢٨ ؛ L'origine de l'homme , The origins of Agricultures , The Worlds first Forming villages , Palaeolithic Man . The stone , Camberidge An Cient History I , 29 .

وقد بينا فساد هذا التصور فى بداية عرضنا لتاريخ البشرية ، تاريخ الأمة الواحدة .

(٣) وفى هذا دليل على وحدة الأصل البشرى ؛ لأن التشابه المتقن لا يمكن أن يكون وليد المصادفة .

رواندوز للواء أربيل ، في السفح الجنوبى لجبال زاجروس) ومخلفاته تمثل مرحلتى مدنية العصر الحجرى القديم الأوسط (وقدمها من ٦٠,٠٠٠ ــ ٤٠,٠٠٠ سنة) ، والأعلى (وترجع إلى ٣٥,٠٠٠ سنة ق . م) ، كما يقدر ذلك المشتغلون بالتاريخ وذلك غير كهف زرزى فى المنطقة شمال غربى السليمانية ، وكهف بالى جاورا بجوار قرية سليمانى بلواء السليمانية أيضاً .

٢ ــ العصر الحجرى الحديث :

مع بداية العصر الحجرى الحديث تغيرت الظروف المناخية ، وقد ترتب على ذلك مظاهر رئيسية : دفء مع قلة الأمطار ، الأمر الذى دفع الإنسان إلى توديع حياة الكهوف ، واستئناس الحيوان وتربيته ورعيه ، واستزراع الأرض ، والاستقرار فى مساكن إلى جوارها[١] . ومن تجمع هذه المساكن نشأت القرى وزادت احتياجات الإنسان فتعددت صناعاته .

ولقد نشأ الاستقرار والزراعة فى وديان العراق الشمالية ، أكثر منه فى الوديان الجنوبية (حوالى ٥٠٠٠ ق . م) وتمثلت بداية حضارات هذا العصر فى ثلاث مراحل عثر على مخلفاتها فى جرمو[٢] وتل حسونة[٣] ثم تل حلف[٤] .

مدنية تل حسونة :

من دراسة مخلفات إنسان هذا العصر ، أمكن القول بإقامته فى مساكن بدائية من الطين ، وكذلك تصنيعه لأنواع خشنة من الفخار المزين أحياناً برسومات زخرفية ، وذلك غير آلات صوانية كانت تستعمل فى حصد سنابل القمح .

مدنية تل حلف :

تدل آثار هذه المرحلة على أن الإنسان بدأ يرتقى بأساليب حياته التى تقوم على الزراعة . وعرف المسكن المقبى السقف ، كما كان يستعمل أوان فخارية متقنة الصنع ذات

(١) وقد بيّنا فساد التصوير الموجود فى كتب التاريخ القديم وقلنا : إن الله سبحانه هو الذى ذلل بعض الحيوانات للإنسان وجعلها طائعة ذلولة ، وذلك بخلاف الحيوانات المفترسة البرية ، وبيّنا أن الله هو الذى علّم الإنسان الزراعة صفحة : ٥٥ إلى صفحة ٥٦ .

(٢) شرق كركوك فى المرتفعات الكردية .

(٣) جنوبى مدينة الموصل حاليا .

(٤) فى أعالى نهر الخابور ، شمال غرب نينوى .

ألوان متعددة . وقد كان من هذا الفخار ما يزين بزخارف هندسية ورسومات الحيوانات . كما عرف الإنسان تشكيل تماثيل بدائية من الطمى المحروق الملون أحياناً كما عرف صناعة الأختام .

٣ ــ العصر الحجرى النحاسى :

استمر الإنسان في الرقى بمدنياته ، وقد ارتبط ذلك باكتشاف واستعمال معدن النحاس فى صناعة بعض الأدوات جنباً إلى جنب بعض الآلات الحجرية وقد عثر على أقدم ثلاث مراكز لمراحل حضارة هذا العصر فى جنوب ووسط العراق : فى تل العبيد والوركاء وجمدت نصر .

مدنية تل العبيد (حوالى ٤٥٠٠ ق . م) :

نمت هذه المدنية وترعرعت فى الجزء الجنوبى من بلاد النهرين ، وكان إنسانها يسكن فى مساكن مبنية من اللبن أو البوص ، وكان يتعبد إلى أوثانه فى معابد[١] مبنية على مسطح عال يصعد إليه عن طريق درج ، والمعبد عبارة عن مقصورة بها مشكاة لحفظ تمثال أو رمز الوثن ، وأمام المشكاة توجد مائدة قرابين بالقرب منها مذبح ويحيط بالمقصورة ومائدة القرابين والمذبح سور شكلت جوانبه الخارجية على هيئة دخلات وخرجات (مشكاوات) .

ولقد استعمل إنسان هذا العصر أنواعاً راقية من الفخار فاقت إنتاج حسونة فى الشمال ، وقد كتب لهذه الأنواع الانتشار شمالاً وجنوباً في مناطق العراق ، وكان التنوع فى هذه الأوانى يعتمد على موضوعات الزخارف التى تغطى السطوح الخارجية لها ، فهناك أوانٍ تحمل سطوحها زخارف تعتمد على خطوط هندسية متجانسة لونت بالأحمر والأسود وذلك غير تماثيل السيدات ، والطيور ذات الرقاب الطويلة ، والخطوط المتقاطعة .

مدنية الوركاء (ما تسمى بمدنية العصر الكتابى) :

كانت هذه المدنية تقوم على أطلال بلدة الوركاء الحالية والتى كانت تسمى قديماً باسم أوروك . ويقال إن مدنية هذه الفترة قد مرت بست عشرة مرحلة من مراحل التطور .

---

(١) وذلك يعنى أن المجتمع العراقى فى هذه الحقبة قد ارتكس إلى الوثنية وانحرف عن الإسلام بعد انقضاء الفترة التى كان إنسانها على الإسلام ، ذلك أن مدنية العبيد تسبق عصر رسالة نوح عليه السلام .

وقد ارتبط هذا العصر بحدث هام وهو بداية معرفة الكتابة[1] (حوالى ٣١٠٠ ق . م) وقد بدأ إنسان هذا العصر توسيع نطاق تجمعه الإقليمى فنشأت المدن الصغيرة ، وقد صاحب اتساع العمران اهتمام بإنشاء قصور الحكام ومعابد الأوثان ، وتعددت الحرف بسبب وجود طبقة كافية من الصناع والفنانين ولقد صاحب هذا التجمع الإقليمى والاتساع العمرانى تطور فى العمارة يعتمد على استعمال قوالب اللبن فى البناء وبناء أعمدة دائرية المقطع وأخرى نصف دائرية تنتهى بها الجدران ، وكانت هذه الأعمدة تزخرف أحياناً بمخاريط فخارية ملونة .

ويتضح هذا التطور فى أطلال المعابد التى عثر عليها ومن بينها المعبد الأبيض وهو يتكون من مقصورة رئيسية تحتوى مشكاة لحفظ تمثال الوثن وكما تحوى مائدة قربين ومذبح يجاوره موقد نصف دائري ، ويحيط بالمقصورة والحجرات الجانبية المتصلة بها سور مستطيل زين سطحه الخارجى بمشكاوات ، ولقد أقيم بناء للمعبد بأكمله فوق تل صناعى مرتفع بنى هو الآخر بالطوب اللبن على هيئة دخلات وخرجات دعمت بفلوق النخل ، ويؤدى إلى سطح المعبد طريق صاعد ودرج طويل ويعتبر ذلك « أصل الزقورة »[2] التى كانت من مميزات العمارة العراقية القديمة .

وزخرفة المعابد عموماً ، تعتمد على كسوة المشكاوات بالملاط وتلوينها بلون واحد أو

---

(١) ولقد تبين لنا أن الله قد علم آدم أسماء كل شيء وكيفية التعبير عنها وتدوينها . وذلك يعنى أن آدم عليه السلام كان يعرف القراءة والكتابة بجميع الألسن وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ انظر الجامع لأحكام القرآن ، سورة البقرة ، جـ ١ ، ولهذا يتضح لنا فساد تقسيمات عصور ماقبل التاريخ ، على اعتبار أن إنسانها كان يعرف كيف يقرأ ويكتب كما هو ثابت .. وبالتالى يتضح لنا فساد القول بأن الإنسان هو الذى اخترع الكتابة منذ نهاية الألف الرابع قبل الميلاد .

(٢) برج شاهق الارتفاع يقام بجوار معبد المدينة ، على هيئة طبقات أقلها ثلاث وأقصاها سبع تتناقص كلما أخذت فى الارتفاع . ويقام فوق القمة معبد يعبد فيه وثن المدينة . ومعنى هذا أن خط الانحراف عن الدين الصحيح (الإسلام) قد ازداد اتساعا عما كان عليه فى عهد مدنية تل العبيد ، ويتبين لنا من هذا الوصف التفصيلى الذى تحمله كتب التاريخ فساد المنهج والتصور ، لأنه لا يترتب على عرض هذا الأمر عمل ، ولا يترتب على العلم به تحقيق أية فائدة للمسلم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بل على العكس مضيعة للوقت والجهد . والإنسان مسئول عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن علمه ماذا عمل فيه . ماذا تفيد البشرية فضلا عن المسلم من معرفة وصف معابد الأوثان إلا أن يقيم معابد للوثنيين على نمطها . ماذا يفيد الناس من معرفة فنون النحت والنقش والرسم إلا أن يعملوا على نمطها ، وهذا منهى عنه شرعا . هل أدركنا كيف تضيع أعمار شباب الأمة فى دراسة لا ينبغى عليها عمل ، فضلا عن كونها تشكل خطورة على عقيدة المسلم .

زخرفتها بصفوف من الحيوانات تنفذ على أفاريز من الحجر وتثبت فى الجدران الرئيسية .

وبالإضافة إلى ذلك فإن فنون النحت والنقش والرسم قد بلغت حداً كبيراً من التقدم ، وذلك ما تعكسه لنا الأختام الأسطوانية والمخروطية والأوانى الحجرية واللوحات والتماثيل المختلفة[1] .

---

(١) إننا إذا طبقنا ضوابط العلم ومنهج تلقيه فى ضوء العقيدة الإسلامية نجد أن دراسة وتدريس هذه المادة بهذا المضمون منهى عنه شرعا لأنه يضيع أعمار الأمة فى تحصيل معلومات لا يترتب عليها عمل فالعلم النافع هو الذى يتوسل به إلى عبادة الله حسب مفهوم العبادة الشامل : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ ومادة التاريخ القديم على هذا النحو المعروضة به فى المراجع لا تؤدى فى وسائلها وأهدافها ونتائجها إلى تحقيق علم نافع . (انظر الموافقات ، للشاطبى ، جـ ١ ، ص ٦٥ ، منهج كتابة التاريخ الإسلامى وتدريسه ، محمد بن صامل السلمى الصفحة ٢٥ وما بعدها) .

المبحث الثانى

عصور ما بعد نجاة نوح عليه السلام فى مراجع التاريخ القديم
ذرية الناجين من الطوفان
وهى الفترة التى سمَّاها المستشرقون عصر بداية الأسرات السومرى
(٣٠٠٠ ق . م ــ ٢٣٤٠ ق . م)

ومعلوماتنا عن هذا العصر مستقاة من كتب التاريخ القديم التى اعتمدت على الأبحاث الأثرية ، ولذلك لا نملك تصديقها أو تكذيبها ، ولكن نظراً لتداولها فى دور العلم ، فقد أوردنا سلفاً الأسباب التى تدعونا إلى سرد ما ورد فيها ، وهى معلومات ، الجهل بها لا يضر والعلم بها لا ينفع .

ولهذا العصر تسميات كثيرة منها « فجر الأسرات » وعصر ما قبل « سرجون » وعصر « لجش الأول والثانى والثالث » وأسرة « أور الأولى » وهو العصر الذى يبدأ من نهاية عصر بداية معرفة الكتابة حتى عصر بناء الدولة الأكدية .

ويعتبر هذا العصر حجر الأساس فى صرح الحضارة السومرية التى ظهرت فى بلاد النهرين ، والمدنيات الأخرى التى جاورتها وأتت من بعدها ، ومسرح هذا العصر هو السهول الجنوبية للعراق المسماة فى النصوص القديمة « سومر » والذى سمته النصوص السومرية من قبل باسم « كلام » أو « كلاماً » [1] ويقول المؤرخون : إن هذه المنطقة ظلت مغمورة بمياه البحر حتى القرن الستين ق . م ثم أخذت الرواسب تتراكم فتعلو بمرور السنين حتى انحسرت عنها المياه ثم تحولت إلى أرض مملوءة بالمستنقعات ثم صارت سهولاً خصبة تحوى بيئة صالحة لسكن الإنسان . هذه هى دلتا دجلة والفرات التى سكنها شعب سومر ، والذى يعتبر بحق الشعب الذى يمكن أن يرجع تاريخه إلى عصر يعادل فجر التاريخ فى مصر.

(١) مصر والعراق ، ج١ ، أ.د. عبد العزيز صالح .

وبناء على هذا التصور لبيئة ومنطقة سومر طرح المؤرخون السؤال التالى :

إذا كانت منطقة سومر بالصورة التى تم وصفها فذلك يعنى أنها كانت غير صالحة للسكن قبل تكوين الدلتا المذكورة . فمن أين أتى شعب سومر وإلى أى الأجناس ينتمى ؟ وأجاب البعض بأنهم فرع من الشعوب السامية التى انتشرت فى شبه الجزيرة العربية ، ولكن هذه النظرية صرف عنها النظر لأنه — كما قيل — ظهر أن هناك فرقا بين جماجم السومريين وجماجم الساميين ، والمتعارف عليه الآن أن شعب السومر فرع من الشعوب التى سكنت إقليم شمالى غربى الهند وهاجر إلى العراق عن طريق عيلام (جنوب إيران) .

ولا يمكن التحدث عن مدن أرض الرافدين فى ذلك العصر الموغل فى القدم كبلد ينتظمه وحدة سياسية بل كمراكز متعددة هى ما تسمى بدويلات المدن أى المدينة المستقلة التى يحكمها أسرة حاكمة واحدة ، ولقد ترتب على تعدد دويلات المدن المستقلة منازعات على الحدود وعلى الأرض الزراعية الصالحة للزراعة ، وموارد المياه والرغبة في السيطرة والزعامة ، أو تصريف المنتجات وتأمين سبل التجارة أو تأمين الحصول على مطالب الدويلة الأساسية . كما تزعم مراجع التاريخ القديم .

ومن دويلات المدن السومرية : كيش (تل الأحيمر) ، وأروك (الوركاء الآن) وأور [1] (المُقَيّر) ولجش (تلو) وأومّا (تل جوخة) ، وإريدو (أبو شهرين) ونيبور (نفّر) .

والمدينة السومرية يحدها سور كبير يحيط بها ويفتح به بضع بوابات تؤدى إلى خارج المدينة حيث المراعى وأراضى المدينة الزراعية ويتوسط المدينة معبدها الذى يحيط به سور يحجبه عن المنازل المبنية خارجه ، وكان لكل مدينة (معبود) هو سيدها ، وإن لم يمنع ذلك وجود أوثان أخرى صغيرة إلى جانبه ، وكان أيضا لكل مدينة « حاكم » يحمل لقب إنسى بمعنى النائب أو الوكيل « أى بمعنى المعبود على الأرض » ، وفيما بعد استبدل هذا اللقب بلقب آخر هو « لوجال » المساوى للفظ ملك ، وكان هذا الحاكم هو الكاهن الأكبر

---

(١) أقدم دويلات المدن السومرية ، وحكمها أسرة ملكية قوامها خمسة ملوك ذكرتهم القوائم الملكية ويبدأون بالمدعو « مس أنى بد » ولذا يرى البعض تسمية عصر بداية الأسرات السومرى باسم أسرة أور الأولى ، ولقد بلغت هذه المدينة شأوا كبيرا من التقدم على يد مليكها الأول ولكنه كان هنالك فى سومر مدن أخرى حاولت انتزاع لواء التقدم منها ، وكان أكبر منافس لها مدينة لجش .

للإله الأعظم ويعاونه بعض الكهان الذين يعاونهم بالتالى بعض الكهنة [1] كما تزعم مراجع التاريخ القديم .

ولقد كانت الدولة المدينة هى شكل الوحدة الأساسية لبلاد العراق القديم أما المعبد فهو المركز الحيوى لكل مظاهر المدينة : فيه يتعبد الناس ، وفيه يحكم القضاة بين الناس ، وخارج المعبد كانت توجد دور للكتبة وحوانيت للبيع والشراء .

ومن صور الصراع التى حدثت بين دويلات المدن السومرية الصراع بين دويلتى لجش وأوما .

ولقد أثار النزاع بين هاتين المدينتين على الحدود وموارد المياه ، ولكن لم يستمر طويلا بفضل تدخل حاكم مدينة كش : ميسيليم [2] ، الذى ترك لنا نصا يحكى جانبا من هذا الصراع ، وأنه قد قام بفرض الصلح على الطرفين .

ولكن عمر هذا الصلح كان قصيرا ، ففى عهد أياناتم حاكم دويلة لجش وحفيد أورنانشه أحد مؤسسى الأسرة الحاكمة هناك قام حاكم دويلة أوما المدعو أوش بالاستيلاء على الأرض الزراعية الفاصلة بين إقليمه وإقليم لجش ناقضا معاهدة السلام التى بينهما . وعلى الفور قام أياناتم بتجريد حملة عسكرية لتأديب حاكم أوما واستعادة الأراضى المغتصبة . وقد تم له ما أراد ولكنه كان كريما إذ سمح لأفراد (أوما) الذين كانوا يقطنون الحدود باستزراع جزء من أراضى الحدود بشرط دفع الضرائب عنها .

ويبدو أن هذا النصر الذى حققته لجش على يدى « أياناتم » كان بداية التفكير فى توحيد سومر كلها ، ولتحقيق هذا الأمل بذل هذا الحاكم الطموح جهوده فى توحيده أور

---

(١) المرجع السابق ، ٣٩٨ — ٣٩٩ ، وهذا يعنى أن أهل سومر قد ارتكسوا مرة أخرى إلى الوثنية بعد وفاة نوح عليه السلام بزمن يعلمه الله عز وجل ، كما حدث للأقوام الذين سبقوا بعثة نوح عليه السلام وهكذا نرى البشرية متغيرة الأحوال والأطوار ، فتارة تمتثل لأوامر ربها ، وتارة أخرى يجتالها الشيطان عن دينها .

وذلك رغم ضربهم بسهم وافر فى مجال تنظيم الجيش وتسليحه ، وتدوين أخبارهم باللغة السومرية ، وتخطيط المدن ، وصناعة الأدوات المنزلية ، والنهوض بالزراعة وشق الترع والقنوات وبناء السدود (حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٢٦٨ ومابعدها) .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٠ .

وأوروك وكيش آملا أن يصبح ملكا على سومر كلها . ولكن لم يهنأ بال هذا الحاكم بالانتصارات التى حققها لأن بعض المدن التى أخضعها ثارت ضده إذ كانت تفضل الاستقلال على الانضواء تحت لواء أية مدينة أخرى .

« ولقد حاول خلفاء أياناتم جمع شمل تلك المدن مرة أخرى ، ولكن جهودهم لم تثمر ، بل ازداد الأمر سوءا حينما تجدد القتال مرة ثانية بين جيش لجش بقيادة حاكمها اينتيمنا وبين جيش أوما بقيادة كاهنها الأعظم « أل » وهزم الأخير فى هذه الحروب هزيمة منكرة .

هذه الهزائم المتتالية خلقت فى نفوس شعب أوما وحاكمها مرارة حولت التنافس إلى عداء مستحكم بينها وبين مدينة لجش وما برحوا يتحينون الفرصة للإيقاع بها .

وقد واتت الفرصة حاكم مدينة أوما المدعو « لوجال زاجيزى » حينما كان يتولى حكم لجش مصلح هو « أوركاجينا » انشغل فى إصلاح الأحوال الداخلية لمدينته .

فقام لوجال زاجيزى بعد إعداد العدة بالانقضاض على مدينة لجش ، فخربها ، وحرق قصورها وهدم هياكل معبوداتها ونهب مدخراتها .

ولقد كان هذا النصر مشجعا للحاكم «لوجال زاجيزى » أن يواصل جهوده فى سبيل توحيد سومر كلها متخذا من أوروك التى كان كاهنا لإلهها الأكبر مقرا لحكمه ، ومعلنا نفسه ملكا على سومر كلها ، كما تروى مراجع التاريخ القديم .

ويبدو أن هذا الذى تم كان على كره من المدن السومرية بدليل ما كان يشيعه هذا الملك وأتباعه ويحكيه لنا أحد النصوص السومرية بأن ما حدث هو تحقيق لرغبة آلهتهم [1] ،

---

(١) وهذه في محاولة لإصباغ الصفة الدينية على الحكم ، حتى يوهموا الجماهير أن تولية الحاكم شئون البلاد من تقدير آلهة بلاد الرافدين مع العلم بأن هذا الصراع الذى يجرى إنما يجرى بين أخوة الوطن الواحد ، واللغة الواحدة ، والوثنية الواحدة ، والمصير المشترك الواحد . ولكن كل ذلك لم يحل بينهم وبين التطاحن والتصارع من أجل عرض الدنيا الزائل ، من أجل الزعامة ، من أجل قطعة أرض . وهى صورة لما يجرى فى عالمنا المعاصر ، تغير الزمان ، ولكن صورة الإنسان الذى بعد عن هدى الله ، ومرق من الإسلام ، هى لم تتغير ، إن ذلك كله يجرى لأن ويلات المدن السومرية قد شردت عن دين الله كما تبينها كتب التاريخ القديمة ، وبالتالى فإنه لايمكن لقلوب ضالة أن تتوحد لأنها استمرأت المعاصى : ﴿ **لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم** ﴾ .

وأن هذا الحاكم قد نشر العدالة فى الأرض وأن أحوال البلاد قد استقرت فى عهده وأن الأرض قد نعمت بالسلام .

كما أنه ترك لنا نصا يقول : إنه استطاع السيطرة على كل البلاد التى تمتد من مشرق الشمس إلى مغربها ، ومن البحر الأسفل (الخليج العربى) والدجلة والفرات إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط أو بحر قزوين) . ومما يمكن أخذه من هذا النص أن الحاكم «لوجال زاجيزى » بدأ يرنو ببصره إلى مد حدود بلاده حتى الخليج العربى فى الجنوب والبحر المتوسط فى الغرب ، ولكن ما طرأ على مناطق العراق القديم نتيجة ظهور الأكدين الساميين ، حال بينه وبين ما يشتهى » .

عصر الدولة الأكدية

٢٣٤٠ ــ ٢١٨٠ ق . م

رأينا من خلال دراستنا لتاريخ أرض الرافدين (العراق القديم) السياسى فى عصر بداية الأسرات السومرى أن الرقى المدنى ، ووحدة الجنس ووحدة الأرض لم تفلح فى لم شتات دويلات المدن السومرية ، بل كان التطاحن والتشاحن والحروب التى حالت بين أهل العراق القديم وبين الإحساس بالتسلّل البطىء إلى داخل العراق من قبل فرع من الشعوب السامية التى كانت تقطن بوادى العراق والشام وأصلها شبه الجزيرة العربية ، هذا الفرع من الشعوب السامية كان يرنو ببصره إلى المناطق الخصبة بوسط العراق ، والواقع أنه قد كان من المقومات ما يؤهله للسيطرة عليها ، فهو دائم الحركة محب للقتال ــ كما يقول المؤرخون .

وحوالى عام ٢٣٠٠ ق . م هاجمت موجة عنيفة من هذه الهجرات السامية مدينة أوبيس فى الشمال واستولوا عليها واستقروا فيها ، وكما يقال كان ذلك إيذانا بظهور الجنس السامى على مسرح الأحداث ببلاد النهرين ، وبداية منافسته لشعب السومر .

ولقد كان استقرار الساميين فى أوبيس بداية عهدهم بتكوين دويلة على نمط المدن السومرية ، ثم قاموا بالاستيلاء على مدينة كيش إلى الجنوب من أوبيس وبدأ العلم يسقط من أيدى السومريين ليتسلمه الذين عرفهم التاريخ باسم الأكدين ــ نسبة إلى عاصمتهم

أكد [1] مركز نشاطهم السياسى والحربى ـــ الذين ستكون لهم اليد العليا فى مناطق جنوب العراق .

ولقد ظل رؤساء العشائر السامية يتعاقبون على حكم كيش ، إلى أن شاء القدر أن يتربع على شئون البلاد أحد الأشخاص من عامتهم ويسمى سرجون [2] .

الملك سرجون :

« وقد تولى الملك شئون البلاد لمدة خمسة وأربعين عاما . وفى بداية حكمة وجه اهتمامه إلى قواته المحاربة فزودها بالعتاد والعدة اللازمة . ثم انتقل إلى عاصمة جديدة بالقرب من كيش عرفت باسم أكد [3] واتخذ لنفسه لقب « ملك سومر وأكد » و « ملك الجهات الأربع » . وبعد أن اطمأن إلى رسوخ قدمه اتجه بجيوشه إلى الشمال محاربا وغازيا ، فدانت له البلاد حتى جبال زاجروس التى تحف ببلاد النهرين فى الشرق ، وحيث خضد شوكة الجويتين سكان الجبال الأشداء . ثم بدأ يرنو ببصره إلى الجزء الجنوبى من العراق (سومر) فسير الجيوش إليها حتى بلغت الخليج العربى ، وفى الطريق اصطدم بالقائد الطموح « لوجال زاجيزى » فهزمه ، وعامله بقسوة ، وأذله ، وهدم مدينة أوروك . وبهذه الخطوة اختفى من طريقه منافسه الوحيد ، ودانت له بلاد العراق كلها بما فى ذلك دويلات سومر .

وبعد ذلك بدأ يوجه الجيوش خارج حدود العراق ، فوصل إلى المنطقة التى حول « مارى » غرب العراق ، وبعد ذلك إلى عيلام شرق العراق . وتقول النصوص أن هذه البلاد قد استسلمت له جميعا بما فى ذلك المنطقة حول الخليج العربى .

وإذا صدقت نصوص سرجون ونصوص خلفائه ، فإن فتوحاته قد وصلت إلى منطقة

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٣ .

(٢) صحة الاسم شروكين وهو يعنى الملك الصادق ، الملك الشرعى ، وقد ترك هذا الرجل نصا يحكى لنا أنه لا يعرف له أبا : وكيف ولدته أمه فى مكان « ما » على ضفاف الفرات ، ثم وضعته فى سلة وألقت به فى اليم وانتشله أحد الفلاحين الذى رباه حتى صار ساقيا فى قصر ملك كيش ، ومن هناك أتاح له القدر أن يثب على عرش البلاد (المرجع السابق ، ص ٤١٤) .

(٣) هذا الاسم سامى الأصل ، ويعرف فى السومرية باسم « أجادة » .

طوروس ولبنان وجانيش (جول تبه الحالية) فى كبادوكيا بآسيا الصغرى ، وأنه حارب ٣٤ معركة كللت بالنجاح .

ولقد كان ذلك كافيا لتحقيق الوحدة بين أجزاء البلاد مما هيأ للحكومة المركزية موارد اقتصادية ضخمة وجموعا بشرية كبيرة تعمل تحت إمرتها » .

خلفاء سرجون :

لم تصبر دويلات سومر على الخضوع لسلطان حكومة مركزية ، فقامت الثورات ضد حكم سرجون ، وصل الأمر إلى حد محاصرة سرجون نفسه فى العاصمة أكد ولكن سرجون لم يقف مكتوف الأيدى ، وكان رده عنيفا ، فقتل من أهالى المدن السومرية ٠٠٠ر ١٨ وذلك غير عدد الأسرى .

وبعد وفاة سرجون خلفه ابنه ريموش وفى خلال فترة حكمه القصيرة ثارت ضده أور وأوما ولجش ، فاشتبك معها بجيشه ، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يواصل رسالة أبيه فى التوسع خارج حدود العراق ، فاتجه إلى أرض عيلام حيث كانت له حملة ظافرة .

وخلف ريموش فى حكم البلاد أخيه مانيشتوشو الذى اقتفى سيرة أبيه وأخيه فى التوسع بحدود العراق عما هى عليه ، وإذا كان ما ورد فى النصوص التى تركها صحيحا فإنه واجه ثورة من أحد الأحلاف المكونة من اثنين وثلاثين أميرا على الشاطىء العيلامى عند قيامه بتأمين مناجم الفضة هناك .

وبعد وفاة مانيشتوشو ، خلفه على العرش نارامسين (حبيب سين إله القمر) [1] الذى طالت فترة حكمه فامتدت أربعين عاما ، ويقال إن الفتوحات استمرت فى عهده فغزا آسيا الصغرى ، ووطد أركان إمبراطوريته هناك حتى عيلام شرقا وأمانوس (منطقتى لبنان وطوروس) غربا ، كما تحكى مراجع التاريخ القديم .

انهيار الدولة الأكدية :

لقد استكملت الدولة الأكدية مقومات السقوط بسبب الأحوال التى سادت المجتمع

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤١٧ .

داخليا وخارجيا . وقبل أن نمضى فى إحصاء الأسباب التى أدت إلى انهيار تلك الدولة نود أن نوجه النظر إلى شيء عجيب : دأبت نصوص العراق القديم على أن تعزو أى نصر يحققه الملك إلى صلاحه واهتمامه بأماكن العبادة وإرضاء إلهه المعبود ، كما حرصت أن تعزو الهزيمة التى تحيق بالحكام والقحط الذى يعم البلاد إلى كثرة ذنوب العباد ، وعدم رضاء الإله عن هذه التصرفات [1] .

وإذا ترجمنا ذلك النص ، ونظرنا إليه نظرة فى ضوء العقيدة الإسلامية ، فيمكن لنا أن نقول ، إن الشرك بالله ظلم عظيم ، وإذا كان الحاكم والمحكوم ظالمين ، فيكفى ذلك لإهلاكهم مصداقا لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾ [2] .

فإذا كانت قرى العراق ظالمة أى مشركة ، فمن الطبيعى أن يصيبهم غضب الله وعقابه .

ويحكى لنا كتاب التاريخ أن المجتمع الأكدى قد سادته الكثير من المظالم ومنها التفرقة بين السامى والسومرى التى وصلت إلى حد إعطاء الأول حقوقا على حساب الآخر ، كما أن الحكام أسرفوا فى تأكيد سلطانهم الفردى بدليل ما آل إليه الوضع فى المجتمع الأكدى من أن حكام المدن دأبوا على تلقيب أنفسهم « بخدم الملك » أو « عبيده » ، كما أصبح الناس يطلقون على أبنائهم تسميات مثل شروكين . إلى ، إى ، « سرجون إلهى » [3] .

فى ظل هذه الظروف ساد جو من التزمر بين شعوب دويلات المدن التى تخضع لسيادة « أكد » فتمنت اليوم الذى يأتى للخلاص منها ومن حكامها ، وقد واتتها هذه الفرصة مع ضعف الدولة الأكدية التدريجى واتجاهها نحو الانهيار الذى لاحت بشائره فى ظل شاركالى شارى ومن تولى بعده من ملوك أكد ، حينما استقلت أوروك وحينما بدأ الجوتيون يتحركون فى اتجاه الأراضى الخصبة بالعراق ، فأذاقوا أهلها أسوأ أنواع العذاب الذى

---

(١) مصر والعراق ، ٤١٧ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ .
(٢) الحج : ٤٥ .
(٣) وذلك يعنى أن حكام العراق ادعوا الألوهية والربوبية كما فعل الفراعنة فى مصر ، الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ، ص ٤٢١ .

تصوره أحد النصوص وحوش الجبال الذين فتكوا بالناس وسلبوا النساء من أزواجهم والأطفال من أمهاتهم والذين أفسدوا الحكم وقضوا على سومر بعد أن حملوا كنوزهما معهم إلى الجبال ، وقد قام الجوتيون بالاتجاه جنوبا نحو دويلات سومر مزيحين من طريقهم كل من يعترضهم ، فحطموا قوة الأكدين ومن عاونهم ، وعندما اطمأنوا إلى عدم وجود أية مقاومة أو نية انفصالية عادوا إلى شمال العراق ليقيموا فيه تاركين الجنوب لأهله يؤدون الجزية وفروض الطاعة والولاء .

ولقد أطلق الجوتيون على أنفسهم لقب : ملك الجوتى وأركان العالم الأربعة وتأثروا بالثقافتين السومريه والأكدية .

ولقد حانت للمدن السومرية فرصة النهوض من كبوتها حينما ترك الجوتيون لهم الجنوب وأقاموا بشمال البلاد ، وذلك على مدار قرن من الزمان مما أعطى هذه المدن الفرصة لاستعادة نشاطها ، فشنت حملة ناجحة ضد الجوتيين فطردتهم وكسرت شوكتهم ، وقامت ببناء صرح عصر جديد عرف باسم عصر إحياء الدولة السومرية أو العصر السومرى الجديد ، كما تروى كتب التاريخ القديم .

obeikandl.com

الفصل الرابع

بعثة إبراهيم عليه السلام فى بلاد الرافدين

المبحث الأول

أحوال المجتمع السومرى

عصر قبيل ميلاد وبعثة إبراهيم عليه السلام [١]

إن المتتبع لأخبار السومريين بعد وفاة نوح عليه السلام وحتى قبيل بعثة إبراهيم عليه السلام يجد أن زاوية انحراف المجتمع قد ازدادت بعد أن بعد عهده برسالة نوح عليه السلام . وأبرز ملامح هذا الانحراف هو الشرك بالله عز وجل ، وعبادة الطاغوت ، وعدم الانضباط مع نظام الله وشرعه .

وقد أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح بقوله : « أخذ السومريون بتعدد الأرباب والربات ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أصحاب الديانات الوضعية القديمة » [٢] .

ومنها أيضا :

* الاهتمام بمعابد الأوثان ، وصناعة التماثيل لها [٣] ، وإقامتها في المعابد [٤] ، وإقامة الأعياد

---

(١) وهو يقابل نهاية عصر الدولة الأكدية ، وبداية عصر الإحياء السومرى بأرض دجلة والفرات العراق القديم .

(٢) مصر والعراق ، ص ٣٩٤ ــ ٣٩٨ . وهو يعتمد على ما كتبه :

S . N . KRAMER , Sumerian Mythology, 1944 , H . HOOKE , Babylonian and Assyrian Religion , 1923 .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

لها ، وهي صورة لما يجرى في جاهليتنا المعاصرة من صناعة التماثيل وإقامتها في الميادين والحدائق ، والاحتفال بها مثل ما يحدث عند تمثال الجندى المجهول ، وغيرها .

* وقف الكثير من ثروات المدن وأرضها للصرف على هذه المعابد [١] ، وكان يتصل بهذه المعابد عدد كبير من النساء يعملن كخادمات أو سرارى للآلهة أو لممثليهم الذين يقومون مقامهم [٢] على الأرض .

* التطاحن والتقاتل بين هذه المدن ، مثال ذلك ما حدث بين مدينتي أومّا ولجش [٣] .

* رفع الحكام إلى مرتبة الألوهية والربوبية [٤] ، والدليل أن بعضهم سمي أسماء « شولجي إيلي » : أى شولجي إلهي وشولجي باني : أى شولجي الخالق .

* اللجوء إلى السحر ، فالإنسان الذى يريد أن ينجو من عالم الرذيلة ، ويرجع إلى النطاق الذى تسوده الفضيلة فعليه أن يلجأ إلى السحر [٥] .

* عبادة إله القمر وسموه « ننار » وحامي أور ، وزوجته الربة ننجال [٦] .

* التعامل بالربا : « يدل على ذلك وثيقة قرض من عصر الأحياء السومرى يقول كاتبها : « ١٢٠ شقلا من الفضة ، أرباحها ٥ شواقل ، لكل ٦٠ منها شاقل ، اقترضها (فلان من فلان) على أن يسددها في شهر سيج ، وأقسم على ذلك باسم الملك » .

وهنا نلمح أيضا مظهرا من مظاهر الشرك ، وهو الحلف بغير الله » [٧] .

* المظالم التي كان يعاني منها المجتمع ، مثال ذلك : ما فرضه الكهنة من الضرائب على كل شيء بما في ذلك جز صوف الغنم ، وعلى طلاق الرجل لامرأته ، وعلى دفن الموتى : فأضيف استغلال الكهان إلى استغلال ضعاف النفوس من الحكام وموظفي القصر وكبار الموظفين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٩ .

(٢) ولم تكن الفتاة السومرية أو الأكدية ترى شيئا من العار لها على هذا النحو ، بل إن أباها كان يفخر بأن يهب جمالها ومفاتنها لتخفيف ما يعترى حياة الكهان من ملل وسآمة ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .

(٣) حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٣٠٣ .

(٤) مصر والعراق ، ص ٤٣٠

(٥) حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٣٠٣ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٤٣١ ، ص ٤٣٣ .

(٧) المرجع السابق ، ص ٤٣٢ ، وذلك من عصر الإحياء السومرى .

وجباة الضرائب ، بحيث قيل إن قصور الحاكم وضياعه ، وبيوت الحريم ومزارعهم ، أصبحت يتاخم بعضها بعضا ، ومن المحتمل أن نفوذ الكهنة قد تضخم حينذاك بحيث شاركوا الحكام أهميتهم ، إن لم يكونوا قد طغوا على نفوذهم فعلا .

وقد جاء ذلك نتيجة اغتصاب أرزاق العباد[١] .

* الدفن في مقابر على شاكلة المساكن أسفل سطح الأرض [٢] ، ودفن الحكام ومعهم أتباعهم من الجند والخدم والوصيفات والمومسات وسائقي العربات والثيران والحمير البرية التي تجر العربات .

ولكن رغم هذا الانحراف ، ظلت هنالك بعض العلامات البارزة التي تؤكد أصالة خط توحيد الله في حياة الأمة السومرية ومن أتى بعدهم ، وهي عبارة عن رواسب وبقايا آثار رسالة نوح عليه السلام ، والقرون العشرة التي كانت على الإسلام من قبله . مثال ذلك :

* « ما ذكر من أن فقهاء الديانة السومرية قد تخيلوا السماء والأرض في بداية أمرهما ملتصقتين ثم تم فصلهما » [٣] .

* « كما أنهم ردوا إلى ربّهم فضل ابتناء مدنهم وتنظيمها ووضع شرائعها » [٤] .

* « كما أنهم ذكروا في نصوصهم بأن الناس ما خلقوا إلا للعبادة » [٥] .

* « وأنهم قد خلقوا من طينة الأرض ، وأنهم يؤمنون بالآخرة » [٦] .

* « ذكر قصة خلق الإنسان من طين » [٧] .

ـــ المعلومات المدونة عن أحوال البلاد والإنسان في ذلك الزمن البعيد ، إذا حاولنا أن نستخلص منها بعض الحقائق ـــ وإن كان بعض كتاب التاريخ اعتبروها أساطير ـــ نجد

---

(١) مصر والعراق ، ص ٤٠٢ ـــ ٤٠٣ ، ذكرت النصوص السومرية ، أن زعيما مصلحا يدعى « أوركاجينا » حاول أن يصلح هذه الأوضاع المتردية ، وأعلن في أحدها كيف أقر ربه بأسه في قلوب ستة وثلاثين ألفا من رعاياه ، وكيف وفقه إلى أن يسير على هديه ، ويعيد حرية الأهلين الذين قاسوا المظالم .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٠ ، ٤١١ .

(٣) مصر والعراق ، ص ٣٩٥ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٩٦ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٨٧ .

(٦) حضارة مصر والشرق القديم ، ص ٣٠٢ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٣٩٧ .

أنها تتحدث عن بداية الخلق وتعتبره عصرا ذهبيا ، وأن هذا العصر « ما فيه خوف ولا فزع ، ولم يكن للإنسان منافس ، وأن بلاد شوبر وهمازى (في غرب إيران) وبلاد سومر كثيرة الخيرات ، البلد العظيم ، ذو النواميس المقدسة الخاصة بالإمارة ، وبلاد أورى (وسط بلاد النهرين وشمالها ؟) التي حوت كل طريف ، وبلاد مارثو (بوادى العراق والشام) كلها كانت آمنة مطمئنة ، وجميع الكون والناس في وحدة وألفة .... » .

وهذه هى سمات المجتمعات الإسلامية التى كانت بين آدم ونوح عليهما السلام .

الاستفتاءات والاستخارات التي كانوا يقومون بها عند الرغبة في القيام بأمر من الأمور [1] ، مثال ذلك ما ذكرته النصوص : أن أياناتم استفتى ربه في حربه ، وأنه زار معبده واستلقى فيه على وجهه (أى سجد) ، فتمثل له ووعده بنصره وتأييده [2] .

النصوص السومرية التي ترجع إلى الألف الثاني قبل الميلاد ، تحوى معلومات قريبة الشَّبَه بما ورد في المصادر الإسلامية بالنسبة لخلق الإنسان والحيوان والنبات وأخبار الطوفان . مثال ذلك :

« ما تخلف من قصة الطوفان السومرية ، يصور زمنا بعيدا خلق فيه البشر أصحاب الرؤوس السود ، والنباتات والحيوانات ، ونزلت فيه الملكية من السماء إلى الأرض ، وبدأ العمران فيه من خمس مدن أشرف الإله على إنشائها في مواضع طاهرة ، وسماها بأسمائها وهي : أريدو ، وبادتيبيرا ، ولاراد ، وسيبار ، وشوروباك .

ثم قضى الإله أن يغمر الفيضان الأراضى لأمور ... وأعلن قضاءه ... فدب الذعر في قلوبهم ... وكان أشدهم اهتماما به أنكى وملك صالح يدعى زيوسودرا .

وأراد أنكى أن يخبر زيوسودرا باليوم الموعود بطريق غير مباشر فأوحى إليه أن يقف بجوار جدار مقدّس ، وأن يستمع منه إلى صوته ، وأتاه الصوت قائلا : سوف ألقى إليك كلمتي ، فاستمع لأمري ، بقضائنا سوف (يكتسح) الفيضان مراكز العبادة ، ويقضي

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٩٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٠١ . وقد انتصر وخلد نصره على لوحة تعرف اصطلاحا باسم « لوحة العقبان » .

على سلالة البشر ... ذاك قرار محدد ... وقضاء .... » [1] ويبدو أنه قد نصحه ببناء سفينة ، وفي اليوم الموعود ، هبت الأعاصير هبة عنيفة ، وأطاحت بمراكز العبادة وصحبها فيضان كاسح ، واستمر ذلك سبعة أيام وسبع ليال ، اكتسح الفيضان الأرض فيها ، ودفع السفينة قدما .

وبعد مدة ما ظهرت الشمس فأنارت السماء والأرض ، وفتح زيوسودرا فتحة في جدار سفينته ، وتطلع منها فرأى أشعة الشمس ، وعلم بصفح ربه .

وظهرت الخضرة على الأرض من جديد ونما النبات ، ووهب الرب الأكبر زيوسودرا حياة طيبة ، فعاش في أرض دلمون ، وكان سببا في المحافظة على النبات وعلى سلالة البشر .

الربط بين التشريعات ، وبين اختيار الآلهة وإرادتهم أو إيحاءاتهم ، كان مقصودا لكفالة احترام بنودها وخلع الشرعية عليها .

مثال ذلك : القوانين التي أصدرها أورنمو ، وفيها نلمح : سعيه إلى ضبط الأوزان والمكاييل وتوحيدها ، ورغبة في تخليص المواطنين ممن يستغلون ماشيتهم ، ومحاولة بمنع وقوع اليتيم فريسة للثرى ، ووقوع الأرملة ضحية للقوى ، واستن قانون دفع الديات على الروح ، ونص على من اقتحم حقلا مزروعا فأفسده فعليه أن يعوض صاحبه بقيمة ما أفسده [2] ، وذلك يعني أنه لم يكن يجرؤ حاكم على ادعاء حق التشريع ، بمعنى أن يصدر قانونا ويقول أنه من وضعه لأنه يعلم أن التشريع حق الخالق سبحانه وتعالى .

بل حَرِصَ الحكام ـــ رغم ادعائهم الربوبية ، أن يثبتوا رعاية رب السماء لهم مثل الملك شولوجي ملك أور في عهد الأحياء السومرى حيث ترك نصا يقول : « أنا الملك ... أحب الخير وأقصي الشر وأمقت ألفاظ العداوة ، أنا شولجي الملك المقتدر ، ... شولجي الذى رعاه رب السماء » [3] .

---

(١) مصر والعراق ، ص ٤٣٥ ، لقد أوردنا ما ذكره الدكتور صالح ، مع إغفال بعض الألفاظ التي تعكس فكرا شركيا من قبل الترجمة للنص التي قدمها كرامر .

(٢) مصر والعراق ، ص ٤٢٩ .

(٣) مصر والعراق ، ص ٤٢٠ ـــ ٤٣١ .

ومن العلامات البارزة التى تؤكد أصالة التوحيد فى حياة الأمة العفو عن اللحى[1] .

في ظل هذه الأوضاع ولد إبراهيم عليه السلام .

(١) مصر والعراق ، ص ٤٣٤ .

obeikandl.com

المبحث الثانى

ميلاد إبراهيم عليه السلام وعصر إحياء الدولة السومرية

(٢١٢٥ ق . م)

ويقترن هذا العصر بحدث ضخم فى حياة أهل الرافدين ، وهذا الحدث هو ميلاد إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠ ق . م ؟؟) ببابل من أرض السواد كما ذكر الإمام الطبري [١] والإمام الحافظ ابن كثير [٢] .

ويقترن أيضا بدعوة إبراهيم عليه السلام أهل الرافدين إلى الإسلام ، وتعرضه للابتلاء حينما ألقوا به في النار ، ولكن الله نجاه : ﴿ **قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ [٣] .

وفى أعقاب هذه الحادثة هاجر إبراهيم عليه السلام ومن معه إلى أرض الشام (حوالى ١٨٥٠ ق . م حسب تقديرات المؤرخين المحدثين) ، وسلط على بلاد الرافدين شعبان هما شعب العيلاميين وشعب الأموريين ، فجاسوا خلال الديار ودّمروا وقتلوا ، وهذا جزاء من جنس العمل . لقد آذوا إبراهيم عليه السلام ومن معه من المسلمين وحاولوا قتله ، فسلط الله عليهم من قتلهم ؛ لقد أخرجوا إبراهيم عليه السلام من أرضه ووطنه فسلط الله عليهم من أخرجهم من ديارهم[٤] .

فى هذا العصر ، كما يقول كتاب التاريخ القديم ، أتيحت الفرصة لظهور أسرات جديدة أخذ كل منها على عاتقه النهوض بدويلات المدن السومرية ، وسنعرض هنا لدور كل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٣ . (٢) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٤٠ ؛ مصر والعراق ، ص ٤٢٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٤ والآية من الأنبياء : ٦٩ ــ ٧٠ . (٤) انظر تفصيل بعثة إبراهيم عليه السلام .

من لجش وأوروك وأور [1] .

لجش : من أهم ملوكها الملك جوديا الذى استطاع أن يحقق الخير الكثير لبلاده ، وأن يحقق العدل بين الناس فى فترة حكمه التى بلغت ثلاثين عاما [2] .

أوروك : وقع على أكتافها عبء النضال ضد الجوتيين بعد أن وحدت المدن السومرية بزعامتها ، وخاضت ضد الجوتيين معركة هزمتهم فيها ، ولكن سرعان ما تفتتت وحدة هذه المدن بسبب أطماع حكامها فى الزعامة التى انتقلت إلى مدينة أور المعاصرة [3] .

أور : يقول المؤرخون أنه قد ظهر فى أور شخصية قوية هى أورنامو فى القرن الحادى والعشرين ق . م وقد استطاع هذا الرجل أن يمد نفوذ بلده إلى ما وراء حدودها ، فضم إليه عددا من المدن السومرية والأكدية واستطاع فى النهاية أن يعلن نفسه ملكا على معظم دول السومر كلها ، ويعرفه التاريخ كمؤسس لأسرة أور الثانية [4] .

وقد قام بإصلاحات داخلية كثيرة فى بعض المدن مثل أريد وأوما ولارسا وغيرهما . فأعاد حفر شبكة القنوات التى كانت تتحكم فى شئون الرى ، وجاء من بعده أربعة ساروا على غرار من سبقهم من ملوك أور ، ولقد اتبع هؤلاء الحكام تقليدا يقضى بتعيين حكام محليين لكل مدينة ، ومتابعة الأشراف على الموظفين ، ومزيدا من المركزية فى الحكم .

---

(١) مصر والعراق ، ص ٤٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٤ ــ ٤٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٥٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٢٨ .

المبحث الثالث

بعثة إبراهيم عليه السلام

« عصر دولة أور الثالثة » أو الإحياء السومرى

من هو إبراهيم عليه السلام ؟ وإلى من ينتسب ؟ وأين ولد ونشأ وترعرع ؟ ومتى ؟ وأين بعث ؟ وما هو الدين الذى دعا إليه ؟ وكيف كانت أحوال تلك البلاد التي بعث فيها من الناحية العقدية والفكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ؟ وما هو موقفها من دعوته إلى الإسلام ؟ وما هى البلاد التي هاجر إليها ؟ وما هو الدور الذى أداه ذلك النبي الكريم في كل منها ؟ وما مدى التمكين الذى تحقق له في أرض الله ؟ وهل يمكن تحديد زمن النبي الكريم وقومه ؟ وما هي المعالم التي ترسيها أخبار هذا النبي الكريم والأمم التي بعث فيها أو هاجر إليها في حياة الأمة المسلمة ؟

الإجابـــة :

يقول الله عز وجل : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾[1] .

يقول الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى : « لأنهم كانوا أهل الإسلام »[2] .

وقال تعالى : ﴿ **يأهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون** ﴾[3] . وقال أيضا : ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** ﴾[4] .

(١ ، ٢) آل عمران : ٣٣ ، ٣٤ ، جامع البيان ، جـ ٣ ، ص ١٣٤ .

(٣) آل عمران : ٦٥ ، المصدر السابق ، ص ٣٠٤ ــ ٣٠٦.

(٤) آل عمران : ٦٧ ، المصدر السابق ، ص ٣٠٦ ــ ٣١٠ .

وإبراهيم عليه السلام رسول من أولي العزم ، ولد على أرض الرافدين « ببابل »[1] في زمن لا يعلمه إلا الله عز وجل[2] .

وقد ألهمه الله الحق والحجة في صغره : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين** ﴾[3] .

وسيرة هذا النبي تعتبر نبراسا يضيء الطريق أمام هؤلاء الذين تصيبهم الحيرة وهم يرون الكفر مستشريا في جنبات المجتمع ، أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم يرونه في المجتمع الذى لا يحكم بما أنزل الله ، يرونه في الحاكم الذى يدعي لنفسه حق وضع النظام والقانون الذى تسير عليه الأمة ، والذى يوظف الناس في مصلحته ، يرونه في الحاكم الظالم الذى لا يرقب في الناس إلًّا ولا ذمة ، يرونه في الحاكم الذى يوالي أعداء الله ، ويعادى أولياء الله ، يرونه في الحاكم وأعوانه الذين يحاربون الإسلام وجنده ، يرونه في كل شيء ، في دور العلم المفروض في حقها أن تعلم الناس كيف يكونوا عبيدا لله عز وجل ، فإذا هي تعلمهم كيفية المروق من دين الله ، يرونه في الشارع الذى لا يحترم الفضيلة ويقدس الرذيلة ، ويرونه في الإذاعة المرئية والمسموعة التي تزين الفاحشة وتزين الجريمة ، يرونه في المنزل الذى يحول بين الشاب أو الفتاة وبين العودة إلى دين الله .

في مثل هذه البيئة ، وفي مثل هذا المجتمع ، ولد إبراهيم عليه السلام ، ولد في بلد ، بداية بالحاكم ونهاية بأفراد الأمة ، يكفرون بالله عز وجل ، ويدعي الحاكم لنفسه حق من حقوق الألوهية .

ـ ﴿ **ألم تر إلى الذى حآج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ..** ﴾[4] .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ١ ، ص ١٣٩ ، وقد أورد الإمام الطبرى أقوالا : « وكان مولده بالوركاء بناحية الزوابي وحدود كَسْكَر » . (تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١ ، ط ٤ ، دار المعارف ، ص ٢٣٣) .

(٢) وضع كتاب التاريخ المحدثين تاريخا تقريبيا هو القرن التاسع عشر قبل ميلاد المسيح . وإن كان معرفة التاريخ وعدمه ، لا يقدم أو يؤخر في تحقيق الهدف الرباني الذى من أجله أورد الله سيرة هذا النبي الكريم ، ولو كان قد سبق في علم الله عز وجل أن الناس يحتاجون لهذه المسألة لأخبر بها . وعدم ذكر الموطن وعدم ذكر التاريخ تجعل أحداث السيرة معلما بارزا تجعل أصحابها أسوة للدعاة إلى دين الله في كل مكان وزمان .

(٣) الأنبياء : ٥١ .

(٤) البقرة : ٢٥٨ .

حوار بين إبراهيم والملك الذى عاش في عصره ، يجادله في الله .

ـــ « إن هذا الملك الذى حآج إبراهيم لم يكن منكرا لله أصلا إنما منكرا لوحدانية الله وتدبيره الأمر بنفسه لشؤون الكون وحده » .

ـــ « إن هذا الملك المتعنت ينكر ذلك للسبب الذى كان ينبغى من أجله أن يؤمن ويشكر ، هذا السبب : ﴿ **أن آتاه الله الملك** ﴾ . لقد جعل الله في يده السلطان ، كان ينبغي أن يشكر ويعترف ، لولا أن المُلْكَ يطغي ويبطر من لا يقدرون نعمة الله ، ولا يدركون مصدر الإنعام ، ومن ثم يضيعون الكفر موضع الشكر . ويضلون بالسبب الذى كان ينبغي أن يكونوا مهتدين . فهم « حاكمون » لأن الله « حكَّمهم » وهو لم يخولهم استعباد الناس بقسرهم على قوانين وأنظمة من عندهم ، فهم كغيرهم من الناس عبيد لله ، يتلقون مثلهم الشريعة من الله ولا يستقلون دونه بحكم ولا تشريع فهم خلفاء لا أصلاء » .

ـــ ﴿ **قال إبراهيم ربي الذى يحيي ويميت** ﴾ .

ـــ والإحياء والإماتة ظاهرتان مكرورتان في كل لحظة معروضتان لحسّ الإنسان وعقله ، **وهما سر محير** يلجئ **الإدراك البشرى إلى مصدر آخر غير بشرى** ، وإلى أمر آخر غير أمر المخاليق . ولابد من الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز » .

« نحن لا نعرف حقيقة الحياة وحقيقة الموت ، ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي نعرفها على الإطلاق ، وهي قوة الله » .

ـــ « ومن ثم عرف إبراهيم ربَّه بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد ، ولا يمكن أن يزعمها أحد ، وهي القدرة على الخلق والإحياء والإماتة » .

ـــ « عرف إبراهيم ربه بهذه الصفة ، لأن هذا المَلِك يسأله عمن يدين له بالربوبية ، ويراه مصدر الحكم والتشريع : فهو الذى يحيي ويميت ومن ثم هو الذى يشرع ، لأن الذى يخلق هو الذى يأمر : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ » .

ـــ « وكان إبراهيم يعني بالإحياء والإماتة تلك السنة الكونية الخاصة بمنشيء هاتين الحقيقتين . فهما من عمل الرب المتفرد الذى لا يشاركه فيه أحد من خلقه » .

ـــ « ولكن الذى حاج إبراهيم رأى في كونه حاكما لقومه قادرا على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهرا من مظاهر الربوبية ، فقال لإبراهيم : أنا إذن الرب الذى يجب عليك أن

تخضع وتسلم بحاكميته : ﴿ **قال : أنا أحيي وأميت** ﴾ »[1] .

ـــ « عند ذلك لم يرد إبراهيم عليه السلام أن يسترسل في جدل حول نفي الإحياء والإماتة مع رجل يمارى في تلك الحقيقة الهائلة ، حقيقة منح الحياة وسلبها » .

ـــ « وعندئذ عدل عن هذه السنة الكونية الخفية ، إلى سنة كونية أخرى ظاهرة ، وعدل عن طريق العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية في قوله ﴿ **ربي الذى يحيي ويميت** ﴾ إلى طريق التحدى ، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله ، ليريه أن الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض ، إنما هو مصرف هذا الكون كله ، ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم » .

ـــ قال : ﴿ **إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ .

ـــ « وهي حقيقة كونية كذلك تطالع الأنظار ولا تتأخر ، وهي شاهد يخاطب الفطرة حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئا عن تركيب هذا الكون ، ولم يتعلم شيئا عن حقائق الفلك ونظرياته ، والرسالات تخاطب فطرة الكائن البشرى في أية مرحلة من الموضع الذى هو فيه ، ومن ثم كان هذا التحدى الذى يخاطب الفطرة كما يتحدث بلسان الواقع » .

ـــ ﴿ **فبهت الذى كفر** ﴾ .

فالتحدى قائم ، والأمر ظاهر ، ولا سبيل إلى سوء الفهم .

ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذى كفر فيبهت ويبلس ويتحير ، ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية ولم يرغب في الحق :

﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ .

ـــ « ويمضى هذا الجدل الذى عرضه الله على نبيه ﷺ وعلى الجماعة المسلمة ، مثلا للضلال والعناد وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد في مواجهة المنكرين ، وفي ترويض النفوس على مواجهة تعنت المنكرين .

ـــ « حقائق تؤلف التصور الإيماني الناصع :

﴿ **ربي الذي يحيي ويميت** ﴾ .

---

(١) هذه الفقرات منتقاة من صفحات ٢٩٧ إلى ٣٠٢ في ظلال القرآن .

﴿ **فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ ؛ حقيقة في الأنفس موت وحياة ، وحقيقة في الآفاق خروج الشمس من المشرق وغروبها في المغرب .

حقيقتان لا تحتاجان إلى علم غزير ولا تفكير طويل . فالله يكل عباده في مسألة الإيمان به والاهتداء إليه إلى التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع والتي تفرض نفسها فرضا على الفطرة ، فلا يحيد الإنسان عن إيحائها الملجىء إلا بعسر ومشقة ومحاولة ، وتعنت وعناد .

« والشأن في الاعتقاد كالشأن في كل أمر حيوى تتوقف عليه حياة الكائن البشرى ، والكائن الحي يبحث عن الطعام والشراب والهواء ، كما يبحث عن التناسل والتكاثر ، يبحث فطريا عن الإيمان ولا يترك الأمر في هذه الحيويات حتى يكمل التفكير وينضج ، أو حتى ينمو العلم ويغزر ... وإلا تعرضت حياة الكائن الحي إلى الدمار والبوار ... والإيمان حيوى للبشر حيوية الطعام والشراب والهواء ، ومن ثم يكله الله فيه إلى الفطرة والتفكير في آياته المبثوثة في صفحات الكون كله ، في الأنفس والآفاق »[1] .

ـ ﴿ **ألم تر إلى الذى حآج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر** ﴾[2] .

إذن لقد ولد إبراهيم في مجتمع وصل به فساد التصور إلى عبادة أصنام[3] من نحت

---

(١) ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾ (آية ٢٦٠ سورة البقرة) .

« إنَّه الشوق الذى اختلج في نفس إبراهيم لرؤية أسرار الصنعة الإلهية ، إنَّه شوق لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره ، وليس طلبا للبرهان أو تقوية للإيمان ... إنما هو أمر آخر ... إنه أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهى في أثناء وقوعه العملي » .

وقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم ومنحه التجربة الذاتية المباشرة .

ورأى إبراهيم السر الإلهى يقع بين يديه ، وهو السر الذى يقع فى كل لحظة ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه ، إنه سر هبة الحياة ، الحياة التى جاءت أول مرة بعد أن لم تكن (الظلال) .

(٢) البقرة : ٢٥٨ .

(٣) وهي من رؤوس الطواغيت ، تماما كما يحدث في عالمنا المعاصر .

يده .. ولد إبراهيم في مجتمع كان يرى الخير في عبادات الآباء والأجداد رغم مروقها عن دين الله عز وجل ... ولد في مجتمع يتداعى إلى الوقوف في وجه الدعوة إلى دين الله عز وجل .. بل إنه ولد من أب يصنّع الأصنام ويبيعها للناس .

ـــ ماذا فعل إبراهيم ؟ وهو يرسم بذلك الطريق ، لمن يعيشون مثل ظروفه ، هل تراخى وقال : لا شأن لي بما يحدث ؟ حسبي أن أعرف ربي وأعبده في نفسي ؟؟ هل قال : كيف أستطيع بمفردى أن أقف في وجه مجتمع يملك كل مقومات القوة المادية ويسخرها في الصدِّ عن سبيل الله ؟ هل جبن ، هل خاف ؟ على العكس من ذلك ....

لقد انطلق يدعو إلى الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله وإفراده وحده بالعبادة : ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** [1] . **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ [2] .

فضلال الآباء ، وعاداتهم وتقاليدهم المجانبة لشرع الله ، أعز عليهم من إسلامهم وربهم .

فانطلق إبراهيم عليه السلام ـــ وهو فتى ـــ يبين لهم فساد معتقدهم ومعتقد آبائهم : ﴿ **لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين** ﴾[3] .

وهنا استنكر القوم قوله : ﴿ **قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** ﴾[4] . فرد عليهم إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ يبين لهم أن الذى يستحق العبادة هو الله الذى لا إله غيره الذى خلق السموات والأرض : ﴿ **قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين** ﴾[5] . أى وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

ثم أقسم الخليل قسما أسمعه بعض قومه ليحرصن على أذى أصنامهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا**

---

(١) الأنبياء : ٥٢ ، أى معتكفون على عبادتها ، ومر علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج فقال ﴿ **ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** ﴾ لأن يمس أحدكم جمرا حتى يطفأ خير له أن يمسها . (رواه ابن أبي حاتم ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٢) .

(٢) الأنبياء : ٥٣ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٢ .

(٣) الأنبياء : ٥٤ .

(٤) الأنبياء : ٥٥ .

(٥) الأنبياء : ٥٦ .

إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾ ، أى كسرها كلها إلا كبيرا لهم ، يعني : إلا الصنم الكبير عندهم كما قال : ﴿ **فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم ، لعلهم إليه يرجعون** ﴾ (١) ذكروا أنه وضع القدُوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غار لنفسه وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها .

وكانت هذه وسيلة من إبراهيم لكي يبين لهم أن الإلٰه الذى لا يدفع عن نفسه ضرراً ، ولا يملك لنفسه نفعاً ، لا يمكن أن يضر غيره أو ينفعه ، وبالتالي فهو ليس مستحقاً للعبادة ، لأن الذى يعبد هو الذى يخلق وينفع ويضر وهو الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ : ﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾ (٢) .

وحينما شاهد القوم ما فعل بمعبوداتهم ، أصابهم الهلع والفزع ، وثاروا ، واندفعوا تماماً كما يحدث في عالمنا المعاصر ، إذا ما تعرضت معبودات الناس والأشياء التى يؤلهونها للخطر أو الجراح ... وإذا ما أريد تطبيق شرع الله ، ثاروا وغضبوا ، وإذا ما أريد منع الخمر ، ثاروا وغضبوا ، وإذا ما أريد ستر المرأة ، ثاروا وغضبوا ، وإذا ما أريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثاروا وغضبوا .. يغضبون لنزواتهم وشهواتهم وأهوائهم ، ولكن لا يغضبون من أجل دينهم .

﴿ **قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾ (٣) سبحان الله ، الذى يحطم قطعة من الحجر ظالم ، الذى يهاجم الآلهة المدعاة من دون الله ظالم ، الذى يهاجم ضياع أوقات الأمة التي يجب أن تصرف إلى الجهاد فيما لا يفيد مثلاً ظالم ، الذى يهاجم برامج الإذاعة المرئية والمسموعة الفاسدة ظالم ، الذى يهاجم التفسخ والانحلال والعرى ظالم ، الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ظالم ، الذى يطالب بتطبيق شريعة الله ظالم ، الذى يطالب بمحاكمة المرتشين والخونة ظالم ، الذى يطالب بعودة الإسلام كعقيدة وشريعة ونظام في حياة الأمة ظالم ومتمرد : ﴿ **إنه لمن الظالمين** ﴾ .

ونشطت أجهزة التجسس على الأمم ، تتحسس وتتلصص ، تماماً كما يحدث في عالمنا المعاصر ، ووصلت إلى نتيجة : ﴿ **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ (٤) ، أى سمعنا فتى يحلف أنه « ليكيدنهم » ، ﴿ **قالوا فأتوا به على أعين الناس** ﴾ (٥) ، أى

---

(١) الأنبياء : ٥٨ .
(٢) الأعراف : ٥٤ .
(٣) الأنبياء : ٥٩ .
(٤) الأنبياء : ٦٠ .
(٥) الأنبياء : ٦١ .

اقبضوا عليه ، وضعوه في السجن على رؤوس الأشهاد ، الذى يحضره الناس كلهم ، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم ـــ عليه السلام ـــ أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقولهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً ، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟

وهذا هو دور الدعاة الآن وفي كل زمان أن يبينوا للناس فساد معبوداتهم ، وقلة حيلتهم ، وأنهم لا تغرنهم قوة الطواغيت الظاهرة وما تملك من مقومات القوة الظاهرة ، سواء أكانت قوات ومعدات عسكرية أو غيرها ، وما يعمل في خدمتهم من أجهزة الإعلام والدجل ، تجعل الباطل حقاً والحق باطلاً ، على الدعاة أن يبينوا للناس أن الطاغوت في قبضة الله ، وهو حي ، وهو في قبضة الله ، وهو ميت ، وهو في قبضة الله يوم يبعث ، فلا يخافوه ولا يخشوه ، على الدعاة أن يبينوا للناس كثرة جهلهم وقلة عقلهم في تعبيد أنفسهم لعباد أمثالهم ، وفي تعبيد أنفسهم لشهواتهم ورذائلهم ، وفي نكوصهم عن دينهم .

﴿ **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ (١) .

وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد (٢) : ﴿ **فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم**

---

(١) الأنبياء : ٦٢ ـــ ٦٣ .

(٢) وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : ثنتين في ذات الله في قوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ وقوله : ﴿ **إني سقيم** ﴾ قال : وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه « سارة » إذ نزل منزلا فأتى الجبار رجل فقال : إنَّه قد نزل هنا رجل بأرضك معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل إليه ، فجاء فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختي . قال : فاذهب فأرسل بها إليّ . فانطلق إلى سارة فقال : إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي ، فلاتكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ، ثم قام يصلي . فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها ، فأخذ أخذا شديدا ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأولين فقال : ادعي الله لي فلا أضرك . فدعت له فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنك لم تأتني بإنسان ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجر . فأخرجت وأعطيت هاجر ، فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال لها : مهيم ، قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر ، وأخدمني هاجر » . قال محمد بن سيرين : فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : « تلك أمكم يابني ماء السماء » ، (تفسير القرآن ، جـ ٣ ، صـ ١٨٣ ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ١ ص ٢٤٥ ـــ ٢٤٦) . .

الظالمون ﴾[1] ، ﴿ **ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾[2] **فكيف** تقول لنا : سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لا تنطق . **فعندها قال لهم إبراهيم لما** اعترفوا بذلك : ﴿ **أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم** ﴾[3] أى إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر فلم تعبدونها من دون الله : ﴿ **أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾[4] أى أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر .

وهذا دليل على أن عدم العقل وعدم الفهم هو سمت كل شخص يكفر بالله سبحانه وتعالى ، ولهذا يقول الكافرون يوم القيامة : ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير** ﴾[5] .

ما هو موقف أهل الجاهلية ؟ بعد أن قامت عليهم الحجة ، وبان فساد عقيدتهم وتصورهم ، هل استجابوا ؟ هل عادوا إلى ربهم ؟ على العكس لقد أخذتهم العزة بالإثم ، وتداعوا إلى قتل صاحب الدعوة حرقاً : ﴿ **قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** ﴾ .

ـــ بالرغم من أن إبراهيم انتزع منهم شهادة بأنهم هم الظالمون . فإن ذلك لم يمنعهم من إثارة الرأى العام ضده ، وهو من ؟ ؟ هو صاحب الحق الواضح البين ، وهم من ؟ إنهم هم الظالمون .

لكن الجاهلية في كل مكان وزمان هي هي تجعل من الصادق كاذباً ، وتحيل المظلوم ظالماً ، وتكيل الاتهامات إلى صاحب الحق . ثم تحكم على البرىء بالإعدام :

﴿ **حرقوه وانصروا آلهتكم** ﴾ .

يحرقون الحق ، وينصرون الباطل .. وهذه هي معايير الجاهلية في كل زمان ومكان تجعل الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، وتلبس هذا الباطل من الشعارات الزائفة البراقة التي تخطف أنظار العامة : ﴿ **حرقوه وانصروا آلهتكم** ﴾ .

مجرد تكسير الآلهة المدعاة ، جريمة ، تكسير الحجر جريمة ، **تستوجب القتل حرقاً**

---

(١) الأنبياء : ٦٤ .
(٢) الأنبياء : ٦٥ .
(٣) الأنبياء : ٦٦ .
(٤) الأنبياء : ٦٧ .
(٥) الملك : ١٠ .

في عرف الجاهلية .... أما قتل الناس وحرمانهم من الإيمان بالله ـــ سبحانه وتعالى فليست جريمة ، أما حض الناس على المروق من إسلامهم فليس جريمة ، أما صد الناس عن دين الله فليس جريمة ، أما تزيين الفاحشة فليس جريمة ، أما تصنيع الخمر وإباحة الحصول عليها فليس جريمة ، أما منع المرأة من أن تحتجب ، وحضها على العرى والتفسخ والانحلال فليس جريمة ، أما تربية النشء على الإلحاد والحيلولة بينه وبين الإسلام فليس جريمة ، أما منع المساجد أن يذكر فيها اسم الله فليست جريمة ، أما كبت الحريات وفرض الأحكام الاستثنائية فليست جريمة ... كل ذلك لا يشكل جريمة في عرف الجاهلية .

ومن هنا كان تداعي الجاهلية : ﴿ **قالوا : حرقوه وانصروا آلهتكم** ﴾[1] .

لقد تصور هؤلاء الفسقة المجرمون المارقون من دين الله عز وجل ، أنهم بقتلهم لهذا النبي المسلم إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ سوف يقضون على دين الله ، وسوف يئدون الدعوة في مهدها ، وهذا من باب العمى والطمس على القلوب .

لقد تصوروا ـــ وهذا من باب الغفلة ـــ أن الله سوف يسلمهم نبيه ومصطفاه ليقتلوه ، ونسوا قول الله في الحديث القدسي : « من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب »[2] .

لقد أعدت الجاهلية العدة لقتل إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ فجمعت حطباً كثيراً جداً ، حتى أن المرأة كانت تمرض فتنذر[3] إن عوفيت أن تحمل حطبا لحريق إبراهيم ، ثم جعلوه في جوفة من الأرض وأضرموها ، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها ، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل ، فلما ألقوه قال : حسبي الله ونعم الوكيل كما رواه البخاري عن ابن عباس[4] رضي الله عنه أنه قال : « حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد عليه السلام حين قالوا : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ »[5] .

---

(١) الأنبياء : ٦٨ .
(٢) رواه البخارى .
(٣) بل إن الوزغ كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام ، ولذا فقد أمرنا رسول الله محمد ﷺ بقتله (تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٤ .
(٤) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٣ ـــ ١٨٤ .
(٥) أورد الحافظ ابن كثير خبرا بأن عمر إبراهيم عليه السلام حينذاك كان ست عشرة سنة ، فالله أعلم . (المصدر السابق ، ص ١٨٤) .

وهنا صدر الأمر الرباني :

﴿ **قلنا : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾[1] . وهكذا حفظ الله نبيه ومصطفاه ، وحفظ دعوته ... فماذا كان مصير المكذبين الكافرين ، الذين أرادوا وأد الدعوة وصاحبها ، لقد دمر الله عليهم ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ أى المغلوبين الأسفلين .

إن الخسارة كانت كبيرة ، قد دفعتها أمة بأكملها جزاء شركها بالله عز وجل وجزاء وقوفها موقف المتفرج أو المعادى وهى ترى دين الله يذبح وهى لا تحرك ساكناً وهذا هو مصير كل أمة تنكل عن حمل دين الله ، والاستسلام لله رب العالمين .

هذا مثال نسوقه إلى تلك الأمم التي مرقت من دين الله ، وحادَّت الله بالمعصية ، وشاقَّت الله ورسوله ، وطاردت الإسلام وأهله ، ووضعتهم في السجون والمعتقلات ، وحرمتهم من ممارسة حياة إسلامية كما يريدها لهم الله رب العالمين . هذه هي النتيجة ، إنها الخسارة ، إنه التدمير الذى لا ريب فيه : ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾[2] .

ما هو مصير إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ والمسلمين معه ؟ يقول الله عز وجل : ﴿ **ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين** ﴾[3] . لقد سلمه الله من نار قومه ، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام ، إلى الأرض المقدسة . قال قتادة : « كان بالعراق فأنجاه الله إلى الشام »[4] .

لقد أبدله الله داراً خيراً من داره ، وأهلاً خيراً من أهله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ (أى ولد الولد) ﴿ **وكلاً جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين . ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء**

---

(١) الأنبياء : ٦٩ .

(٢) الأنعام : ٤٥ .

(٣) الأنبياء : ٧١ .

(٤) « وكان يقال للشام أعفار دار الهجرة وما نقص من الأرض زيد في الشام ، ومانقص من الشام زيد في فلسطين . وكان يقال هي أرض المحشر والمنشر ، وبها ينزل عيسى عليه السلام ، وبها يهلك المسيخ الدجال » . (تفسير القرآن العظيم . ج ٣ ، ص ١٨٥) .

فاسقين . وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴾ (١).

إبراهيم عليه السلام فى سورة الأنعام (٢) :

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربِّي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذى فطر السمٰوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجُّوني في الله وقد هدانِ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ .

يقول الإمام الحافظ ابن كثير :

« وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لاتصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة تطلع تارة وتأفل تارة أخرى ، فتغيب عن هذا العالم والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم بلا زوال لا إلٰه إلا هو ولا رب سواه . فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب ، ثم ترقى منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى من حسنها ، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين لهم أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة » (٣) .

ويستمر إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في دعوة قومه إلى الإسلام ـــ وهو يرسم الطريق لأصحاب الدعوات ـــ فهو يحاج قومه ، وأثناء المحاجة يعرض لقضية الإيمان بالله ، فيعرض لصفات ذلك الإلٰه العظيم المستحق للعبادة ، فهو فاطر السمٰوات والأرض : ﴿ إني

---

(١) الأنبياء ٧٢ ـــ ٧٥ .

(٢) آية : ٧٥ ـــ ٨٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ص ١٤٩ ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٤٢ ـــ ١٤٣ .

وجهت وجهي للذى فطر السمٰوات والأرض ﴾ . وأن الذى يستحق العبادة هو الله الهادى : ﴿ **قال أتحاجوني في الله وقد هدانِ** ﴾ ، والذى يستحق العبادة هو الذى يُخشى : يحاسب ويعاقب ؛ ويعرض أيضاً النتيجة التي تترتب على الإيمان بالله ،والتي تترتب على أن يصبح الإنسان مسلماً مؤمناً : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولٰئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ ويعرض أيضاً إلى أن توفيق الداعية إلى الله في دعوته ، هبة ومنحة من الله ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه** ﴾ .

وهنا تبدو جملة من المعالم البارزة ، يرسيها الله سبحانه وتعالى وهو يعرض جوانب من سيرة نبى آمن بالله سبحانه وتعالى وكفر بالطاغوت وانطلق يدعو إلى الله على بصيرة :

فإبراهيم عليه السلام عنده يقين بأن الطاغوت ، ومثاله الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ... إلى آخر ما أورده ابن كثير ، لكي يبين لنا المسائل الإيمانية التي يجب أن تغرس في قلب الإنسان ليصبح مؤمناً .

ووجهة المسلم هو الله الذى خلق السموات والأرض : ﴿ **إني وجهت وجهي للذى فطر السمٰوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين** ﴾ ، أما غير المسلم فتتعدد وجهاته .

إن ورود سورة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في السور المكية تعنى الكثير :

تعني أن إبراهيم الذى قال عنه رب العزة أنه كان أمة ، وأنه كان أسوة حسنة يجب أن تترسم الأمة المسلمة خطاه ، وتطبق نهجه لكي تنال رضاء الله أولاً ... ولكى يتم تكوين الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والمجتمع المسلم ، والأمة المسلمة .

كل ذلك يصبح كائناً واقعياً إذا طبق نهج إبراهيم عليه السلام ﴿ **أولٰئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ .

لقد بدأ إبراهيم بتربية نفسه ... وإخضاعها لله الواحد القهار ... ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين** ﴾[1] .

---

(١) النحل : ١٢٠ .

﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين** ﴾[1] .

لم يكن من المشركين بالرغم من شرك قومه ، ولم يكن من الكافرين بالرغم من كفر أبيه وضغوطه عليه : ﴿ **لئن لم تنته لأرجمنك** ... ﴾[2] لئن لم تنته يا إبراهيم عن عبادة الله لأقتلنك .

لم يكن من المشركين بالرغم من ضغوط المجتمع ﴿ **إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾[3] .

من الواضح هنا أنه خاصم المجتمع كله ، وفضل أن يعتزله بالرغم من صعوبة ذلك على نفسه .... لأن المجتمع كفر بالله ...

وهنا يعطي إبراهيم درساً للأسر وللمجتمعات أن : الولاء والمحبة تكون مشروطة بشروط الإيمان بالله ، والمحبة في الله ...

بغير هذا تنقطع الصلة ، وتُعلن العداوة والبغضاء .

لابد من دعوة العشيرة والأقربين : ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان** ﴾[4] ....

الدعوة بالحكمة والموعظة ... وإقامة الحجة والدليل : ، ﴿ **يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر** ﴾[5] .

إذا تبين للداعية أن المدعو مصر على العداوة لله والكفر به ، هنا تنقطع كل الأواصر ... حتى لو كانت هي أواصر الرحم ، وتبقى أواصر العقيدة فقط هي التي تقرب هذا وتبعد هذا حتى ولو كان الأب .

إبراهيم وسط المجتمع الكافر ، ودوره لم يقتصر على الدعوة إلى الله ومحاولة تغيير المنكر باللسان : ﴿ **سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ .. ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم** ﴾ .

إنما تعداه إلى محاولة التغيير باليد : ﴿ **فراغ عليهم ضربا باليمين** ﴾[6] ، فسألوا :

---

(١) البقرة : ١٣١ .
(٢) مريم : ٤٦ .
(٣) الممتحنة : ٤ .
(٤) مريم : ٤٤ .
(٥) مريم : ٤٢ .
(٦) الصافات : ٩٣ .

﴿ **من فعل هذا بآلهتنا** ﴾ فرد عليهم : ﴿ **فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ ولكن الحجارة لا تجيب فقال لهم إبراهيم عليه السلام : ﴿ **أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾ [1] .

* هجرة المجتمع إلى مجتمع آخر :

تمت هجرة إبراهيم عليه السلام مع الزوجة ... ولابد أن الدعوة إلى الله استمرت في المهجر ...

* امتثال لأمر الله بالتوجه إلى مصر ، بالرغم من معرفتهما أن فيها ملكا جبارا . وهذا يبين أن طغيان الحاكم ... لا يمنع من الدعوة إلى الله ...

* وأيضاً الخوف على الأهل لا يكون عائقاً في تنفيذ أمر الله ..

ولكنه الاستسلام التام المصحوب باليقين في النجاة ... والدعاء المستمر بالعافية .

* الحرمان من الأولاد لا يعني أن يكون الأب أسير حب الولد الذى رزق به بعد طول انتظار ... وقد ضرب إبراهيم مثلاً لجميع الآباء الغارقين في حب أبنائهم ، بأن تركه وهو رضيع في صحراء لا زرع فيها ولا ماء مع أمه ..

... ثم كاد أن يذبحه وهو شاب ملء السمع والبصر .

* لقد أعطى إبراهيم عليه السلام المثل كيف يربي الزوج زوجته ... والمسؤولية الكبرى التى تحيط بالزوج إزاء زوجاته .....

ـــ يتضح ذلك في سارة وهى نموذج للزوجة المؤمنة الصابرة ... المطيعة .... المستسلمة .

ـــ وكذلك في هاجر الزوجة المؤمنة المطيعة المستسلمة في إيجابية .

وفيهما معاً كزوجتين ملتزمتين بالأوامر الربانية ... ثم انعكاس ذلك على تربيتهما لابنيهما إسحاق وإسماعيل .

وإسماعيل كان صادق الوعد ... كان عند ربه مرضياً ... كان يأمر أهله بالصلاة .

* إبراهيم يوجه رعيته :

---

(١) الأنبياء : ٦٦ ـــ ٦٧ .

﴿ يا بني : إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلَّا وأنتم مسلمون ﴾ .

إبراهيم عليه السلام في سورة مريم (١) :

﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . يا أبت : إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمٰن عصيا . يا أبت ، إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا . قال : سلام عليك ، سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا ﴾ .

يلمح الدارس هنا كيف يبنى القرآن المكي ، من خلال سيرة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في نفس المؤمن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ـــ سبحانه وتعالى ـــ وذلك ببيان حقيقة عجز الطاغوت في مواجهة قدرة الله التي لا حد لها . فالطاغوت لا يسمع ولا يبصر ولا يغني ، وبالتالي فهو غير مستحق للعبادة : ﴿ **لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا** ﴾ .

وفي هذا بيان رباني لمن يتصورون أن الطاغوت بأجهزة تحسسه واستخباراته قادر على إحصاء أنفاس الناس ، ومعرفة حركاتهم وسكناتهم ، بأن ذلك غير صحيح . فإذا كانت هذه هى الحقيقة ، فلماذا يتقاعس الناس عن نصرة دين الله ؟

وبيان أن رأس الطاغوت كان للرحمٰن عصيا : ﴿ **لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمٰن عصيا** ﴾ . وأن أتباع الطاغوت هم أولياء له : ﴿ **فتكون للشيطان وليا** ﴾ ، فهم يأتمرون بأمره ، وينفذون تعليماته في الصد عن سبيل الله وبالتالي فهم مستحقون لعقاب الله وعذابه .

وفي نفس الوقت الذي يعرض للأسباب التي تدعو إلى الكفر بالطاغوت ، يعرض الخبر القرآني ، حقيقة صفات الله المستحق للعبادة فهو السميع ، البصير ، الغني ، وهو الذى يغني غيره ، فالكل فقراء إلى رحمته وخيره . وهو الذى يقيم الموازين بالقسط يوم

---

(١) الآيات : ٤١ ـــ ٤٨ .

القيامة ، فيحاسب ويعاقب ويعذب ويرحم .

ونلمح في نفس الوقت إبراهيم عليه السلام النبي المؤمن بربه وخالقه ، يعرض هذه الحقائق وهو يدعو إلى الله ، فيصادف من العنت الشيء الكثير ، من أقرب الناس إليه ، من أبيه : ﴿ **لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرني مليا** ﴾ وهي صورة مكررة لما يصادفه أصحاب الدعوات من العنت ، من مجتمعهم وأسرهم وأصدقائهم وإخوانهم .

ونلمح كذلك الموقف الذى يجب أن يتخذه المسلم ، وهو يدعو ، وهو يصادف العنت والصد عن سبيل الله ، وهو الثبات ، الاستمرار في إبلاغ دعوة الله ، التضحية ، التوكل على الله ، اعتزال الكفر وأهله : ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله** ﴾ . فمخالطة الكفر وأهله آثاره خطيرة على القلب وعلى النفس .

ثم التوكل على الله ، والتوجه إليه بالدعاء : ﴿ **وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا** ﴾ .

إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء [1] :

﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذى خلقني فهو يهدين . والذى هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتني ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين** ﴾ .

وهكذا نرى المنهج القرآني ، يبني رجل الدعوة بغرس أصول الإيمان الصحيح في قلبه ، فإذا هو إسلام يتحرك يدعو إلى دين الله على بصيرة ، ويفيض من إيمانه على من حوله ، يخاطب الفطرة التي تعرف ربها في نفس كل مدعو ، ويخاطب العقل أحياناً أخرى أيضاً في نفس كل مدعو .

نراه أيضاً وهو يرسم صورة صاحب الدعوة يباشر دعوته لاستخلاص العناصر اللازمة لبناء قاعدة المجتمع الإسلامي الصلبة ، اللازمة والضرورية ، بكل وسيلة .

---

(١) الآيات : ٦٩ ــ ٨٣ .

وها نحن أمام إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ يباشر دعوته ، محاولاً إنقاذ أبناء جلدته من براثن الشيطان ، في مناظرة ، يبين من خلالها الصفات التي يجب أن يتصف بها من يستحق العبادة ، ومنها أن الذى يستحق العبادة هو الذى يسمع دعاء الداعي ، وهو الذى ينفع ، وهو الذى يملك الضر .

وذلك يعني أن الذين لا يجيبون دعوة الداعي ، والذين لا يملكون نفعاً ولا ضراً فهم غير مستحقين للعبادة : ﴿ **قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون** ﴾ . وهنا أسقط في أيدى الكافرين ، لقد انتزع منهم الداعية اعترافاً على ملأ من القوم أن آلهتهم قطع من الحجر لا تنفع ولا تضر ، وأنهم يفعلون ذلك تقليداً لآبائهم . فعادات الآباء وإن كانت مخالفة لشرع الله ، فهي أعز لديهم من الإسلام .

وهنا لابد وأن يتخذ الداعية موقفاً ، إذا رأى الإصرار من قومه على باطلهم بعد أن أدى واجب الدعوة ، هذا الموقف هو المفاصلة ، وإعلان العداوة للآلهة المدعاة ، وعبادها : ﴿ **فإنهم عدو لي إلا رب العالمين** ﴾ .

ثم ينبرى ليبين لهم الصفات التي يجب أن يتصف بها الإلـه الذى يجب أن يحبه العبد ، فهو الذى يطعم ويسقي ويشفي ويميت ويحيي ، ومالك يوم الدين ، والذى يغفر الذنوب والذى يهب الحكم : ﴿ **رب العالمين الذى خلقني فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين** ﴾ .

إبراهيم عليه السلام في سورة العنكبوت :

﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي**

ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ﴾[1] .

وهنا نلمح النص القرآني يعرض نموذجاً حياً لكيفية بناء رجل الدعوة ، بغرس أسس الإيمان الصحيح في قلبه وكيانه ، فإذا هو إسلام يتحرك ليقنع الناس بما اقتنع به ، ويأخذ بأيديهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، وغرس الإيمان الصحيح يقوم على أساس التعريف بالله وأسمائه وصفاته ، الله الذى يجب إفراده وحده بالعبادة ، والكفر بما عداه من طاغوت الأرض لأنه هو الرزاق ، وغيره لا يملك من المقومات التي تؤهله أن يرزق نفسه فضلاً عن أن يرزق غيره : ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون** ﴾ .

وهو الخالق ، والذى يخلق هو المستحق وحده للعبادة ، وهو الذى يحيي ويميت ، وهو الذى يبعث من في القبور ، وهو الولي وهو النصير ، وبالتالي فهو المستحق وحده للعبادة .

ومن خلال هذا العرض يغرس أسس الإيمان في قلب المسلم بالله ، وفي نفس الوقت يؤكد على ضرورة الكفر بالطاغوت ، بالآلهة المدعاة : ﴿ **إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا** ﴾ .

ومن خلال العرض القرآني يبرز ضرورة الإيمان بالموت ﴿ **إليه ترجعون** ﴾ ، وبالبعث ﴿ **ثم ينشىء النشأة الآخرة** ﴾ ، وضرورة الإيمان بالحساب ، والإيمان بالعقاب : ﴿ **والذين كفروا بآيات الله ولقائه ، أولئك يئسوا من رحمتى ، وأولئك لهم عذاب أليم** ﴾ . والإيمان بالثواب .

وفي سيرة النبى يلمح المسلم نموذجاً لرجل مؤمن ، رجل العقيدة ، وهو نبي الله

---

(١) العنكبوت : ١٦ ــ ٢٧ .

إبراهيم عليه السلام ، يباشر الدعوة إلى الله ، يُعرِّفُ الناس بأنهم قد خلقوا لعبادة الله عز وجل ، الذى يتصف بكل صفات الجلال والكمال التي آمن بها رجل العقيدة ، إنه يُعرف الدعوة ، يُعرِّفُ الإيمان كما يحسه هو ، وكما يستشعره هو في كل شيء ، في قدرة الله على الخلق والإحياء والإماتة .. إلى غير ذلك .

وفي سيرة النبي يلمح الإنسان كيف يبني إبراهيم القاعدة الصلبة من المؤمنين ، ليقوم على أكتافهم بناء المجتمع المسلم الذى تخضع حياته لنظام الله وشرعه ، ونلمح أيضاً المعاناة والابتلاءات التي قد تكلفه حياته : ﴿ **اقتلوه أو حرقوه** ﴾ .

ونلمح أيضاً أن القاعدة الصلبة ، العبرة فيها ، ليست بالكثرة ، إنما العبرة بما وقر في قلبها من إيمان ولو كانت قليلة العدد : ﴿ **فآمن له لوط** ﴾ .

ونلمح أيضا المكافأة في الدنيا ، وهي غير ثواب الآخرة : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾ .

وإذا كان الأمر على هذا النحو فالطاغوت ، لا يرزق ، ولا ينفع ، ولا يغنى ، ولا يحيي ، ولا يميت ، ولا يخلق ، فلماذا الخوف منه ؟ لماذا عدم الكفر به ؟ لماذا إطاعة أوامره ؟ وسماع تعليماته ؟ ولماذا الكفر بالله ؟ والتراخي في القيام بواجب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم** ﴾[1] .

وقد روى البخارى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصي : فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب ، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، وأى خزى أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله : إني حرمت الجنّة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى في النار »[2] .

---

(١) التوبة : ١١٤ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٤٢ .

وهنا نلمح القرآن الكريم يعرض لقضية إيمانية على جانب كبير من الأهمية ، وهو يعرض لسيرة إبراهيم عليه السلام ، هذه القضية ، هي قضية الولاء والبراء .

« فإبراهيم ـــ عليه السلام ـــ لا يوالي أباه لأنه كفر بالله سبحانه وتعالى ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، وهو البراءة منه ، وعدم مودته : ﴿ **فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه** ﴾ » .

« وذلك يعني أن العلاقة التي تربط الأب بابنه قد انقطعت ، بانقطاع رابطة الإيمان ، انقطعت بكفر والد إبراهيم عليه السلام ، بالله سبحانه وتعالى ، ومن هنا فاصل إبراهيم عليه السلام أباه » .

وقد جعل الله ذلك معلماً بارزاً في حياة الأمة المسلمة ، وجعلها نموذجاً ومثلاً يحتذى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله** ﴾[1] أى البراء من الشرك والمشركين حتى لو كان منهم الأب والابن والزوجة ، وأحب الناس إليه : ﴿ **كفرنا بكم** ﴾ ، أى الكفر بالطاغوت وأنصاره ، ﴿ **وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾ أى لا مودة ولا محبة ، بل بغض ومقت للكفر وأهله ، وذلك كله يمكن أن ينقلب إلى مودة ومحبة ، بشرط أن يكفروا بالطاغوت ويؤمنوا بالله الواحد القهار .

ويبين الله سبحانه وتعالى ، أن هذا هو النموذج ، هذا هو التصرف ، هذه هي القدوة والأسوة : ﴿ **لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾[2] أى في إبراهيم عليه السلام وصحبه .

نموذج يسوقه الله للبشرية على مدار تاريخها اليوم وغداً ، يقام به الحجة على الذين أعطوا ولاءهم لأعداء الله ولأعداء رسوله ولأعداء دينه ولأعداء المؤمنين ، وصدق الله القائل : ﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[3] .

---

(١) الممتحنة : ٤ .　　(٢) الممتحنة : ٦ .　　(٣) المائدة : ٥١ .

المبحث الرابع

أرض الرافدين
أو أور السومرية
ومحاولة حرق إبراهيم عليه السلام

لله في حياة الأمم والشعوب سنن كونية ، تتحقق بتحقق أسبابها ومن ذلك إهلاك القرى بسبب ظلمها :

﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾(١) .

وهذا هو الذى حدث للسومريين (أهل العراق) بعد محاولتهم قتل إبراهيم عليه السلام . لقد انتقم الله من حكامها وشعبها الذين شاقوا الله ورسوله .

لقد كان الانتقام الرباني متناسبا مع حجم الجرم الذى ارتكبته « أور السومرية » في حق رسول الله إبراهيم عليه السلام ، فنزل بها الخسران الذى لابد نازل بمن نهج نهجها وسار على منوالها ، من قتل لأصحاب الدعوات ، وانتهاك للحرمات .

لقد سلط الله على أهلها عدوا شتت شملهم ، واغتصب أرضهم ، وانتهك حرماتهم . وقد صور تلك الحادثة شاعر سومرى قديم يقول : « (فارق الفحل مقره ، وتفرق قطيعه مع الرياح) وقصده بالفحل هنا رب ؟ أور ، ثم عدد المدن السومرية الكبرى ، وذكر أن أربابها ورباتها فعلوا فعلة رب ؟ أور(٢) ... ثم أخذ ينعى مصير المدن ،

---

(١) الطلاق : ٨ ــ ٩ .

(٢) العجيب أن المترجم جاكوبسون وكرامر ، لا يذكران شيئا عما فعله هؤلاء من يسمون الأرباب ، فى مدن نيبور ، وأوروك ، وأريدو .

وينعى تساقط لبنات وبدأها بمدينة أور ... ، ثم انتقل إلى وصف قرار ... بدمارها وسفك دماء أهلها ، وكيف أنه (أى الشاعر) آثر ألا يتركها على الرغم مما أصابها ، وأنه أخذ يسكب دموع عينيه لربه ويبتهل لربه ... ، ولكن ما من سميع ولا مجيب .

واستمر نحيب الناس ... وامتلأت الطرق بجثث القتلى ، الذين حطمتهم الرماح والمقامع ، وظلوا تحت وهج الشمس حتى أذابت الشمس شحومهم ، أما من نجوا فقد ذلوا وجاءوا حتى تخلت الأم عن ابنها ، وهجر الأب ولده ، وفارقت الزوجة زوجها ...

ونعت الربة نينجال بدورها الدمار الذى لحق بداخل المدينة وخارجها ، وقالت : تراكم الوحل في أنهار مدينتي ، وأصْبحت كأنها جحور الثعالب ، وما عاد الماء يجرى فيها . وهجرها عمالها ، ولم يتبق غلال في حقول بلدى ، وهجرها مزارعوها ، ... وأصبحت أجمات النخيل والكروم بعسلها ونبيذها (جرداء) كقمة الجبل (؟) ... ضاعت مدينتي ولم أعد ملكتها ، وتحولت دارى إلى أطلال ، وقامت مدينة غير المدينة ودار غير الدار ، يا ويلي ، أين أجلس وأين أقف ؟ أنا نينجال طردت من دارى ، وغدوت شريدة في مدينة غريبة) » .

ورد الشاعر على نحيب نينجال بنحيب مثله ، قائلا : « مليكتي ، أصبح فؤادك كالماء ، فكيف تعيشين ؟ .. دموعك أصبحت دموعا غريبة فالبلد لم تعد تذرف الدموع ... ، وإلى متى يا ترى ستظلين غريبة بجوار مدينتك ؟ ثم تمنّى لها أن تؤوب إلى ديارها أوبة الفحل إلى حظيرته ، والشاة إلى قطيعها ، والطفل إلى مهده »(١) .

---

(١) النص منقول بتصرف عن مصر والعراق تأليف الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح ، ص ٤٤٥ ، وهو يعتمد على كتاب : Th - jacobsen, Ajse, Lvill, 219F. وآخرين .

« أسرة أور الثالثة » بعد هجرة إبراهيم عليه السلام
(من خلال مراجع التاريخ القديم)
تدمير المدن السومرية

إن الله قد سلط على أسرة أور الثالثة عدواً شرسا تمثل فى قوة عيلام التى كانت تقطن السهول الواقعة إلى الشرق من بلاد العراق .

والثانية قوة الأموريين الذين كانوا يسكنون باديتى الشام والعراق وانتشروا حتى غرب الفرات ، وكانت القوتان تهدفان إلى السيطرة على أور التى لم تصمد أمامها ، وهزم جيش أور هزيمة ساحقة ، وبسقوط أور كانت نهاية السومريين كشعب مستقل وآخر حلقة من حلقات ازدهار مدنيتهم .

وبعد أن عبر العيلاميون « دجلة » استقروا فى لارسا (على مقربة من أور) بعد الاستيلاء عليها .

أما الأموريين فقد اتخذوا مركزهم فى مارى على نهر الفرات بعد أن سيطروا على المناطق المحيطة بها .

ولعل هذا الغزو لأرض الرافدين هو الذى تحدث عن آثاره المدمرة الشاعر السومرى القديم ، وأوردناه على الصفحات السابقة .

وبعد أن تمكن العيلاميون من السيطرة على جزء من بلاد العراق القديم ، وتيسر للأموريين نفس الشىء ، نشب الصراع بين هاتين القوتين على أمل الانفراد بالسلطة والزعامة في بلاد العراق بلا منافس . ودارت رحى الحرب بين العيلاميين والأموريين بما أتاح الفرصة لبعض المدن العراقية أن تنمو وتزدهر ومن أهم هذه المدن كانت مدينتى آسين[1] التى

---

(١) كانت تعتبر من أكبر عواصم الأموريين، وقد عثر فيها على قوانين تقترن باسم خامس ملك من ملوكها وهو « لبت عشتار » الذى حكم فى منتصف القرن التاسع عشر ق . م . وقد دونت نصوص القوانين التي تبقى منها حوالى ثمان وثلاثون مادة على ألواح متفرقة ذكر فى إحداها « أن لبت عشتار يفتخر بأن ربه وهبه إمارة البلاد ليحق الحق بها وأنه استوحى تشريعه من الرب » . وهذا الاعتراف دليل على أن حكام العراق كانوا يدركون بأن الحكم استخلاف من الله بشروط وهى عدم الشرك بالله والإقرار له بالألوهية والربوبية ، والتلقى عنه الشريعة والمنهاج الذى يسير =

كانت واقعة تحت سيطرة الأموريين ولارسا التى كانت تحكم العيلاميين .. وذلك غير دويلة مدينة أشنونا (ومكانها تل أسمر فى منطقة ديالى) .

وأهم ما يذكر عن هذه الدويلة ، القوانين التى تنسب إليها وهى « قوانين أشنونا » التى ترجع إلى القرن التاسع عشر ق .م .

وبعد فترة من الزمان تمكن الأموريون من قهر العيلاميين ، وبذلك خطوا الخطوة الثانية فى طريقة الانفراد بالسلطة فى بلاد العراق القديم متخذين من بابل حاضرة لهم .

= عليه الإنسان ، لتحقيق غاية الوجود الإنسانى وهى عبادة الله وحده دون شريك ولكن رغم علمهم فقد أعرضوا وتولوا ، إذا كان ماروه كتاب التاريخ عنهم صحيحا ، (مصر والعراق . ص ٤٤٩) .

obeikandl.com

الفصل الخامس(١)

أرض الرافدين منذ عصر دولة بابل الأولى

فى مراجع التاريخ القديم

دولة بابل الأولى والثانية والثالثة

(١٨٨٠ ــ ١٥٩٥ ق .م)

إن اندحار قوة العيلاميين ، وسقوط دويلة أور ، لم يكن يعنى أن الأمر قد خلص نهائيا لقوة الأموريين فى بابل وأنهم قد تسلموا زمام السيطرة على بلاد العراق كلها ، بل على العكس من ذلك كان على الأموريين أن يواجهوا صراعا مريرا وحربا ضروسا من أجل أن تكون لهم الكلمة العليا فى تلك البلاد .

وكما نعلم كانت هذه طبيعة الأمور فى بلاد العراق القديم ، دويلة تختفى وأخرى تحل محلها ، وما أن تتاح الفرصة للأخرى لاستنشاق عبير الحرية ، والصعود فى ركب المدنية حتى تسعى إلى انتزاع لواء الزعامة من غيرها . وقد كان ذلك يكلفها ، أحيانا ، الكثير من المال والرجال ، وأحيانا استقلالها . وإن كانت رغبة الزعامة لم تكن قاسما مشتركا بين كل المدن العراقية فكثيرا ماكانت المدن تحارب فقط للمحافظة على استقلالها من اعتداء الآخرين .

ولقد كان الحال هكذا حينما تولى الأموريون السلطة واعتلوا عرشها منذ عام ١٩٨٨ ق . م فقد كان هناك دويلات مستقلة مثل لارسا وآسين وأشنونا يحكم فيها أسرات حاكمة

---

(١) المعلومات الواردة فى هذا الفصل مأخوذة عن مراجع التاريخ القديم ولا تصمد أمام الجرح والتعديل ، ولا نملك تصديقها أو تكذيبها . وإذا طبقنا عليها ضوابط العلم ومنهج تلقيه نجد أنها تدخل تحت بند « علم لا ينفع وجهل لا يضر » . بل إنها تهدر أوقات الأمة وأعمارها فى تحصيل معلومة لا ينبنى عليها عمل صالح .

لا تخضع كثيرا للحاكم في بابل [1] ، وكما كان هناك إلى الشمال من العراق قوة فتية هى قوة آشور ، التى بدأت ترنو ببصرها إلى زعامة بلاد العراق فاصطدم معها جيش بابل فى عهد مليكها سومو أبوم ، وانتهت المعركة دون غلبة لأحد الطرفين ، واستمرت بابل فى محاولة إخضاع باقى المدن الأخرى التى رفضت أن تسلم نفسها لقوة بابل تسير أمورها كيفما تشاء ، وهى لم تعتد على ذلك طوال تاريخها ولذلك لم يكن هنالك مناص من الحرب التى حدثت فى عهد سومو أبوم ملك بابل والذى كان النصر فى جانبه مسيطرا بذلك على أكثر أجزاء من أرض سومر .

ومن المدن الأخرى التى كانت تعارض سلطان بابل وتسعى لبسط سلطانها على دويلة آسين وغيرها كانت دويلة لارسا ولكن الأمر لم يكن سهلا أمامها ، فالبابليون كانوا يرنون بأبصارهم أيضا إلى آسين الأمر الذى أدى إلى مزيد من التنافس والصراع بين لارسا وبابل . ولم يحسم هذا الأمر إلا عندما تولى عرش بابل ملك ذكى طموح هو حمورابى سادس الملوك البابليين .

حمورابى الذى عاش من عام ١٧٢٨ إلى ١٦٨٦ ق . م :

وحكم حوالى ٤٣ عاما . ولقد أتاح القدر لبابل الدولة الصغيرة أن تصبح فى عهده عاصمة لدولة كبيرة لها من الإمكانيات البشرية والاقتصادية الشىء الكثير . وكان سبيل حمورابى فى السيطرة على البلاد النضال العسكرى . فتوجه بجيوشه إلى جنوب العراق حيث قام بإخضاع أوروك وآسين وبعض المدن الأخرى بعد إقصاء النفوذ العيلامى عنها . وبعد ذلك اتجه إلى إخضاع لارسا وحلفائها ، فى ظل ملكها « ريم سين » وكانت حروبا أدت إلى سقوط لارسا في يد حمورابى وهزيمة ملكها « ريم سين » . الذى ولى الأدبار فلاحقه حمورابى بجيوشه حتى داخل أرض عيلام (إيران) مستوليا على بعض منها .

وكان من نتيجة هذا النصر الذى حققه حمورابى أن طارت شهرة البابليين فى الآفاق فازدادت سطوتهم ، وخشى الناس بأسهم . مما دفع الأشوريين إلى أن يؤثروا السلامة ويعلنوا

---

(١) تقع أطلالها على الشاطىء الشرقي للفرات جنوبي مدينة بغداد ، واسمها يتكون من مقطعين« باب ال » الذى ربما يعنى « باب الله » (مصر والعراق ، ص ٤٥٦) .

(٢) الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ، ص ٤٥٧ ، مع العلم بأن إبراهيم عليه السلام يقدر تاريخ خروجه من أرض الرافدين بعام ١٨٩٦ ق م تقريبا .

اعترافهم بالسلطة الحاكمة فى بابل .

كما قام حمورابى بإخضاع شعوب مناطق الجبال الشمالية والشمالية الشرقية ، وكذلك مارى (غرب العراق)التى عاونته فى البداية .

ولكن التاريخ لم يتحدث عن شهرة حمورابى العسكرية ، بقدر ما تحدث عن القوانين التى اقترن بها اسمه ، والتى سنتناولها إن شاء الله عند الحديث عن التشريع فى بلاد العراق القديم .

وقبل أن نمضى فى حديثنا عن الظروف التى أدت إلى زوال سلطان دولة بابل الأولى ، نود أن نشير إلى حقيقة هامة تتعلق بتعدد جبهات الصراع وأطرافه فى هذه المنطقة من الشرق الأدنى القديم .

فقبل عهد حمورابى بدأت تظهر قوى جديدة أصلها الهجرات الهندورية وبدأت تستقر فى مناطق مختلفة من الشرق الأدنى القديم محاولة أخذ لواء الزعامة هناك . ففى آسيا الصغرى (الأناضول) شمال العراق استقرت هجرة عرف أصحابها باسم الحيثيين(١) وفى المناطق الشمالية والغربية من نهر الفرات استقر الحوريون(٢) ، وفى مرتفعات بلاد النهرين استقرت جماعات الكاسيين . كما تقول مراجع التاريخ القديم .

ولم يكن يخفى على حمورابى أن هذه القوى (الحيثيين والحوريين والكاسيين) تهدد مركز السلطة الحاكمة فى بابل ولذلك نراه يتخذ من أسباب الحيطة والحذر ماأبقى على مملكته سليمة فى عهده وعهد خلفه سمسوايلونا ولكن وقف خطر هذه الهجرات كان موقوتا إلى حين يتاح لها الفرصة للإطاحة بالدولة البابلية الأولى عسكريا مكتفية بالتسلل البطىء إلى داخل البلاد للعمل كأجراء .

ومنذ منتصف القرن السادس عشر ق . م بدأ الكاسيون بمهاجمة دويلة بابل من الشمال ولذلك يطلق المؤرخون على هذه الفترة اسم العصر الكاسى .

---

(١) أو الخاتيين الشرق الأدنى القديم ، مطر والعراق ، جـ١ ص . ٤٧٩ ومابعدها .

(٢) أو الخوريون .

العصر الكاسى

(١٥٨٠ ــ ١٢٠٠ ق . م)[1]

دولة البحر :

فى غمرة الصراع الداخلى بين دولة بابل ودويلات المدن العراقية الراغبة فى استقلالها وبين الكاسيين من ناحية وبينها وبين الحيثيين على حدودها الشمالية من ناحية أخرى ، بدأت بعض فلول من السومريين والأموريين نشاطا ملحوظا فى جنوب العراق ، فقاموا باستخلاص الأراضى من مستنقعات المياه بالقرب من مصاب النهرين عند الخليج العربى وكونوا دولة عرفت باسم « دولة البحر » منشقين بذلك عن دولة بابل فى الشمال .

ومن المحتمل ــ بعد استقرارهم ــ أنهم قاموا بضم العاصمة الدينية القديمة نيبور إلى مملكتهم ، ولذلك بدأ الصراع بينهم وبين بابل التى حاولت القضاء على دولتهم . ومع أن الصراع لم ينته إلى نتيجة حاسمة بالنسبة للطرفين ، فإن ظهور دولة البحر كان يعتبر داخليا أول مسمار فى نعش الدولة البابلية .

دولة بابل الثانية :

تكررت الاعتداءات من جانب الحيثيين على حدود دولة بابل وقد أتيح لهذه القوة الحيثية المهاجمة بقيادة مليكها « مورسيل الأول » من إسقاط بابل ، والاستيلاء عليها وسلب ثروتها وتدميرها فى عهد مليكها سمسوديتانا عام ١٥٩٥ ق.م . ولما ذاق الحيثيون طعم الانتصار وحلاوة الحياة المدنية توغلوا فى العراق جنوبا لإخضاع باقى الدويلات العراقية لسلطانهم ، ولكن دولة البحر كانت لهم بالمرصاد ، فردتهم وحالت بينهم وبين تحقيق أطماعهم ولذلك يطلق المؤرخون على أسرة دولة البحر أسرة بابل الثانية لأنها خلفت دولة بابل الأولى فى صد هجمات الحيثيين ضد بلاد العراق الجنوبية .

دولة بابل الثالثة :

اكتفى الحيثيون بكسر شوكة البابليين ، وفضلوا الجلاء عن البلاد بعد ترك قوات رمزية فى البلاد .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٧٩ ــ ٤٨٨ .

بقى الكاسيون فى شمال العراق ودولة البحر فى الجنوب وكلتاهما تتحين الفرصة لتأخذ مكان دولة بابل الأولى فى توحيد دويلات العراق تحت زعامتها . وذلك كان يستدعى أن تقوم دولة البحر بمد نفوذها داخل البلاد قبل الاصطدام بالقوى الخارجية ، ولكن عملية توحيد المدن السومرية وغيرها كان فوق طاقاتها ، وبالإضافة إلى ذلك كان من الواجب الملقى على عاتق دولة البحر ، الدفاع عن كيانها ضد قوى الكاسيين الذين نجحوا فى السيطرة على جزء كبير من العراق(١) فى عهد زعيمهم كارانداش الذى أعلن نفسه ملكا على بابل الثالثة على أساس أن الكاسيين كانوا يشكلون الأسرة الثالثة التى حكمت بابل منذ ذلك الوقت ولمدة خمسة قرون .

ولكن قوى الآشوريين فى المناطق الشرقية والشمالية الشرقية من نهر دجلة والحوريين(٢) فى المناطق الغربية والشمالية الغربية من نهر الفرات كانت تدير دفة الصراع بينها فى جانب وبينها وبين دولة بابل الثالثة فى جانب آخر طمعا فى زعامة بلاد العراق .

العلاقة بين دولة بابل الثالثة ومصر :

نما نوع من العلاقات الودية بين بابل ومصر فى القرن الرابع عشر ق . م . وتمثل ذلك الود فى تصاهر البيتين الحاكمين فى كل من البلدين أكثر من مرة (مثال ذلك زواج أمينوفيس الثالث من بنت الملك البابلى كارانداش) .

ويتجلى ذلك الوئام أيضا حينما اضطربت الأمور فى مسار القوافل التجارية بين بلاد الشام ومصر على أثر نشوب الصراع بين الأموريين والكنعانيين ، أرسل الملك البابلى رسالة إلى الملك المصرى أمينوفيس الرابع يستصرخه ليقوم بتأمين هذه القوافل .

دولة بابل الثالثة (الحوريون ــ والميتان ــ والحيثيون ــ والآشوريون) :

استمر الكاسيون حكام بابل ، يكونون الطبقة الحاكمة فى معظم الأجزاء التى كانوا يسيطرون عليها لمدة خمسة قرون تقريبا ، لم تكن سلاما كلها ، بل صراعا مستمرا ضد الآشوريين الذين لم يكن لهم نفوذ يذكر فى غير المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية من نهر دجلة ، وضد الحوريين الذين كانوا يتمركزون فى المناطق الغربية والشمالية الغربية من نهر

---

(١) بما فى ذلك جنوب العراق .

(٢) يرجع المؤرخون نزولهم فى الشرق إلى القرن التاسع عشر ق . م .

الفرات ، والذين قاموا بغزوات عسكرية فى القرن الثامن عشر حتى وصلوا إلى منطقة كركوك الحالية جنوب شرق نينوى كما امتدت علاقاتهم التجارية والاقتصادية حتى شملت المناطق السورية .

وفى تلك الأثناء استطاع فرع آخر من الشعوب الهندوآرية (الميتان) التى وصلت وتمركزت فى واسوكانى(١) أن يبسطوا سلطانهم على الحوريين وتشتيت من اعترض منهم إلى أطراف الشام . ويبدو أن دولة الميتان هذه هددت بوجودها جيرانها الآشوريين والحيثيين ونازعت مصر سلطانها شمال شرق الفرات ، بل وذهب الأمر إلى حد تأليب بعض أمراء الشام ضد ملك مصر(٢) حينئذ ، ولكن يقظة الفرعون حالت بينهم وبين تحقيق أطماعهم ، أى أن طابع العداء هو الذى كان يكسو العلاقات المصرية الميتانية حتى عهد امنحتب الثانى (١٤٣٦ — ١٤١٣ ق . م) .

ويبدو أن الميتان كانوا على جانب كبير من الدهاء ، إذ أنهم أحسوا أن الآشوريين فى الشرق والحيثيين فى الشمال الغربى قد صارتا قوتين يحسب حسابهما فقاموا على الفور بخطب ود الملك المصرى ، نشأ على أثره جو من الصداقة والود وتبادل الهدايا استمر طوال عهد تحتمس الرابع وامنحتب الثالث (١٤٠٥ — ١٣٦٧ ق . م) وامنحتب الرابع (١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق . م) . وقد أثمرت هذه الصداقة زواجا بين امنحتب الثالث وإحدى بنات الملك الميتانى .

ولكن صداقة الميتان ومصر ، لم تحل بين الحيثيين ومحاولة القضاء على الميتان بمحاولة السيطرة على المنطقة التى تمتد فيما بين الفرات وساحل البحر المتوسط وظل الصراع قائما بين القوتين حتى تولى قيادة الحيثيين ملكهم شوبيلوليوما الذى هاجم الميتانيين بقيادة ملكهم توشراتا مما دفع الأخير إلى الاستنجاد بملك مصر امنحتب الثالث الذى وافاه بقوة ، تمكن بها من قهر الحيثيين .

ولكن ذلك لم يفت فى عضد الحيثيين ، الذين استمروا فى تأليب أمراء الميتان على زعيمهم ، فى الوقت الذى قاموا فيه بعقد الصلات الودية مع الآشوريين ثم أعقب ذلك

---

(١) يقال عنها تقع شرق تل حلف على نهر الخابور بالقرب من الفخارية الحالية .

(٢) حتشبسوت وتحتمس الثالث .

هجوم الحيثيين على عاصمة ميتان وكاد الأمر يتم لهم فى السيطرة عليها لولا أن القدر لم يكن فى جانبهم إذ أن قوات الحيثيين قد اضطرت إلى الانسحاب لتأديب من ثاروا ضدهم فى المناطق الواقعة تحت سيطرتهم بالشام .

وانتهز الآشوريون فرصة ضعف الميتان فأخذوا زمام المبادأة ، وهاجموهم فى عاصمتهم واستردوا بعض ما كان قد سلبه منهم الميتان وعند هذا الحد توقفت جهود الآشوريين إلى حين .

ولكن ماتلى ذلك من أحداث لم يحل بين الحيثيين وبين التخلى عن أطماعهم فى السيطرة على الميتان وقد أتيح لهم ذلك حينما توفى الملك توشراتا ملك الميتان فخلفه الملك ماتى يوزا وكان ضعيفا فأجبروه تحت ضغط القوة العسكرية على توقيع معاهدة معهم يعلن فيها خضوعه للحيثيين .

ولقد طال الحديث عن هذه القوى المتناوئة ، حتى نسينا دولة بابل الثالثة أو دولة الكاسيين ، التى بدأت منذ عام (١٣٥٦ ق . م) تواجه صراعا حاسما وفاصلا فى تاريخها ضد قوى الآشوريين والحيثيين ودولة عيلام الناهضة بعد ما توارت دولة الميتان من على مسرح أحداث العراق القديم .

ولقد اتخذت الأمور طابع التحدى بين قوة بابل ، وقوة عيلام فتحرك على الفور البابليون بجيوشهم حتى العاصمة العيلامية « سوسة » حيث لقنوها درسا قاسيا . وقد صور لهم النصر الذى حققوه ضد عيلام ــ أنه بالإمكان كسر شوكة الآشوريين ــ ولكن ذلك لم يكن ممكنا لأن قوة الآشوريين كانت قوة فتية فاستمر الصراع بينهما دون نتيجة حاسمة ، وعلى الجانب الآخر سعى البابليون إلى أن يكون هنالك شىء من الود بينهم وبين الحيثيين الذين كانوا قد اتخذوا موقفا معاديا من المصريين والآشوريين .

وفى وقت ما بدأت أمراض الشيخوخة تؤثر فى كيان دولة بابل الثالثة الكاسية ، إلى أن جاء الوقت الذى قام فيه ملك آشور توكلتى نينورتا الأول بالهجوم على بابل وتدميرها وسلب كنوزها . ولكن جاء اليوم أيضا الذى أخذت فيه بابل بثأرها أيضا من آشور وحاصرت عاصمتها بعد موت ملكها نينورتا الأول فى أواخر القرن ١٣ ق . م .

ولقد أتاح الصراع ــ الذى دار بين بابل وآشور ــ الفرصة أمام العيلاميين لمهاجمة

جنوب العراق وإخضاعه ، ثم السير شمالا حتى وصلوا بابل فدمروها وأسقطوا الحكم الكاسى فى أواخر القرن الثانى عشر ق . م .

دولة بابل الرابعة :

ورغم أن الضربات كانت قاصمة بالنسبة للأسرة الكاسية ، إلا أنها قامت تترنح متحاملة على نفسها حتى استيقظت روح النضال فى من بقى من أفرادها لتخليص البلاد من سطوة العيلاميين ، وتزعم بعض ملوك الكاسيين هذا النضال لتحرير الأرض من سطوة العيلاميين وتعرف بقايا هذه الأسرة الكاسية الجريحة باسم أسرة بابل الرابعة .

خرجت جيوش بابل فى عهد مليكها نبوخذ روسر الأول ضد العيلاميين فى الشرق وضد بقايا الأموريين ومن حالفهم من الآراميين فى الغرب ، غير أن هذه اليقظة لم تستمر ، فقد زادت العلة ، وتقدم العمر وكثرت الجراح تحت ضربات الآشوريين الذين نجحوا فى إسقاط الدولة البابلية الرابعة .

الآشـــوريون(١)

الآشوريون فرع من الشعوب السامية التى خرجت من شبه الجزيرة العربية لتستقر فى المنطقة الواقعة بين رافدين من روافد نهر دجلة ، الزاب الأكبر والزاب الأصغر شاملة ضفتى نهر دجلة وممتدة حتى المرتفعات الشرقية . وطبيعة هذه المنطقة جبلية إلا من سهول قليلة على ضفتى نهر دجلة وحول أربيل وكركوك . وقد اتخذ الآشوريون عاصمة لهم فى المكان الذى تشغله الآن خرائب قلعة الشرقاط الحالية مطلقين عليها اسم وثنهم « آشور » .

ويقسم المؤرخون عصور التاريخ الآشورى إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

(أ) العصر الآشورى العتيق .

(ب) العصر الآشورى الوسيط .

(ج) العصر الآشورى الحديث .

---

(١) مصر والعراق ، ص ٤٩٤ وما بعدها ؛ نكرر : المعلومات الواردة هنا مأخوذة من مراجع التاريخ القديم ، ولا نملك تصديقها أو تكذيبها ولكن يمكن القول بيقين أن العلم بها لا يترتب عليه عمل ، هى ضمن دائرة علم لا ينفع وجهل لا يضر ، بل إنها تضيع عمر الأمة فيما لا يفيد .

(أ) العصر الآشورى العتيق

من الملاحظ أن المنطقة التى كان يشغلها الآشوريون ، ليست واقعة خارج حدود العراق ، بل تكون الجزء الشمالى منه ، لذلك يمكن القول أن مدنيتها وحضارتها كانت امتدادا لمدنيات وحضارة العراق فى مراحله التاريخية المختلفة . يقال : إن الآشوريين بدأوا يستقلون بهذا الجزء من العراق القديم منذ سقوط أسرة أور الثالثة (١٨٨٠ ق م) تقريبا .

(ب) العصر الآشورى الوسيط

وهو يقابل المراحل التاريخية التى درسناها اعتباراً من عصر دولة بابل الأولى وحتى نهاية العصر الكاسى تقريباً (أى من حوالى ١٦٠٠ ق . م حتى ١٠٠٠ ق . م تقريباً) ولقد أشرنا فى محاضراتنا السابقة عن الآمال التى كانت تضطرم فى صدور الآشوريين للسيطرة على بلاد العراق كلها . وكيف أن ذلك كان عزيز المنال لوقوف الحيثيين والميتان والمصريين لهم بالمرصاد .

ففى ذلك الوقت كان للحيثيين دولة كبيرة مركزها آسيا الصغرى (الأناضول) وفى مصر كانت هناك الدولة الحديثة التى امتدت حدودها حتى بلاد النهرين (شمال شرق الفرات) وبلاد الشام . وكلتا القوتين (قوة الحيثيين وقوة المصريين) كانتا تسعيان إلى مزيد من التوسع وبسط سلطانها على الطرف الآخر .

ولعلنا نذكر أيضاً أنه على الجانب الآخر كانت هنالك آمال الميتانيين الذين كانوا يسعون إلى مد نفوذهم على دويلات العراق ، وقد كان ذلك كافياً لاحتدام الصراع فى منطقة ما يسمى بالشرق الأدنى القديم بين هذه القوى المتصارعة التى كانت تسعى كل منها إلى السيطرة على مقدرات غيرها بالسياسة تارة وبالصداقة تارة أخرى وبالحروب إذا استدعى الأمر ذلك .

وما يهمنا الآن هو أن آشور قد أتيح لها فى منتصف القرن الرابع عشر ق . م فرصة تحرير بلادهم من سيطرة الميتان والقضاء على سطوتهم وتشتيت شملهم ولقد كان ذلك بداية للتطور السياسى الذى تمكن الآشوريون فى نهايته من أن يصبحوا قوة يحسب حسابها فى منطقة الشرق الأدنى القديم .

ومن أشهر ملوك آشور لهذه الحقبة شلما نصر الأول الذى طارد فلول الميتانيين ،

واتخذ عاصمة جديدة أطلق عليها اسم كالحو أو كالح فى جنوب مدينة الموصل وعلى الشاطىء الشرقى لنهر دجلة .

وأعقب شلما نصر الأول على عرش آشور ، ابنه الذى سار على نهج أبيه ، ومن أهم ما قام به هو قيامه بمهاجمة الكاسيين فى عقر دارهم فى بابل والقضاء على سطوتهم وعاصمة ملكهم والسيطرة عليها ، وقد حدث ذلك منذ بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد .

ولما بدأت الأمور تستقر داخل دويلات العراق القديم بزعامة مملكة آشور بدأ حكامها يرنون بأبصارهم إلى توسيع رقعة البلاد خارج حدود العراق .

وقد تحقق لهم ذلك فعلاً ووصلت دولة آشور فى توسعها شواطىء البحر الأبيض المتوسط فى الغرب وحتى بلاد الأرمن فى الشمال (شاملة جنوب شرق آسيا ولبنان وشمال سوريا) . وكان ذلك فى عهد أحد ملوك آشور المسمى تيجلات بيليسير الأول (١١١٤ ــ ١٠٧٦ ق . م) .

ولكن قوة الأرمن لم تكن لتصبر على ذلك ، لقد كانت تتطلع لأن يكون لها الكلمة فى شئون هذه المنطقة كلها بعد ظهورها على مسرح أحداث الشرق الأدنى القديم .

ولذلك كان من الطبيعى أن يحتدم الصراع بين قوة الأرمن وقوة آشور ، دون نتيجة حاسمة حتى وفاة الملك تيجلات بيليسير الأول . وقد تمكن الأرمن بعد وفاته أن يكونوا لهم إمارات فى المنطقة الواقعة فى أعالى الفرات شرقى الخابور الأعلى فيما يسمى منطقة طور عابدين متخذين لهم مركزاً بالقرب من مدينة بابل القديمة بالإضافة إلى مراكز أخرى مكنتهم من إنزال ضربات باقتصاد آشور وطرق تجارتها .

واستمر الصراع بين الأرمن وآشور على مدار مائتى عام (١١٠٠ ــ ٩٠٠ ق . م)[1] وتمكن الآشوريين فى نهايته من أخذ زمام الأمور فى أيديهم لبناء دولة واسعة الأرجاء منذ بداية القرن التاسع ق . م ، وهى الفترة التى يطلق عليها اسم العصر الآشورى الحديث .

---

(١) وهى فترة معاصرة للدولة الإسلامية التى قامت ببلاد الشام وأرض الجزيرة على عهد داود وسليمان عليهما السلام .

(جـ) العصر الآشورى الحديث [1]

(٩١١ ــ ٦١٢ ق . م)

يبدأ تاريخ هذه المرحلة بالملك إداد ــ نيرارى الثانى (٩١١ ــ ٨٩١ ق . م) وبهذه المرحلة بدأت آشور تدخل حقبة من حقبات التوسع العسكرى والانتعاش الاقتصادى .

وطبقاً للاستراتيجية الآشورية كانت جهود هذا الملك وحملاته الحربية إلى المنطقة الواقعة جنوب الزاب الأصغر بغرض إخضاع الجزء الواقع شمال بابل للنفوذ الآشورى ، وقد أدى ذلك إلى تصادم الجيش الآشورى مع جيش بابل وأسفر ذلك الصدام عن انتصار الملك الآشورى الذى استطاع انتزاع هذه المنطقة والمدن التى تليها إلى الجنوب من بابل وضمها إلى آشور . وأهم مدن هذه المنطقة آرابخا التى تشكل المفتاح المتحكم فى المنطقة الجبلية الواقعة خلف حدود آشور الشرقية .

وبهذه الحدود الجنوبية والشرقية الآمنة كان فى إمكان الملك الآشورى أن يتابع توجيه قواته المحاربة إلى المناطق الغربية من نهر دجلة ، حيث كانت بعض أجزائها فى أيدى قبائل الأرمن التى تم إخضاعها وإجبارها على دفع الضرائب . كما قام الجيش الآشورى باستعادة بعض المدن على طول وسط نهر الفرات مع إعادة تحصينها لحماية الطرق التجارية وذلك غير تحصين المنطقة حول نصيبين وضفاف الخابور بعد إخضاع كل القوى المناوئة للنفوذ الآشورى . وبذلك تم تأمين الحدود الغربية لآشور .

وفى عهد هذا الملك إداد ــ نيرارى الثانى أيضا بدأت الضرائب تصب فى خزينة آشور ، وقد وجه جزءا كبيرا منها لبناء اقتصاد آشور الداخلى ، الذى انتعش نتيجة للنشاط التجارى الذى كان يجرى على طول وسط العراق . بعد تأمين الطرق التجارية وخاصة الطريق النهرى نتيجة لمعاهدة عقدت بهذا الصدد بين مملكتى بابل وآشور .

وقد عمد ملوك آشور التالين على مدار ٦٠ سنة بعد حكم الملك إداد ــ نيرارى الثانى إلى اتباع سياسة هذا الملك فى الحفاظ على المملكة الآشورية وتأمين وسطها مما.

---

(١) مصر والعراق ، ص ٥٥٨ ومابعدها وهو يعتمد على مراجع منها . Luckenbill, Ancient Records. T, 476,

استدعى ــ على سبيل المثال ــ القيام بحملات عسكرية وتأديبية لإخضاع الشعوب التى تقطن التلال الشمالية والشرقية ، وذلك غير تأمين الطرق التجارية التى تسير إلى كبادوكيا وكذلك الطرق المؤدية إلى البحر المتوسط .

وخلف إداد ــ نيرارى الثانى ، ابنه الملك توكولتى نينورتا الثانى (٨٩٠ ــ ٨٨٤ ق . م) .

ثم أعقب هذا الملك آشور ناصر بال الثانى (٨٨٣ ــ ٨٥٩ ق . م) وكان أول نشاط عسكرى لهذا الملك فى الجبال الواقعة إلى الشرق من آشور ، ومن خلال ذلك النشاط أمكن السيطرة على سكان هذه القبائل الجبلية . وبعد ذلك قام بتأديب الأراميين الذين كونوا لهم مملكة فى بيت عدينى فى الغرب جنوب قرقميش (تل الأحمر حاليا) وذلك بعد أن ثاروا ضده على طول المنطقة الواقعة فى أعالى الفرات وحوض نهر الخابور بتحريض من سكانها الأصليين .

وفى هذه الأثناء قام ملك بابل بإرسال قوة من ثلاثة آلاف رجل لمساعدة الثوار ضد الآشوريين فى منطقة وسط الفرات ، فما كان من الملك الآشورى أن واجهها بقوة شتت كيانها وحقق النصر عليها . وقد كان لانتصار الملك الآشورى على الثوار آثار سياسية من قرقميش شمال بابل حتى كلديا جنوبا .

وبعد ذلك واجه الجيش الآشورى ــ ثورة أخرى غرب العراق بمساندة وتحريض الأراميين بعقاب صارم واضعا هذه المناطق تحت سيطرته مما ترتب عليه فتح الطريق أمام الجيش الآشورى إلى الشاطىء السورى . ولذلك فإنه فى السنوات التالية ، حينما توجه الجيش الآشورى إلى سواحل البحر المتوسط عن طريق قرقميش لم يواجه أية مقاومة تذكر حتى صور ، حيث قدمت كل المدن السورية فروض الولاء للجيش الآشورى الغازى .

وقد حظيت الدولة الآشورية ــ تحت حكم هذا الملك ــ بسلام واستقرار قام أثناءه ببناء عاصمته الجديدة كالح (نمرود الحالية) التى افتتحت عام ٨٧٩ ق . م كما تعددت فى عهده مشروعات الرى لزيادة خصوبة الأراضى وغرسها بالحدائق التى زودت بنباتات المناطق التى غزاها الجيش الآشورى . كما بنيت المعابد ، وأقيمت حديقة للحيوان .

وخلف هذا الحاكم ، الملك شلمان نصر الثالث (٨٥٨ ــ ٨٢٤ ق . م) الذى

واصل إتمام مابدأه أبوه . وتتصف سنوات حكمه الأولى باتجاهه إلى تقوية مراكز الآشوريين فى الغرب ، فقاد حملة ضد الأراميين فى الغرب ، وضم أراضيهم إلى أملاك آشور أى أن إمارة بيث عدينى صارت مقاطعة آشورية مما ترتب عليه أن صارت آشور صاحبة اليد الطولى فى الطرق التجارية على طول أعالى نهر الفرات إلى كيلكيا وآسيا الصغرى ، وقد كان ذلك تهديدا لدويلات المدن السورية ، التى قامت على الفور بتكوين حلف بقيادة دمشق وقامت بهجوم شامل على قوات آشور بالقرب من القرقر ونتج عن ذلك مصرع حوالى ١٤ ألفا من قوات سوريا البالغ عددها ٧٠ ألفا .

وبعد أربع سنوات أخرى قاد شلمان نصر الثالث حملة أخرى ضد دويلات المدن السورية وانتصر عليها وضمها إلى آشور وقد كان ذلك يعنى صيرورة كل الطرق التجارية إلى آسيا الصغرى فى قبضة آشور ، وكذلك السيطرة على إنتاج الحديد هناك ووضع اليد على إنتاج الخشب فى لبنان والفضة فى أمانوس .

وقد قام شلمان نصر الثالث بإرسال الحرفيين والفنانين السوريين إلى كل مدن آشور ، مما ترتب عليه نهضة كبيرة . وقد خلد أخبار هذه الحملة الأخيرة على النصب الذى عثر عليه في نمرود .

ومن أهم أحداث سنوات حكمه الأخيرة ، الثورات التى اندلعت فى بلاد النهرين ، وفى أجزاء أخرى من المستعمرات الآشورية ، وكانت أقسى هذه الثورات ، ثورة تزعمها أحد أبنائه ضده بمساعدة مدينتى نينوى وآشور ، وإن كان ليس هناك مايؤكد هذا الخبر الأخير .

وبعد وفاته ، جاء إلى الحكم شامشى إداد الأول (٨٢٣ ــ ٨١١ ق . م) وكان عليه أن يضع ــ منذ أواخر عهد أبيه ــ حدا للثورات التى انتشرت فى بلاد آشور . وقد ساعده فى ذلك ملك بابل . وتنحصر جهوده فى هذا المجال فى حملاته الثلاث الأولى التى كانت موجهة ضد المناطق الشمالية والشرقية الشمالية ، وضد قبائل جنوب غرب بحيرة فان وكذلك ضد الميديين وهم أحد فروع الشعب الإيرانى الذين هاجروا إلى المنطقة جنوب شرق بحيرة أورميا وقد كان ذلك بمثابة إنذار لكل من تسول له نفسه الثورة على الحكم

الآشورى(١) .

وبعد ذلك جاء إداد نيرارى الثالث (٨١٠ ـ ٧٨٣ ق . م) :

وقد خلف إداد نيرارى الثالث ولده فى سن صغيرة ويقال : إنه لم يصعد إلى العرش إلا بعد خمس سنوات من موت والده ، مما دفع البعض إلى الافتراض آن والدته سامورامات(٢) قد حكمت طيلة هذه الفترة ، وفى عهد هذا الملك شبت الثورات فى أجزاء متفرقة من الدولة الآشورية وامتنعت الضرائب عن الصب فى خزانة العاصمة وازداد الأمر سوءا حينما قامت ثورة أخرى عام ٧٤٦ ق . م فى العاصمة نفسها فى عهد أحد خلفاء إداد نيرارى الثالث ، الذى قتل مع جميع أفراد الأسرة المالكة .

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن الثورة التى أطاحت بالأسرة الملكية الآشورية قد جاءت إلى العرش بحاكم آشورى وهو تيجلات بيليسر الثالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧ ق . م) . لقد جاء هذا الملك فى فترة انهيار الدولة الآشورية الأولى . وقد أعاد هذا الملك إلى آشور هيبتها وكرامتها بفضل ما قام به من إصلاحات فى المجال العسكرى والإدارى ، وكان آخر أعماله القضاء على ثورات دويلات المدن السورية المتحالفة مع مملكة إسرائيل ضد آشور ، وكذلك قبائل الأرمن الموجودة إلى الجنوب .

وفى المجال الداخلى قام بتقسيم المملكة إلى مقاطعة والمقاطعة إلى وحدات إدارية لها حاكم مسئول أمام حاكم المقاطعة .

وقد أعقب هذا الملك أحد أبنائه الذى مات تاركا الحكم لسرجون الثانى .

سرجون الثانى (٧٢١ ــ ٧٠٥ ق . م) :

من المحتمل أنه كان القائد العسكرى لجيوش الملك الراحل ، وقد تجددت فى عهده الاضطرابات فى بابل التى تحالفت مع عيلام ضد آشور وكذلك هجمات القبائل الكلدانية ، وثورة الدويلات السورية .

---

(١) هكذا كانت بلاد الشرق مسرحا لعمليات عسكرية متواصلة ، الهدف منها مادى بحت ، ضم أرض الغير ، الانفراد بلواء الزعامة ، الاستعلاء فى الأرض . ويسبق ذلك كله غزو الشعوب الآمنة ، وتيتيم الأطفال وترميل النساء ....

(٢) تحدثت عنها النصوص الإغريقية باسم سميز أميس واسمها يعنى « محبوبة الحمامة » .

وقد واجه أيضا حلفا من أشدود (على شاطىء جنوب فلسطين) ومصر ومملكة إسرائيل وأدوم عام ٧١٢ ق . م . وذلك بالإضافة إلى المشكلة الكبرى وهى ضغط الأورارتو (قبائل مهاجرة إلى الجنوب والمغرب جاءت من الاستبس الروسى) .

ولقد أمضى ذلك الملك طيلة حكمه التى بلغت ستة عشر عاماً فى الحروب للقضاء على الثورات وذلك بالإضافة إلى أعمال البناء والتشييد التى أهمها بناء عاصمة جديدة شمال مدينة نينوى سَمَّاها دور شاروكين [١] .

سيناخريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ ق . م) :

وهو ابن سرجون . وقد قام بإعادة بناء العاصمة القديمة نينوى ليتخذها عاصمة له ، مع بقاء دور شاروكين كقلعة فقط .

وواجه هذا الملك ثورة فى بابل بتحريض من الكلدانيين والأرمن وبتعضيد من عيلام ، فقام على الفور بمواجهة جيوش المنشقين فى كيش واسترد سيطرة آشور هناك . كما واجه ثورة أخرى فى فلسطين حيث توجهت قواته وحاصرت « القدس » عاصمة مملكة يهوذا[*] فى عهد ملكها حزقيا ولكن حملته لم تفلح فى إطفاء جذوة هذه الثورة . وعادت الجيوش مرة ثانية إلى العيلاميين لتدمر مدنهم ، وتؤدب أتباع ملك يهوذا المتمركزين فى بابل . وحطمها وقضى عليها . وقد اغتيل هذا الملك فى مدينة بابل على أيدى أبنائه وجاء بعده ابنه المدعو اسرحدون والذى كان معينا من قبل والده على مدينة بابل قبل وفاته عام ٦٨٩ ق . م وقد لاحظ هذا الملك أن مصر ما تفتأ تؤلب البلاد ضد آشور مثل تأليبها مدينة صور وكذلك محاولتها السيطرة على سورية وفلسطين ، أو إثارة هذه المدن ضد آشور . لذلك فقد قام اسرحدون بتجهيز عدة حملات حربية ضد مصر أولها عام ٦٧٤ ق . م والثانية ٦٧١ ق . م التى نجحت فى الوصول إلى العاصمة المصرية منف واحتلالها . وأطلق اسرحدون على نفسه لقب « ملك مصر العليا والسفلى » .

ولكن مصر ثارت عليه ، لذلك أراد العودة إليها لتأديب الثوار ولكن وافته المنية قبل

---

(١) مصر والعراق ، ص ٥٢٥ .

(*) وكتاب التاريخ القديم يعتمدون هنا على العهد القديم المحرف ، ونورد هنا وجهة نظر كتاب التاريخ القديم للأسباب التى أوردناها سابقا ، وإن كنا نؤمن بأن هذه المعلومات تقع فى دائرة العلم الذى لا ينفع رغم أنها تدرس فى دور العلم . انظر ضوابط العلم ومنهج تلقيه . وعرض الأحداث بهذا النحو فى كتب التاريخ القديم قصد =

تحقيق رغبته .

آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق . م) :

من أهم أعماله الرئيسية حملته العسكرية ضد مصر للقضاء على ثورتها ضد آشور ، وكانت من نتائج هذه الحملة وصول الآشوريين إلى منطقة طيبة فى مصر العليا . ولقد عاد الملك الآشورى إلى بلده بعد أن ترك حاميات آشورية عسكرية فى مناطق مصر المختلفة ، ولكن آشور لم تستطع السيطرة على مصر لفترة طويلة حيث نجت ثوراتها بقيادة مليكها بسماتيك فى طرد القوات الآشورية عام ٦٥٥ ق . م وأثناء حكم آشور بانيبال سقطت العاصمة نينوى فى يد الميديين الذين أحرقوها وقامت ضده ثورات فى فلسطين وفى مملكة يهوذا وذلك بالإضافة إلى ثورة الدويلات السورية وكذلك الكلدانيين والعيلاميين[١] .

كل هذه القوى لم يكن وقع ثوراتها على نفس الملك بأشد من وقع خبر خيانة أخيه الذى كان يتفاوض سرا مع هؤلاء الأعداء ، فتحارب الأخوان وانتهى الأمر بانتحار آشور بانيبال تحت ضغط معاونى أخيه .

خلفاء آشور بانيبال :

جاء بعده ولده عام ٦٢٦ ق . م وهو العام الذى استقلت فيه بابل بزعامة أحد الكلدانيين[٢] المسمى نبوبولاسر وبعده جاء أحد الملوك الذى سقطت فى عهده العاصمة نينوى فى يد الميديين الذين أحرقوها عام ٦١٢ ق . م ، ومات الملك الآشورى محروقا ، وفرت فلول الجيش الآشورى إلى أعالى الفرات لتجتمع بقيادة أحد أفراد الأسرة المالكة الآشورية فى حران [٣] .

= به خدمة مخطط اليهود وأطماعهم فى إقامة قاعدة لهم تمتد من الفرات إلى النيل ، وقد بينا ذلك فى رسالتنا : ليس لليهود حق فى فلسطين ، ط . دار الوفاء .

(١) معلومة مستقاة من كتب التاريخ وهى غير موثقة لأنها تعتمد على التوراة المحرفة .

(٢) الكلدانيون فرع من الآراميين الرعاة الذين بدأوا يرتون بأبصارهم إلى ضفاف الفرات منذ القرن الرابع عشر ق . م تقريبا .

(٣) مصر والعراق ، ج ١ ، ص ٥٢٨ .

بابل الكلدانية
أو
الدولة البابلية الحديثة (٦٢٥ ــ ٥٣٩ ق . م)

ولقد انحصرت جهود نبوبولاسر (٦٢٥) فى نينوى بعد ذلك فى محاولة استعادة السيطرة على مايمكن السيطرة عليه من أملاك الدولة الآشورية ، ولذلك استعمل هذا الملك قواته فى احتلال المنطقة حول نصيبين غرب آشور وآشور الوسطى والمناطق على امتداد وسط الفرات .

وحاول كذلك السيطرة على مايمكن السيطرة عليه من أراضى أوراتيا وكذلك دويلات سوريا . وأهم حدث بارز فى عهد هذا الملك هو الصدام العسكرى بين هذا الملك البابلى وبين جيوش مصر التى كانت تبغى السيطرة على فلسطين والمدن الساحلية كدويلات سورية . وقد كان ذلك بالقرب من مدينة قرقميش حيث هزم الجيش المصرى واستعاد الملك البابلى السيطرة على معظم دويلات فلسطين وسورية [١] .

نبوخذ نصر الثانى (٦٠٥ ــ ٥٦٢ ق . م) :

وأهم حملة عسكرية قادها هذا الملك كانت موجهة ضد ما أسماه كتاب التاريخ مملكة يهوذا التى مابرحت تكيد له . فاحتل بيت المقدس عام ٥٩٥ ق . م وأعقبها بحملة أخرى عام ٥٨٥ دمر فيها بيت المقدس وأنزل بها أبشع أنواع التدمير .

وجاء بعد هذا الملك عدة حكام لم يستطيعوا أن يصمدوا فى وجه عوامل الضعف التى بدأت تنخر فى عظام هذه الدولة . وانتهى حكمهم عام ٥٣٩ ق . م حينما خضعت بابل للغزو الفارسى وبقيت تحت سيطرة الدولة الفارسية حتى جاء الإسكندر وخلصها من حكمهم مستوليا على بابل عام ٣٣١ ق . م [٢] .

---

(١) مصر والعراق ، ص ٥٤٢ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع ، ص ٥٥٠ وكما قلنا هذه معلومات واردة فى مراجع التاريخ القديم لانملك تصديقها ، لأنها تعتمد على روايات التوراة المحرفة ، وهى بصورتها الراهنة تخدم اليهود ورغبتهم فى اغتصاب ديار العالم العربى ولهذا يجب مراجعة هذه المناهج ، واستبعاد هذه المسائل غير الموثقة لأنها تاريخ مزور .

obeikandl.com

الفصل السادس

شبهات حول الإسلام
أثارها
كُتاب مايسمى بالتاريخ القديم
مِنْ المستشرقين ومن سار على نهجهم
أرض الرافدين (العراق)

تمهيـد :

أثارت مراجع ما يسمى بالتاريخ القديم التى كتبها المستشرقون ومن سار على نهجهم **شبهات حول الإسلام** ورب **الإسلام** ، شبهات حول الدين والسلوك والتشريع والطوفان .

ومما لاشك فيه أن تبنى هذه الشبهات ودراستها وتدريسها على هذا النحو يؤذى البشرية التى من مصلحتها أن تعرف حقيقة هذه المسائل على وجهها الصحيح ، لأن معرفتها على وجهها الصحيح يمكن أن يعين البشرية الضالة على العودة إلى ربها وإسلامها .

ولو كانت هذه الشبهات تتردد على ألسنة وفى كتابات غير المسلمين فقط لأمكن القول بيقين أن حقدهم على الإسلام هو الذى يحرك فيهم الهجوم على الإسلام وعلى الأمة المسلمة للنيل من عقيدتها وإسلامها وردّها عن دينها ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم** ﴾ (١) ، ولكن الذى يزيد الأمر تفاقما أن أساتذة التاريخ (ومنهم بعض أساتذتنا وإخواننا) يرددون نفس الشبهات وما كان لهم أن يفعلوا ذلك ، لأسباب كثيرة أهمها أن الإسلام الذى يدينون به يعصمهم من ذلك .

---

(١) البقرة : ٢١٧ .

ومن هنا ـــ وجب علينا عرض نماذج من هذه الشبهات مع دحضها والرد عليها فى ضوء الدراسات التى وفقنا الله إلى القيام بها عن تاريخ الأمة الواحدة ، اعتمادا على القرآن الكريم وسنة النبى محمد ﷺ ثم كتابات التاريخ القديم ، آملين من أساتذة التاريخ القديم أن يراجعوا ماكتبوا فى هذا الشأن ، ويصححوه التصحيح الواجب الذى لا تعارض فيه مع الكتاب والسنة ، أداء لواجب الشهادة فالله يقول : ﴿ **وأقيموا الشهادة لله** ﴾ ، وأداء لواجب الحفاظ على دين الله رائقا عذبا لا تشوبه شائبة ، وأداء لواجب البلاغ وأمراً بالمعروف ونهيا عن المنكر وحماية لبنات وأبناء آدم عليه السلام من رضاعة هذا الفكر الفاسد الوارد فى مراجع التاريخ القديم ، والذى يترتب عليه بوضعه الراهن تربية أجيال لا تعرف لها ربًا ولا ترتضى لها دينا ، بل وتخدم مخطط الأعداء وأطماعهم فى العراق ومصر وجزيرة العرب وبلاد الشام .

الدين والتشريع والطوفان فى حياة أهل الرافدين (العراق)
من خلال ما كتبه المستشرقون ومن نهج نهجهم
مع دحض الشبهات والرد عليها
فى ضوء العقيدة الإسلامية

أولا: رأى دى بورج فى كتابه « تراث العالم القديم » ترجمة زكى سوس :

« كانت ثقافة بابل وآشور التاريخية سامية ولو أنه قبل هبوط الساميين من بلاد العرب ، أنشأت القبائل الوطنية مدينة بالسومرية (سومر كلديا الجنوبية) ووضعوا أسس الدين[1] واللغة والقانون والرى والحياة المتحضرة التى ظلت أمدا طويلا بعد أن وطد الساميون سيادتهم » (ص ٣٩) .

« ولقد كان حمورابى أعظم ملك فى هذه الأسرة ، هو الذى ركز العبادات الدينية المحلية فى كلديا فى عبادة مردوك الإله ـــ الراعى ، لبابل » .

« وقد نظم حمورابى المذهب الإدارى للامبراطورية وأخضع عيلام إلى الشرق وآشور إلى الشمال وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط وتقوم الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التى تضم ألواح عقود ورسائل ملكية ، ولكن أهم أثر تذكارى لحكمه هو مدونة القوانين التى كشف عنها فى السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون فى سوس » .

---

(١) الكاتب هنا يتبنى القول بأن الدين من اختراع العقل البشرى ، بينما الدين هو ماارتضاه الله لبنى آدم وهو الإسلام ، وأرسل به الرسل والأنبياء ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ ولقد تبين من دراستنا أن الإنسان مولود على الفطرة على التوحيد على الإسلام ﴿ **فطرة الله التى فطر الناس عليها** ﴾ وأن آدم عليه السلام كان نبيا مسلما أى أن الأصل فى البشرية التوحيد والإسلام ، والوثنية والشرك شىء عارض فى حياتها .

« وهذه المدونة ـــ أحكام الاستقامة التى وضعها حمورابى ، الملك العظيم ـــ نظمت فى دقة وإحكام القانون المدنى فى بابل ويشمل الملكية والعقود والزراعة والتجارة وأعمال المصارف والزواج والتبنى والإرث وكذلك سير المرافعات القضائية ، وتشهد على المكانة الهامة التى كانت بابل قد وصلت إليها فى تجارب الأمم . وهى تكون مذهبا محكما لقانون الدولة ، ولو أن آثارا منها ترجع إلى ما **جرت عليه العادات الأولى مثل قانون حكم الله والقصاص بالمثل (العين بالعين) ، وهى تمثل تقدما عظيما بالقياس إلى قانون العادات فى المجتمعات الأولى . وقد حرم الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعه المثل بالمثل على إجراءات المحاكم المقررة** ، والناس من كل الطبقات ، الغريب والمولود فى البلاد ، على السواء تنتظمهم حماية القانون . ومن الطرافة بمكان بالغ أن تقرأ كيف أن أمثال هذه المسائل الحديثة كالإعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكية **والتعويض عن التحسينات** الزراعية ورقابة تجارة الخمور ، وودائع المصارف ، والمسئولية عن ديون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال نظمها هذا الحاكم البابلى فى ختام السنوات الألف الثالثة ق . م . وبامتداد المدنية البابلية إلى سوريا وفلسطين فإن **مدونة قوانين حمورابى والقانون** الذى جاء بعد ذلك مستندا إليها **وضعا طابعها على تشريع الساميين الغربيين وظلت المدونة نفسها نافذة المفعول زمنا مديدا فى العهد المسيحى وأثرت بعد ذلك على شرائع غزاة الشرق المسلمين**(١) . **وغدا يبرز البابليون كقوة تعمل** على بسط المدنية فى آسيا الغربية ،

---

(١) العجيب ان المستشرق دى بورج صور حمورابى على أنه مشرك بالله رب العالمين ، وهذا أمر لا يملك دليلا عليه ، خاصة وأن النصب المدون عليه قانون حمورابي ، تصور حمورابي ، وهو يتلقى الإذن من رب العدالة لإصدار قوانين ، حقيقة لا يجوز تصوير الإله على هيئة الإنسان لأن هذا كفر فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله كشيء ، وليس له ند ولا نظير ، ولكن هذا اعتراف صريح بأن حكام ذلك الزمان لم يكن يجرؤ أحد منهم على ادعاء حق التشريع لأن التشريع حق الله ﴿ **إن الحكم إلا لله**﴾ الأنعام ٥٧ ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها** ﴾ الجاثية ١٨ .

ويزعم الكاتب الذى يتبنى منهج مقارنة الأديان وهو أن الدين من اختراع العقل البشرى ، وبهذا يهدر وجود الله رب العالمين ، ويهدر الوحى والرسل ـ يزعم أن تشريعات حمورابى قد أثرت بعد ذلك على شرائع غزاة الشرق للمسلمين . لقد تجاهل المستشرق أن تشريعات الله سبحانه وتعالى فى القصاص وغيرها ، هى تشريعات ربانية نزل بها الوحي الأمين من عند الله عز وجل ، وأنه إذا كان هنالك تشابه بين تشريعات **الإسلام التى** نزل بها **الوحى** الأمين على رسول الله محمد ﷺ والتشريعات التى دوَّنها حمورابي على النصب ، فالسبب يرجع إلى كون حمورابي جاء فى وقت لاحق لبعثة إبراهيم عليه السلام وقبلها بعثة نوح على أرض الرافدين كما بينا ، وكلتا الرسالتين دعتا إلى الإسلام كما بينا ، الإسلام عقيدة وشريعة ، والشريعة وحى من السماء ، فذلك يعنى ماجاء فى مدونة حمورابى موافقا لشريعة الإسلام عن القصاص للرسالات السماوية التى سبقتها ، ليست من اختراع عقل حمورابى ، وليست هى التى أثرت فى تشريعات الإسلام ، وإنما هى وتشريعات الإسلام مصدرهما من الله رب العالمين .

وانتشرت فى كل ربوع الشرق لغتهم وعملتهم ومعايير أوزانهم . وكانت نساؤهم يستمتعن بمركز قانونى توفرت فيه الكرامة لهن . وكان فى قدرة الإنسان أن يمتطى متن دابته فى أمان من الخليج الفارسى إلى البحر المتوسط تحت حماية قوانين حمورابى .

« وتنهض ثلاث مسائل فيما يتعلق بتأثير الثقافة البابلية على أهم مدنيات الأمم القديمة . أولا يوجد تشابه وثيق بين تقاليد البابليين الدينية وتقاليد العبريين كما جاءت مدونة فى الفصول الأولى من سفر التكوين وفيها تقرأ عن جنة عدن والطوفان والتابوت وعن برج بابل وتبلبل الألسنة . وقد سرد العبريون كيف أن أجدادهم فى مرحلة بداوة قطنوا مدة من الزمان بكلديا . ومن العسير أن نحكم حكما قاطعا عن مدى رجوع هذه القرابة فى التقاليد إلى الاتصال المباشر مع بابل فى الأزمنة البعيدة ، وإلى أى مدى للاختلاط الذى حدث بعد ذلك مع شعوب كنعان الذين تمثلوا ، على اليقين ، ديانة بابل المتأخرة وإلى أى مدى ، مرة أخرى ، للاتصال المباشر زمن الأسر ومهما يكن من أمر هذا ، فيما يتصل بتفصيلات التقاليد الدينية العبرية وفرائضهم ، تبقى الحقيقة الواقعة وهى أن تطور ديانة العبريين على أيدى النبيين [1] إلى ديانة توحيد روحية كان خلقا مبتكرا متميزا جاءت به العبقرية الدينية العبرية كما كانت فلسفات أفلاطون وأرسطو التى جاءت بها عبقرية اليونان العقلية (ص ٣٩ ــ ٤٤) .

ثانيا : رأى الدكتور محمد عبد المنعم أبو بكر فى كتابه « حضارة مصر والشرق القديم » (ص ٢٧٦ ، ٣٠٢) :

« ولقد اعتقد السومريون فى حياة بعد الموت » . ولم نجد عند البابليين من الأدلة ما يجعلنا نعتقد أنهم عرفوا التوحيد فى أى عصر من عصورهم كما كان الحال فى مصر ، وخاصة فى عصر الملك اخناتون » (صفحة ٣١١) .

---

(١) هُنا الكاتب يتبنّى منهج مقارنة الأديان ويزعم أن الدين من اختراع العقل البشرى ، وأن النبوة ليست اختياراً أو وحيا من عند الله ، وأن الأنبياء طوروا العقائد البشرية الوثنية إلى عقيدة توحيد ... ومعنى ذلك أن المستشرق أسقط الوحى وتجاهل الله رب العالمين ، وقرن الأنبياء بالفلاسفة وشبه الدين بفلسفة الفلاسفة اليونان .

ولقد بينا فى دراستنا فساد هذا المنهج ونتائجه فى دراسات سابقة (ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى ، تأليف دكتور جمال عبد الهادى ، ودكتورة وفاء محمد رفعت ، الإسلام دين الله فى الأرض والسماء ، طبعة دار الوفاء بالمنصورة ، وطبعة دار طيبة بالرياض) .

كما أن الوثائق السومرية تقول :

« إن شعب السومير سكن هذه المناطق منذ أول الخليقة ولم يكن الناس قد عرفوا بعد إقامة الحكومات وذلك لأن بدائيتهم حتمت هذا ولا غرابة ..

ولقد نزل نظام الحكم من السماء (صفحة ٢٦٩ ــ ٢٧٠) وقام ثمانية آلهة بالحكم فى ثمان مدن مختلفة وحكم كل منهم عددا من السنين يزيد على الألف ثم انتهى حكمهم بحدوث الطوفان الذى عم العالم كله وأهلك الحرث والنسل »(١) .

وهذه هى المرة الأولى التى تحدثت وثائق قديمة شعبية عن الطوفان بجانب الكتب السماوية وكان فى هذا دافع قوى لبعض العلماء أن يحاولوا استقصاء الأمر بطريقة علمية وتفرغ لهذه الدراسة حاكم اسمه « هيليون » قام بمقارنة كل النصوص البابلية التى ذكرت الطوفان وفحصها فحصا دقيقا على ضوء ما ورد عن هذا الحادث فى الكتب السماوية وهو يؤكد أن هذه الوثائق كلها ــ مع وجود بعض الاختلافات من حيث وصف الطوفان ونتائجه ومسبباته ــ ترجع إلى أصل واحد تناقلته الأجيال وتحدثت عنه أفواه الناس إلى أن تعلموا الكتابة فسجلوه فى أكثر من وثيقة وانتهى « هيليون » إلى تحديد تاريخ حدوث الطوفان فى القرن الأربعين قبل الميلاد .

ومن الطريف حقا أن تسجل الأبحاث العلمية التى جرت فى أكثر من مكان فى بلاد العراق ظواهر تكاد تثبت حدوث فيضان كاسح حوالى منتصف القرن الأربعين قبل الميلاد وذلك أن المنقبين عثروا على طبقة طمية سمكها نصف متر اختلطت فيها كميات كبيرة من القواقع والأسماك التى تعيش فى المياه العذبة وذلك على عمق يزيد على الثمانية أمتار أسفل التل الذى حوى أطلال مدينة « كيش » الغارقة فى القدم .

---

(١) وهكذا نلمح الدراسات الأثرية الحديثة تؤكد جملة حقائق واردة وواضحة كل الوضوح فى المصادر الإسلامية وهى :
أولا : أن شعب السومر قد سكن أرض الرافدين منذ أول الخليقة ، فهو جزء من القرون العشرة التى كانت بين آدم ونوح عليهما السلام على الإسلام .
ثانيا : أن نظام حكم نزل من السماء ، وهذا صحيح فآدم عليه السلام قد تلقى الإسلام عقيدة وشريعة عن الوحى عن الله عز وجل ، ونصب الله آدم عليه السلام خليفة فى الأرض ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ .
ثالثا : أن الفترة بين آدم ونوح ، عشرة قرون كلهم فى الإسلام ، والنصوص السومرية تقول : إنها ثمانية آلاف .
رابعا : تثبت النصوص السومرية أن الجيل الأول ، جيل آدم ونوح عليهما السلام كان يُعَمِّر أكثر من ألف سنة .
خامسا : أن الطوفان الذى أهلك الله به أهل الرافدين وغيرهم من العصاة حقيقة إسلامية . وصدق الله القائل ﴿ **علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾ .

كما أن « وولى » عثر أسفل أطلال مدينة « أور » القديمة على طبقة طمية سمكها متران ونصف ثم عثر أسفلها على طبقة أخرى تحوى مخلفات بشرية يمكن إرجاعها تاريخيا إلى عصر حضارة « العبيد » . غير هذا سجل العلماء أيضا فى مكان آخر يبعد عن مدينة « أور » بحوالى نصف كيلو متر وجود طبقة من نفس الطمى يبلغ سمكها ٣,٧٠ متر . وهكذا تتعاون الأبحاث الأثرية فى إثبات ماورد على أفواه الناس وسجلته بعض الوثائق القديمة .

وإذا كانت الوثائق البابلية السالفة الذكر قد تحدثت عن العصور السابقة على الطوفان بتلك المبالغة فإنها أخذت تسرد علينا أخبار الأسرات الحاكمة بعد الطوفان بشكل أكثر اعتدالا فذكرت أسماء ٢٣ ملكا للأسرة الأولى لمدينة كيش ثم اتبعتها بأسماء ١٢ ملكا للأسرة الأولى لمدينة « أوروك » ويود العلماء أن يعينوا عام ٣٠٠٠ ق . م لهذه الأسرة الأخيرة ونحن جميعا نترقب نتائج أعمال الحفر والتنقيب فى أطلال هاتين المدينتين لعلها تكشف لنا النقاب عن الأحداث التى كانت تجرى إبان هذه الفترة .

ثالثا : رأى الدكتور عبد الحميد زايد فى كتابه « الشرق الخالد » :

« لم يكن التوحيد الذى ظهر فى الشرق هو من العبادات المفضلة فقط ، بل هو طريق الحياة الصحيحة . آمن المصريون بالإله الواحد ، ولم تكن تلك الدعوة رسالة من السماء[1] ، وربما ظهرت فى وقت لم يكن قد استعد فيه الإنسان بعد لنبذ تعدد الآلهة .

(١) يتبنى الأستاذ الدكتور المنهج الاستشراق ، فهو يزعم أن المصريين قد آمنوا بالإله الواحد دون رسالة حملها الرسل من عند الله ، ويزعم بأن الإيمان بالإله الواحد قد حدث فى وقت لم يكن الناس قد استعدت لنبذ تعدد الآلهة أى أن الأستاذ الدكتور قد حكم على شعب مصر بالشرك منذ أقدم العصور ، وزعم أيضا أن عقيدة التوحيد نبتت على أرض مصر وأنها انتقلت إلى بلاد الشرق حيث ظهرت دعوة إبراهيم للوحدانية ... وهذا يعنى كما هو واضح - أن التوحيد من اختراع عقل الشعب المصرى ، وأنّ إبراهيم عليه السلام تأثر بهذه العقيدة التى نبتت على أرض مصر .

ولقد بيّنا أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون كلّه وفطره على التوحيد والإسلام ، وخلق آدم مفطورا على الإسلام والتوحيد ، وأنه سبحانه وتعالى قد أخذ العهد على ذريته بالتوحيد : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ الأعراف : ١٧٢ ــ ١٧٣ وكل مولود يولد على الفطرة كما بين رسول الله محمد ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » إذن الأصل فى بنى آدم التوحيد والذى فطرهم على التوحيد هو الله رب العالمين .

ودعوة إبراهيم عليه السلام كما بينا اصطفاء ووحى من الله رب العالمين ، فإبراهيم عليه السلام مولود ومفطور =

لقد كانت دعوة أخناتون للوحدانية فى هيئة مراسيم صدرت من قصره ، انطفأت بعد قليل بمراسيم ممن جاءوا من بعده من آل فرعون .

ومما لا جدال فيه أن تعدد الآلهة قد سرى من مصر إلى أقطار الشرق الأدنى أو العكس ، ومما لا جدال فيه أن عقيدة التوحيد قد نبتت فى مصر ، وانتقل ظهورها من وادى النيل فى صورة من الصور إلى بلاد الشرق ، حيث ظهرت دعوة إبراهيم للوحدانية وجاء من ورائه نبوات أخرى (ص — ب) .

ولكننى سأتعرض فى كثير من الأحيان إلى ما جاء فى كتب السماء ، وذلك لأن طبيعة دراسة بعض فترات تاريخ الشرق الأدنى القديم تحتم علينا النظر فيما نزل من السماوات من كتب مصدقة » (١) .

« الطوفان : وقد اتحدت الظواهر الطبيعية على إحداث الطوفان(٢) ، فغزارة الأمطار وانفجار ينابيع المياه الواردة فى التوراة تشابهت مع ماجاء فى النصوص السومرية البابلية » ، ثم يقول المؤلف : « ليس من شك فى حدوث مثل هذا الطوفان فى وادى الرافدين الذى يعرف بفيضاناته الفجائية ، ومن الجائز أن الطوفان المعروف لدينا كان فيضانا كبيرا بقى فى وعى الزمن (ص ١١) .

على توحيد الله رب العالمين ، كما أن الله أكرمه بالرسالة والوحى ، إذن الرسالة ليست نتيجة تأثر شخصى منه بالتوحيد الذى يزعم الأستاذ الدكتور أنها نبتت على أرض مصر .

آمل أن يقوم الأستاذ الدكتور عبد الحميد زايد بتصحيح هذه المعلومات الواردة فى كتابه ، لأن بقاءها على هذا الوضع يؤذى البشرية فى حاضرها ومستقبلها ويؤدى إلى تربية أجيال تكفر بدين الله الذى نزل به الوحى وأرسل به الرسل .

(١) ليس هنالك سوى كتاب واحد مصدق حفظه الله من التحريف وهو القرآن الكريم ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

(٢) كيف يسمح الأستاذ الدكتور لنفسه أن يردد ماقاله المستشرقون أن الظواهر الطبيعية اتّحدت على إحداث الطوفان ، هل الظواهر تعقل ، أم أنها من خلق الله وهى مستسلمة لله رب العالمين ، وهى من جند الله . والله يقول : ﴿ **فدعا ربَّه أنّى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾ من الذى فجر الأرض عيونا ؟ وأنزل من السماء ماء ليطهر به الأرض من الكافرين الملحدين ؟ إنه الله رب العالمين أى أنه لم يكن فيضانا فجائيا كغيره من الفيضانات وإنما هو فيضان أجراه الله فى وقت معين لأداء واجب معين وهو التدمير على الكافرين وأنه يقول : ﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدّكر** ﴾ .

« نظرة عابرة فى الحضارة السومرية : كان السومريون يعتقدون أن الإنسان خلق لخدمة الآلهة ، وهكذا فى الديانات السماوية مثل الإسلام الذى جاء فى قرآنه ما يفيد أن الله ما خلق الجن والإنسان إلا ليعبدوه »[1] . (ص ٤٩) .

« إن دراسة ديانة أهل الرافدين الأقدمين هى الركن الأول من أركان الحضارة التى ظهرت فى وادى دجلة والفرات » .

« إن أول ديانة ظهرت للإنسان غالبا ما تكون فى نهاية العصر الحجرى[2] الحديث وقد مثلت فيها آلهة الأرض والخصب . كانت الظواهر الطبيعية لها أثرها فى ديانة وادى الرافدين ، وقد انعكست تلك البيئة القاسية على ديانة أهل البلاد الأقدمين ، واتخذت السماء والأرض مركز الصدارة فى الظواهر الطبيعية » .

« وأهم مصادر الديانة الرافدية [3] : الأساطير والقصص مثل أسطورة الخليقة وقصة جلجاش ، وإرشادات عن كيفية إقامة الشعائر الدينية وعن بناء المعابد وإقامة الطقوس الدينية فيها ، وكذلك التعاويذ والرقى ونصوص التنبؤ والتنجيم وإثبات الآلهة والوثائق الخاصة بإدارة دور العبادة وأملاكها » .

« وواضح من تاريخ ديانة أهل الرافدين خصوصا عند ما تم نضوجها فى الألف الثالثة ق . م ، عدم تغيير أسسها تغييرا واضحا . فالظواهر الطبيعية التى قدسها البابليون هى نفسها التى قدسها الآشوريون . وثمة ظاهرة واضحة فى الديانة البابلية هى تعدد الآلهة وقد كثرت بحيث أنها تملأ مجلدا كبيرا ، كان لكل فرد إله خاص به ، وكان لكل ظاهرة طبيعية إله ، ولكل منطقة من الكون إله أو مجموعة من الآلهة . ولم يعرف البابليون

---

(١) حقيقة إن القرآن ورد فيه ﴿ **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ وكون هذا الاعتقاد كان موجوداً لدى السومريين ، فسبب ذلك لأن السومريين كانوا كما بينا من سلالة الناجين من الطوفان أى سلالة المسلمين ، والمسلم يعرف ربه ويعرف أنه قد خلقه لغاية العبادة .

(٢) لقد بينا أن آدم عليه السلام ، أبا البشر الأول كان مسلماً موحداً ، أول دين عرفه وعرفته ذريته هو الإسلام وقد بينا ذلك فى دراستنا . أما مظاهر الوثنية التى يعتبرها الأستاذ الدكتور فهو شيء عارض ولم تكن هى ديانة كل أهل الرافدين كما بينا .

(٣) لماذا لم يضع الأستاذ الدكتور كتاب الله القرآن الكريم من بين مصادر الديانة الرافدية ، ألم يبعث نوح ، وإبراهيم ويونس على أرض الرافدين ؟.

التوحيد[1] . كما نسبوا إلى الآلهة صفات البشر من روحية ومادية من حيث وجود صور لهذه الآلهة وأعضاء كما هى عند الإنسان ، وقد تصوروا فى الآلهة كما كانت الحال فى بلاد الرافدين منذ فجر التاريخ ، لها مجالس شورى مقدسة تقرر فيها شئون الكون ، كما كانت الحال فى الديمقراطية التى كانت موجودة فى العصر الشبيه بالكتابى وفى بداية فجر الأسرات » (ص ١٣٨ — ١٣٩) .

« كانت آلهة الرافدين ظاهرة واضحة وهى علاقتها بظواهر الطبيعة والحياة » . (ص ١٤٣) .

« الإله سين » : سماه السومريون والبابليون « سين » وكذلك سمى « ننار » أو « ننا » (رجل السماء) . وكان يشترك مع الإله شمس رمز الشمس فى تصريف أمور القضاء . وقد ربط العراقيون القدامى بين سبب ظاهرة خسوف القمر وهو تمكن سبعة شياطين أو أرواح شريرة من القمر من أجل ذلك كانوا يقومون بتقديم القربان ويصلون حتى يعود القمر حالته الطبيعية ، وكان له رفيقة وزوجة ، وهى نينجال » .

« وجدير بالذكر أنه يسن على المسلم حين كسوف الشمس أو خسوف القمر أن يؤدى صلاة ، من المستحسن أن تكون جماعية يدعو فيها الله أن يذهب عنه وعن المسلمين الأذى . كل ذلك رواسب عاشت من الماضى البعيد وأبقى عليها الإسلام فليس لها أى ضرر على المجتمع وعلى العقيدة الإسلامية »[2](ص ١٤٦)

---

(١) وهكذا حكم الأستاذ الدكتور على أهل الرافدين بالشرك ، وهذا منهج خطير فى الحكم على عقائد الناس بهذه السهولة واليسر . هل إذا دخلنا المتحف المصرى مثلا ، أو صعدنا فى ميدان رمسيس أو الميادين المنصوب فيها التماثيل ، هل يعنى ذلك أن شعب مصر برمته يشرك بالله عز وجل ؟ حقيقة أن نصب التماثيل فى الشوارع والميادين غير جائز ، ولو كان إبراهيم عليه السلام أو محمد ﷺ يعيشان لحطّما هذه التماثيل ، ولكن لا يعنى ذلك أن شعب مصر بأكمله وثنى يتعبد إلى هذه الأوثان .

ولقد بينا أن أهل الرافدين بعث فيهم أنبياء ورسل ودعوا جميعا إلى التوحيد ، فمن الناس من آمن ومنهم من كفر ، فكيف يزعم الأستاذ الدكتور أن البابليين لم يعرفوا التوحيد .

(٢) إن هذا الذى يذكر الأستاذ الدكتور جد خطير ، فهو يزعم بأن صلاة الخسوف والكسوف مأخوذة عن السومريين أى أن العبادات وهى لله رب العالمين والصلاة ركن من أركانها من اختراع العقل البشرى .

وصلاة الكسوف سنة مؤكدة للحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل ، لا ينخسفان لموت أحد أو حياته فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة » . إذن هى عبادة مقننة مشروعة ، نزل بها الوحى الأمين على رسول الله محمد ﷺ . أى ليست مأخوذة عن السومريين . =

« الشرائع والقوانين » :

« لم تظهر القوانين والشرائع بشكل واضح عند شعب من الشعوب كما ظهرت فى وادى الرافدين . وكان يعتبر العراقيون القدماء أن الآلهة قد أوحت إلى الحكام إصدارها . فهذا حمورابى فى مقدمة شريعته يقول « لما عهد آنو » العظيم سيد الآلهة و « أنليل » رب السماء والأرض الذى بيده مصير البلاد إلى مردوخ بِكْر « أيا » أن يحكم جميع البشر انتدبنى آنذاك آنو وأنليل ، أنا حمورابى الأمير الكريم عابد الآلهة ، لأنشر العدل فى البلاد وأقضى على الشر والغش وأمنع القوى من اضطهاد الضعيف » (ص ١٧٧) .

« أما عن مبدأ السن بالسن والعين بالعين ، المعروف فى الشريعة الإسلامية والعبرانية وبعض شرائع أخرى فقد تشابهت شريعة حمورابى فى هذه الناحية إلى حد ما مع تلك الشرائع »[1] (ص ١٨٤) .

« إن شريعة حمورابى ترينا المدى الذى بلغه المجتمع السامى فى الألف الثانى قبل الميلاد فنجده يسن قوانينه ليحمى الضعيف من بطش القوى ويذود عن الأرامل واليتامى ، وسوف نرى أن المجتمع الإسرائيلى سيتأثر بشريعة حمورابى وإذا أضفنا إلى هذا أن أصحاب شريعة حمورابى قد نزلوا إلى أرض الرافدين من الجزيرة العربية وغالبا من جنوبها » .

« كما أن هناك صلة واضحة بين شريعة حمورابى وبين التشريعات العربية سواء أكانت مأخوذة من بنى مدين أم ما يسمى فى بعض الكتب كاهن مدين (يثرون) أم بتأثره بشريعة حمورابى كما سنرى فيما بعد . وقد عرف المجتمع الإسرائيلى هذه الشرائع قبل أن ينزل إلى فلسطين » .

« لقد بلغت الأمم التى نشأت فى بلاد الرافدين شأوا بعيدا من الحضارة والثقافة فتشريعاتهم فيها طابع الإنسانية العالمية بينما نجد المجتمع الإسرائيلى لم ينهض برسالة عالمية مثل

إذن كيف يمكن تفسير قيام السومريين بالصلاة عند خسوف القمر كما زعم الأستاذ الدكتور ؟ الرد بسيط : هذا من بقايا الرسالات السماوية التى أرسلت إلى أهل الرافدين ، ومنها شرعت الصلوات ومنها صلاة الكسوف . أى أنه فى النهاية مصدر فرضية الصلاة أو سنتها هو الله رب العالمين .

إن تسى هذا الرأى الذى يفرضه كتاب الشرق الخالد ليسىء إلى الإسلام فى جانب العبادات ، وهذا أمر يجب على الأستاذ المؤلف أن يتداركه ويرجع عنه ويتوب إلى الله منه .

(١) ولقد بينا السبب فى ذلك التشابه ص ٢٢٤ هامش ١ .

ما نهض العربى البابلى . ومن تلك النقطة تستطيع أن تدرك مدى حرص الشريعة البابلية على الحفاظ على الملكية والضرب على أيدى المعتدين وتوقيع أقصى العقوبات ، أما التشريع الإسرائيلى فلم يبلغ مكانته العالمية » .

« وكتاب العهد عند الإسرائيليين يكاد يكون نسخة من تشريع حمورابى .

وينقسم كتاب العهد إلى قسمين مختلفين شكلا وموضوعا ، فالقسم الأول يعتنى بمواد القانون ، ويختص الثانى بالعقيدة . وأسلوب كتاب العهد لا يفترق عن أسلوب شريعة حمورابى ، فالجملة الشرطية فى شريعة حمورابى هى شرطية أيضا فى العبرية » .

(ص ١٨٧ — ١٨٨)

« تلك نظرة عابرة فى ديانة أهل الرافدين فى العصور القديمة ، ومنها يتبين تأثرهم بالظواهر الطبيعية وربطهم حياتهم الدينية بها ، وتقديسهم النساء والأرض والماء والهواء ، وهى عناصر الخلقة التى تقوم عليها . ومع وجود تشابه كبير بين الديانة الرافدية والفرعونية فى بعض أشكالها الخارجية إلا أنها تختلف عنها من حيث نظرة أهل الرافدين إلى حياة الآخرة ، فلم يكونوا يؤمنوا بوجود الجزاء والعقاب والبعث بعد الموت كما آمن المصريون[1] القدماء ، ولكنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان يكافأ على خير فعله فى تلك الحياة وتعاقبه الآلهة فى الدنيا إذا ما اقترف إثما أو فعل سيئة . كما اختلفت دور العبادة المصرية القديمة وقبور الفراعنة عن المنشآت الدينية والجنائزية الخاصة بأهل الرافدين .

لم تكن نظرة البابليين للكون كنظراتنا نحن من حيث وجود شطرين هما الحى والجماد ، بل نظروا لكل حجر وشجر وكل ما يخطر على البال على أنه يتمتع بإرادة ذاتية وله شخصية . فالكون لدى البابليون قد نسق على هيئة مجتمع أو دولة يتمتع أفرادها بديمقراطية »[2] . (ص ١٥٥) .

---

(١) كيف يجزم الأستاذ الدكتور أن أهل الرافدين لم يكونوا يؤمنون بالبعث والجزاء والحساب ، أليس هذا حكم على أمة بكاملها بالشرك ؟ ؟ إن أهل الرافدين جزء من الأمة المسلمة التى تنتسب إلى أبيها آدم عليه السلام ، وإلى أبيها نوح عليه السلام أبو البشر الثانى ، ومنهم بعث أنبياء ورسل دعوا الناس إلى الله رب العالمين ؛ وعرفوهم أن الإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب والعقاب والثواب جزء من عقيدة المسلم ؛ فكيف يزعم زاعم بأنهم لم يؤمنوا بوجود البعث بعد الموت ؟ ؟

(٢) آمل أن يرجع القارئ الكريم إلى فصل الكون المسلم ، لكى يدرك أن كل الحى والجماد ، كل يعرف ربَّه وخالقه ومولاه سبحانه وتعالى . .

رابعا : رأى الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح فى كتابه « الشرق الأدنى القديم »

جـ ١ ، مصر والعراق ، ط ١ ، القاهرة ١٩٧٣ [١] :

« العقائد: أخذ السومريون بتعدد الأرباب والربات شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من أصحاب الديانة الوضعية القديمة ، وسجلوا بعض أسماء أولئك الأرباب والربّات موجزة فى **نقوشهم** المبكرة ، ثم سجل خلفاؤهم لها ألقابا عدة فى أساطير مسهبة التزموا فيها بصورها القديمة أحيانا ، وذكروها بصور مستحدثة أحيانا أخرى » (ص ٣٩٥) .

« ويفهم مما سجله هؤلاء وهؤلاء أن ديانتهم كانت ديانة طبيعية فى مجملها ، وأن فقهاءهم تخيلوا السماء والأرض فى بداية أمرهما ملتصقتين [٢] يحيط بهما محيط مائى عظيم » (ص ٣٩٥) .

« وهكذا مضى السومريون فى تخيلاتهم ، وافترضوا لكل ظاهرة طبيعية ربا أو ربة ، وافترضوا لأربابهم صورا بشرية مضخمة وحياة تماثلها حياة البشر ، تزاوجوا فيها وتناسلوا ، وتحابوا وتخاصموا ، لولا أنها كانت حياة سرمدية ذات مقدرة مطلقة . واستقرت لأربابهم الكبار عبادات رئيسية فى مدن بعينها » (ص ٣٩٦) .

« وعلى نحو ما تخيل السومريون لمظاهر الطبيعة أربابا عديدين أطلقوا على كل منهم صفة « دنجر » بمعنى إله ، تخيلوا لوجوه حضارتهم أربابا ابتدعوها ورعوا أصحابها ، مثل « نابو » رب الكتابة . وردوا إلى أولئك الأرباب فضل إنشاء مدنهم وتنظيمها ووضع شرائعها ، ثم جمعوا إلى هؤلاء وهؤلاء أربابا صغارا محليين ، يشبهون الأولياء والقديسين ،

---

(١) والأستاذ الدكتور يعتمد هنا على ماكتبه هامرتن وآخرون ، تاريخ العالم ، جـ ٢ .

(٢) كون أن يوجد فى النصوص القديمة ما يشير إلى أن أهل الرافدين منذ آلاف السنين قد تخيلوا أن السماء والأرض فى بداية أمرهما ملتصقتين ، يحيط بهما محيط مائى عظيم ، فهذا يدعونا إلى ضرورة دراسة هذه النصوص فى ضوء قول الله تعالى : ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون** ﴾ الأنبياء آية : ٣٠ .

وكون أن إنسان هذه العصور المبكرة لديه هذا الفكر العلمى الراقى ، فلا يعنى ذلك سوى شيء واحد هو أن هذه حقيقة بينها الرسل والأنبياء الذين بعثوا فيهم أمثال نوح عليه السلام الذى قال لقومه : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا** ﴾ .

وذلك يعنى أن مصدر معرفة أهل الرافدين منذ أقدم العصور هى مصدر معرفة البشرية لهذه المعلومة من القرآن الكريم ، والمصدر هم الرسل عن الوحى من الله رب العالمين . إذن هذه المعلومة المدونة لدى أهل الرافدين دليل على أن توحيد الله رب العالمين ،أصيل فى حياة الرافدين .

اتخذهم الأفراد رعاة شخصيين وحماة وشفعاء لهم لدى أربابهم الكبار الذين تخيلوهم بعيدين عن مستوى دنياهم . ولم يكن أحدهم يجد بأسا من أن يعتبر معبوده الخاص أو معبود أسرته « راعيه الموكل به » و « ربه وأباه المقدس الذى أنجبه » (ص ٣٩٦) .

« وتصور السومريون أربابهم بهيئات بشرية (ص ٣٩٧) وبهيئات الحيوانات والطيور ، وصوروا أغلب رموزهم الحيوانية فى هيئات مركبة ، ومن ذلك القبيل أن رمزوا إلى معبودهم نين جيرسو بهيئة نسر مهيب بجناحين كبيرين ورأس أسد (أو رأس لبؤة) وكانوا إذا صوروه على هيئة بشرية جعلوا وجه الأسد شعارا لردائه أو لمقعد عرشه ، أو لموطىء قدميه » [١] (ص ٣٩٧) .

« وفى خلق البشر وأسبابه ، كانت للسومريين تقديرات طريفة تعتمد فى مجملها على الإيمان بأن الناس ما خلقوا إلا ليعبدوا الأرباب ويخدموهم ويوفروا القرابين لمعابدهم [٢] . وشاعت لهم فى هذا السبيل روايات شتى أغلبها مضطرب مختلط . ولكن يفهم من بعضها أن أربابهم عاشوا فى بداية خلقهم هائمين كالسوائم ، لا يقدرون على شىء من أمرهم ، حتى خلق الإله الأكبر الأنعام من أجلهم ووكل بها « لهار » وأنبت لهم الغلال ووكل بها « اشنان » (أخت لهار) ، فطعموا ونعموا ، ولكنهم لم يحسوا للشبع والرى طعما ، فاتجهوا بضراعتهم إلى الحكيم « انكى » الذى كان حتى ذلك الحين سادرا فى مياه العمق غير عابئ بهم ، ووسطوا لديه أمه نمو (روح الأمومة فى المحيط الأزلى) فبثت ضراعتهم إليه وقالت له فيما قالت « ... قم إذن يابنى ، ولنصنع شيئا لائقا ، لنصنع (بشرا) عبيدا للأرباب ...) ، فاستجاب لها وقال لها « أماه ، إن الكائن الذى نطقت باسمه موجود فاربطى عليه صورة الآلهة (؟) ، اضربى لب الطين الموجود فوق مياه العمق ، واجعلى أعوانك يكثفون الطين جيدا ، وشكلى أنت له أعضاءه وجوارحه ، وستعمل نماخ من فوق يدك .. ، قدرى مصيره يا أماه ، وستربط نماخ عليه صورة الآلهة ، ذلك هو الإنسان »[٣]

---

(١) وعرض عقيدة أهل الرافدين على هذا النحو يعنى الحكم عليهم بأنهم كانوا مشركين ، ولا يمكن تعميم هذا الحكم على جموع الأمة خاصة وقد بيَّنا فى دراستنا أن الأجيال التى كانت على الإسلام كانت تعيش فى بلاد الرافدين ، وبينا أن هناك رسالات سماوية دعت إلى الإسلام كلف الله الرسل بها ومنهم نوح وإبراهيم ويونس إلى أهل الرافدين .

(٢) بينا حقيقة هذه المسألة فيما تقدم .

(٣) إذا قارنا هذا النص مع ماورد فى قصة خلق آدم التى رواها لنا القرآن الكريم وسُنَّة النبى محمد ﷺ التى جاء فيها « ولا تضربوا الوجه فإن الله قد خلق آدم على صورته » أمكن أن نجزم أن النص هو عبارة عن قصة خلق آدم عليه =

تشريعات حمورابى :

« وقضى المشرع على من اتهم سيدة بسوء السلوك دون بينة أكيدة بحلق نصف شعره فى ساحة القضاء (١٢٧) . فإذا اتهمها زوجها ولم يقدم بينة واضحة على فجورها ، كفاها أن تقسم على طهرها أمام معبودها وتعود إلى دار زوجها (١٣١) . وهو ما أقرت الشريعة الإسلامية بما يشبهه »(١) . (ص ٤٦٢)

= السلام ، وإذا كان قد أدخل عليها التحريف ولكن مع ذلك فهى تؤكد حقيقة مهمة وهى أن الأمم ومنهم أمة الرافدين كان لديها خبر صحيح عن قصة الخلق ، خلق آدم عليه السلام عن الوحى عن الرسل عليهم السلام ، فهى إذن ليست من اختراع العقل البشرى ولكنها وحى ربّانى .

(١) فالشريعة حكمها لا يتشابه من قريب أو بعيد مع ماقاله الأستاذ الدكتور وللتعرف على حكم الإسلام فى الحالة التى أوردها الأستاذ الدكتور يستدعى منا الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله . يقول الله عز وجل : ﴿ **والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرؤا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين** ﴾ (سورة النور : ٦ ــ ٩)

وفى هذا يقول سيد قطب (فى ظلال القرآن) :

« وفى هذه النصوص تيسير على الأزواج ، يناسب دقة الحالة وحرج الموقف ذلك حين يطلع الزوج على فعلة زوجته ، وليس له من شاهد إلا نفسه . فعندئذ يحلف أربع مرات بالله إنه لصادق فى دعواه عليها بالزنا ، ويحلف يمينا خامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . وتسمى هذه شهادات لأنه الشاهد الوحيد . فإذا فعل أعطاها قدر مهرها ، وطلقت منه طلقة بائنة ، (ولا تعود إلى دار زوجها) ، وحق عليها حد الزنا وهو الرجم . وذلك . إلا أن ترغب فى درء الحد عنها فإنها عندئذ تحلف بالله أربع مرات إنه كاذب عليها فيما رماها به ، وتحلف يمينا خامسة بأن غضب الله عليها إن كان صادقا وهى كاذبة ... بذلك يدرأ عنها الحد ، وتبين من زوجها بالملاعنة ولا ينسب ولدها ــ إن كانت حاملا ــ إليه بل إليها . ولا يقذف الولد ومن يقذفه يحد .

وقد عقب على هذا التخفيف والتيسير ، ومراعاة الأحوال والظروف بقوله : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم** ﴾ .

ولم يبين ما الذى كان يكون لولا فضل الله ورحمته بمثل هذه التيسيرات وبالتوبة بعد مقارفة الذنوب ، لم يبينه ليتركه مجملا مرهوبا ، يتقيه المتقون . والنص يوحى بأنه شر عظيم » .

وكان بودنا أن نبين أسباب نزول هذا الحكم لولا ضيق المكان لأن المسألة تتعلق بحد من حدود الله وحكم من أحكام الشريعة .

obeikandl.com

الفصل السابع

نصوص باللغة المسمارية

تؤكد أصالة خط توحيد الله رب العالمين فى حياة أهل الرافدين [1]

المجموعة الأولى :

وترجع إلى بداية عصر الأسرات السومرية وترتبط باسم حاكم دويلة « لجش » المدعو « أور كاجينا »[2] ، وانصبت هذه الأحكام على :

(أ) الحد من نفوذ رجال الدين وخفض مرتباتهم .

(ب) منع الرشوة وعزل الموظفين المشبوهين .

(جـ) رعاية الأرامل واليتامى وحماية الفقراء من الأغنياء .

(د) منع اغتصاب أرزاق العباد .

(هـ) عدم السماح لأى شخص أن يشترى دارا تجاور داره إلا بعد أداء ثمن يرضى به صاحب الدار .

(و) تخفيض أجرة كاهن الدفن ـــ والعجيب أن ذلك الكاهن كان يتقاضى عن دفن الجثة سبع قدور من النبيذ و ٤٢٠ رغيفا وعدة أرائك[3] .

---

(١) هى مجموعة نصوص سومرية وأكدية وبابلية وآشورية ترجع إلى آلاف السنين .

(٢) مصر والعراق ، طبعة ٦٧ ، صفحة ٤٠٤ ـــ ٤٠٥ .

(٣) ولا شك أن هذه الإصلاحات شملت أوضاعا كانت سائدة ، مثل هذه الأوضاع تؤكد انحراف المجتمع عن أوامر الله عز وجل . ازدياد نفوذ رجال الدين دليل على تفشي الشرك في المجتمع ، وتفشي الرشوة ، وكثرة العاملين المشبوهين دليل عدم الانضباط مع أوامر الله ونظامه وشرعه ، وأنه ما كانت هنالك حدود تقام تردع العابثين وتسلط الأغنياء على الفقراء يؤكد أنه لم يكن هنالك وازع من دين أو خوف من إله رقيب حسيب .. وهذه هي سمات المجتمع الشارد عن هدى الله ، وقد وقعت وتحققت في مجتمع عصر بداية الأسرات السومرى ، أى ذرارى الأمة المسلمة التي نجت من الطوفان . ويبدو أن الشيطان قد نجح فى اجتيالها عن دينها وإسلامها . يؤكد ذلك تفشي شرب =

كما كان يتقاضى ضريبة فى جزّ صوف الغنم وعلى طلاق الرجل زوجته وقد أعلن أور كاجينا فى إحدى لوحات التشريعات . « كيف أقر ربه بأسه فى قلوب ستة وثلاثين ألفا من رعاياه (أى أمَّره أو حكَّمه عليهم) ، وكيف وفقه الله إلى أن يسير على هديه »[1] .

المجموعة الثانية :

وترجع إلى عصر إحياء الدولة السومرية (٢١٢٥ ق . م ؟؟) وترتبط باسم « أورنمو » أول ملوك أسرة أور الثالثة . وأهمّ أحكامها :

(أ) ضرورة دفع الدية عن الجروح التى لا تؤدى إلى الوفاة .

(ب) محاولة توحيد الموازين والمكاييل .

وقد ذكر كاتب هذه النصوص أن « معبود مدينة أور القمر (ننار) قد اختار أورنمو نائبا عنه يقوم مقامه على الأرض »[2] .

المجموعة الثالثة[3]:

وترجع إلى عصر الإحياء السومرى وعلى وجه التحديد أوائل القرن التاسع عشر

= الخمر ، وتقاضي المال عن دفن الميت بهذه الصورة الرهيبة .

(١) وهذا اعتراف صريح من الحاكم أوركاجينا أن الإمارة استخلاف من الله ، وأن الهدى والتشريع من الله . وكلمته هذه من باب التحايل على الجماهير بأنه رجل مختار ومؤيد من ربه ، وهذا استغلال لشتار الدين .

(٢) وهذا اعتراف صريح من الحاكم العراقي بأن الإمارة استخلاف من الله ، وإلا ماذكر ذلك ، لاستجلاب تأييد الجماهير .

وقد أثبتت الأبحاث الأثرية التى جرت فى مدينة (أور) موطن إبراهيم أن القوم كانوا يعبدون القمر (ننار بلغتهم) ، وكان مؤسس الأسرة الحاكمة ملكا اسمه (ورنمو) الذى يعرف فى بلاد العرب باسم « نمرود » . (انظر : أبو الأعلى المودودى المصطلحات الأربعة ، هامش ص ٥٠) ، مصر والعراق ، ص ٤٢٩ .

(٣) مصر والعراق ، ص ٤٤٧ ــ ٤٥١ . ويغلب على تشريعاتها (الفقرة ب) الروح الإسلامية . فهى شبيهة بتشريعات الإسلام التى تجعل النفس بالنفس والعين بالعين ، والتى قدَّرت الديَّة ، والتى تقرر الرجم للزاني والزانية المحصنة ، والتي تجعل القتل للذى يغتصب فتاة ، هذه تشريعات ذكرتها نصوص قديمة ترجع إلى ماقبل رسالة محمد ﷺ بحوالي ٢٦ قرنا من الزمان تقريبا ، وهي مما لا شك تعكس لنا بعض تشريعات الإسلام التى أتى بها رسل الله الذين قد أرسلوا في بلاد أرض النهرين ، وظلت عالقة في أذهان الناس حتى دونوها بلغاتهم القديمة فى أرض الرافدين في ذلك الزمان البعيد . وهي تؤكد أصالة خط توحيد الله في حياة البشرية .

كما تؤكد شيئا آخر ، أن تحريم الإسلام لجرائم معينة بقيت كما هي في جميع الرسالات ، **فالقتل جريمة حزاؤها** =

ق . م ؟؟ وارتبط اسمها بدويلة أشنونا ، وقد عثر على نصوصها فى تل حرمل قرب بغداد ، وتتكون من ٦١ مادة أهمها :

(أ) تحديد أجور العربات والقوارب وعمالها وتحديد أسعار الحبوب .

(ب) تحديد عقوبات الجرائم والأضرار التى تلحق بالغير . فجعلت القتل عقابا للقاتل وقررت الجمع بين القصاص والدية . كما قررت القتل عقوبة للزوجة الزانية ، ولمن يغتصب فتاة مخطوبة . كما قررت الدية عن الجروح التى لا ينجم عنها وفاة .

المجموعة الرابعة(١) :

وترجع أيضا إلى عصر الإحياء السومرى وعلى وجه التحديد منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وترتبط باسم الملك « لبت عشتار » ملك دويلة« آسين » ، وتبلغ مجموع مواد التشريع التى عثر عليها مكتوبة على ألواح متفرقة فى « نيبور » حوالى ثمان وثلاثين مادة منها .

ـــ من حق العبد أن يحرر نفسه إذا دفع لسيده ضعف ما اشتراه به(٢) .

ومن الجدير بالذكر أن « لبت عشتار » ذكر فى أحد لوحات التشريع « بأن ربه وهبه إمارة البلاد ليحق الحق فيها ، ويعمل على إسعاد السومريين والأكديين جميعهم ، ويقاوم الفساد والقلاقل بقوة السلاح ، ثم أكد أنه استوحى شريعته من الرب ... ، وأقر كلماتها المقدسة ، وأنه ابتغى أن يحرر أبناء مدن سومر وأكد من الرق الذى فرض عليهم » .

= القتل ، والزنى جريمة جزاؤها القتل ، واغتصاب المرأة جريمة جزاؤها القتل ... وذلك يؤكد أيضا أن أصول توحيد الله واحدة فى كل الرسالات ، كذلك قاعدة الكثير من التشريعات ، فلم يكن من المعقول اعتبار القتل جريمة في عصر دون عصر في تشريعات الإسلام ، ولم يكن من المعقول أن يكون الزنى جريمة في عصر وليست جريمة فى عصر آخر ، ولم يكن من المعقول أن يكون اغتصاب الأعراض جريمة في عصر دون العصر الآخر . وهذا يؤكد وحدة الدين وهو الإسلام ، ووحدانية الأصل الذى نزل من عنده هذا الدين وهو الله رب العالمين .

(١) مصر والعراق ، ٤٤٩ ـــ ٤٥٠ .

(٢) إن إعطاء العبد الحق فى طلب حريته من سيده ، يعكس لنا نظاما إسلاميا ، الذى يعطى العبد الحق فى مكاتبة سيده لطلب حريته ، وهو ماشرعه الإسلام لتجفيف منابع الرق . وهذا يعكس لنا وحدة المصدر الذى تصدر عنه هذه التشريعات وهو الله عز وجل .

المجموعة الخامسة [1] :

وترجع إلى عصر دولة بابل الأولى وترتبط باسم « حمورابى » الذى بدأ حكمه منذ عام ١٧٢٨ ق . م . وقد عثر على نصوصها مكتوبة على لوحة طولها ٢٢٥ سم صور فى أعلاها حمورابى يتلقى الإذن من رب العدالة بإصدار تشريعاته . ويبلغ مجموع موادها ٢٨٢ مادة تتعلق بالأحكام الخاطئة وشهادة الزور ، والاعتداء على ملكية الغير ، والمسائل التجارية ، وشئون الأسرة ، والزواج ، وأجور الحرفيين ومسئولياتهم ، وشئون الزراعة ، والاستئجار ، وملكية وتجارة العبيد . ومن أحكامها :

(أ) إذا قتل المواطن ولم يتيسر معرفة قاتله لِيُقْتَصّ منه ، تعاونت المدينة وحاكم الإقليم على دفع دِيَّته إلى أهله .

(ب) من حق الزوجة استرداد بائنتها في حالة طلاقها .

(جـ) قتل الزوجة الزانية ومن زنى بها .

(د) مبدأ السن بالسن والعين بالعين فيما يختص بالعقوبات [2] .

---

(١) مصر والعراق ، ص ٤٤٩ ــ ٤٥٠ ، والجدير بالذكر بأن الحاكم يقر هنا بأن الحكم هبة من الله ولكن بشروط ، أهمها مقاومة الفساد ولو بقوة السلاح لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وأن التشريع وحي من السماء ، وذلك إشارة إلى أن الناس يدركون أن الحكم لله ، وأنهم ماكانوا ليقبلوا بتشريعات لا يقال لهم أنها من عند غير الله . وهو يعتمد على كتابات :

F. Steele, The Code of lipit Ishtar, American Journal of Archaeology,(1948), 425, L. W. King, The Letters and Inscription of Hammurapi NO 34,45, Harper, Letters and Inscriptions of Hammurabi · A. Ungand, Briefe Konig Hammurabis

(٢) وهي تعكس روح الإسلام في تشريعاتها ، الإسلام الذى دعا إليه الرسل على مدار تاريخ البشرية ، كما بينا ، وتعكس لنا وحدة المصدر الصادر عنه هذه التشريعات التي حملها رسل الله إلى البشرية أبناء آدم على مدار تاريخهم سواء هؤلاء الذين أرسلوا في أرض الرافدين أو في غيرها من بقاع الأرض . وفي مصر أو الجزيرة العربية أو في غيرها .

فإذا كان هنالك تشابه في التشريعات التي اقترنت باسم حمورابي مع تلك التي جاء بها موسى عليه السلام ، ومع تلك التي أتى بها محمد ﷺ . فلا يعني أن موسى عليه السلام قد أخذ عن حمورابي ولا يعني أن محمدا ﷺ قد أخذ عن موسى عليه السلام ، كما زعم أبناء المستشرقين ومن سار على نهجهم ، لإثبات زعم آخر وهو أن الدين الذى جاء به محمد ﷺ قد ألفه اعتمادا على ما أخذه موسى عليه السلام عن حمورابي ، أى أن الدين من اختراع العقل البشرى ، ولكن ذلك يعني أن المصدر الذى جاءت منه تشريعات حمورابي ودونها في موسوعته ، هو نفس المصدر الذى نزلت منه التشريعات على موسى ، وهو نفس المصدر الذى نزلت منه التشريعات على محمد ﷺ =

المجموعة السادسة والأخيرة[1] :

ترجع إلى العصر الآشورى الوسيط ، وترتبط باسم الملك تيجلات بيليسر الأول فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد .

ومن أحكامها :

(أ) إجازة رهن أفراد الأسرة ضمانا للديون .

(ب) الإعدام عقوبة الاشتغال بالسحر .

(جـ) للزوج ولاية كاملة على زوجته تصل إلى حد تطبيق العقوبات البدنية التى فرضها القانون على مثل حالتها . كما أن الزوجة تعتبر متضامنة مع زوجها فى دفع ديونه وأخطائه وجرائمه .

(د) الإصرار على خروج الحرائر محجبات من الرأس إلى القدم .

(هـ) الإعدام للمرأة القوادة (إن امرأة دفعت امرأة إلى العشق رغما عنها) .

(و) الإعدام لمن يغتصب امرأة متزوجة ، وإعدامهما معا إن رضيت بما فعله معها .

(ز) إذا اتهم رجل امرأة علنا بالزنا عند زوجها ولم يأت عليها ببينة وجب ضربه أربعين عصا وخصيه وتغريمه وتسخيره فى أعمال المَلِك شهرا .

= وهو الله عز وجل .

(١) مصر والعراق ، ص ٥٠٤ ــ ٥٠٧ ، ويغلب على الفقرة ب ، د ، هـ ، و ، الروح الإسلامية . فعقوبة الساحر ضربه بسيف في شريعة الإسلام ، والحجاب فرض من فروض الإسلام ، والقتل عقوبة للزنا ، واغتصاب العرض جريمة يعاقب عليها الإسلام بالقتل .

وهذا يؤكد مرة أخرى وحدة المصدر ، أنها من عند الله عز وجل ، ويؤكد حقيقة أخرى وهي أن أرض الرافدين كانت ميداناً لرسالات سماوية عديدة أو قليلة ، تركت بصماتها في التشريعات التي حكمت أرض الرافدين لزمن طويل ، كما تؤكد أصالة خط توحيد الله في حياة أهل الرافدين .